الأسلحة السرية

مختارات قصصية

خوليو كورتاثار

ترجمة وتقديم: ميادة مصطفى سامح

الأسلحة السرية

مختارات قصصية

خوليو كورتاثار

تقديم وترجمة عن الإسبانية

ميادة مصطفى سامح

تأليف: خوليو كورتاثار

ترجمة وتقديم نم الإسبانية: ميادة مصطفى سامح

إصدار أدب فن للنشر 2017

www.adabfan.com

adabfan@gmail.com

فهرس الكتاب

1- مداعبة في الأعماق..............................11
مجموعة حول العالم في ثمانين يومًا
2- الفرقة..18
مجموعة نهاية اللعبة
3- البيت المسروق.................................24
مجموعة المتوحش
4- زهرة صفراء.....................................30
مجموعة نهاية اللعبة
5- أحدهم مر من هنا...............................38
مجموعة أحدهم مر من هنا
6- هنا لكن أين وكيف..............................45
مجموعة نهاية اللعبة
7- جزيرة في وضح النهار.........................57
مجموعة النيران والنار
8- ليلة مانتكيا..67
مجموعة أحدهم مر من هنا
9- حماقات الشيطان.................................83
مجموعة الأسلحة السرية
10-الأسلحة السرية................................101
مجموعة الأسلحة السرية
11-المطارد...135
مجموعة الأسلحة السرية

مقدمة

ساهمت الأرجنتين بأثراء أدب أمريكا اللاتينية من خلال شعر الكاوجو، الذي ظهر في أواسط القرن التاسع عشر، وشخصية الكاوجو هي نموذج لراعي البقر في سهول البامبا التي تحتل مساحة واسعة من أراضي الأرجنتين، وسكانها يعتمدون في تحصيل قوتهم على ما يتوفر لهم من ابقار وخيول متوحشة منتشرة في تلك السهول. وحياة هؤلاء الرعاة ولهجتهم المتميزة التي تدلل على مستواهم الاجتماعي والاقتصادي أثرت في مجموعة من الشعراء فكتبوا بهذه اللهجة أعمالا شعرية خالدة عبروا خلالها عن الاضطرابات الإنسانية ومشاعر ومعاناة المزارعين البسطاء، وهم الأغلبية في القارة. وهذه المجموعة القصصية هي محاولة تعريف بكاتب يعد من أبرز قصاصي أميركا اللاتينية الذين تبوأوا مركز الريادة للرواية، ليس في الأرجنتين حسب أنما في بلورة الأدب الأمريكي اللاتيني، حتى أصبح هذا النهج المبتكر الذي تبناه روائيين آخرين سمة مميزة لأدبها، وأثاروا فيما بعد صدى عالميًا لأدب أميركا اللاتينية ومنح بعض أدبائها جائزة نوبل، فوضعت أساسًا لجدلية أدب هذه القارة، التي أطلق عليها مصطلح الواقعية السحرية التي برزت في بدايات القرن الماضي ويعد كورتاثار من أبرز كتابها، وأول من التفت لها كانت صحافة أميركا الشمالية(الولايات المتحدة الأمريكية) وأطلقت عليها أسم (ازدهار ادب أميركا اللاتينية) و استخدمت فيها الصحافة

الأدبية الكلمة الإنكليزية(بوم) لأنها أسست لمدرسة جديدة لم تكن معروفة أحدثت ثورة في تاريخ الرواية في عقد الستينيات من القرن الماضي، حيث كتب الروائيين بأسلوب انقلبوا فيه على الشكل والمضمون فمثلت تحولا في تاريخ الرواية وجذبت اليها الكثير من القراء فانتشرت عالميًا لأنها لم تهمل جانب النقد الاجتماعي بل على العكس رسخت الشخصية الاجتماعية والثقافية لشعوب هذه القارة وأبرزت هويتها الخاصة عالميًا، من خلال معالجتها شخصيات ومشاكل تفردت بها هذه الدول التي تميزت بتلون اعراقها.

ولد الكاتب في بلجيكا عام 1914(1984) من أبوين أرجنتينيين حيث كان يعمل والده في السفارة الأرجنتينية، وحين اندلعت الحرب العالمية الأولى هاجرت عائلة كورتاثار من بلجيكا إلى سويسرا، ثم اتجهت إلى إسبانيا لتعود من هناك إلى الأرجنتين. لينشأ خوليو كورتاثار في طبقة برجوازية صغيرة اختزن منها تطلعاتها وسلوكها وعاداتها وأعاد صياغتها فيما بعد نماذج أدبية، نشرها في بادئ الأمر باسم كورتاثار دنيس، وفي عام 1949 نشر قصيدة الملوك باسم خوليو كورتاثار، في فترة كان أدب أمريكا اللاتينية يفتقر إلى نموذج أدبي جديد، فقد ابرزت تلك الفترة الجيل الجديد في القارة وكان الكاتب أحد الأسماء التي شكلت فيما بعد أسم الرواية الجديدة.

في عام 1951 هاجر إلى باريس حيث أقام فيها حتى مماته عام 1984، كانت فرنسا البلدي الذي اعتبره كورتاثار منفاه الاختياري قائلًا "ليس بالضرورة أن تضع نفسك في المنظار العالمي للعالم القديم-اوروبا -حيث تتجلى أمكانية شمول الأشياء بنمط ضمن الوجود الذهني، لتكشف رويدا جذور أمريكا

اللاتينية الحقيقية من دون أن تفقد شمولية الرؤية للإنسان والتاريخ فالعمر والنضج يؤثران لكنهما لا يكفيان لتوضيح ذلك السياق من التوافق واسترجاع القيم الأصلية. أصر على أيماني (وأتحدث عن نفسي ولنفسي فقط) لو مكثت في الأرجنتين لترجمة نضجي ككاتب بطريقة أخرى!

لربها أكثر تكاملا وإقناعًا لمؤرخي الأدب لكنها بالتأكيد أقل إثارة واستفزازًا وودية لهؤلاء الذين يقرأون كتبي لأسباب حيوية وليس للامعان في التاريخ البيبلوغرافي أو التصنيف الجمالي ثم يضيف" في الأرجنتين "ولد كاتب ينظر إلى الواقع كما كان يتصوره مالارميه، أي إن يتوج الكتاب، أما في باريس ولد انسان رأى أن يتوج الكتاب الواقع".

لذلك فأننا نلمس في قصصه فكرتين أساسيتين هما الميتافيزيقيا كرمز للعالم والواقع المنفصل عن الممارسات اليومية المألوفة فيجمع ما بين عالمين أحدهما غامض لا مرئي، وهذا لا يتشكل من خيال اعتباطي أغراضه جمالية خالصة بل هو استقصاء لعمق الوجود الإنساني، هدفه تجسيد تجارب حياتية يطرحها الخيال من خلال الواقع الموضوعي لينتهي بها إلى وجود نظام آخر لسلوكنا الشخصي حتى لتبدو الفنتازيا واقعا آخر يسير بمحاذاة الواقع اليومي لأنها مرتبطة بذات الإنسان ومنبعثة من عنف العلاقات الداخلية للناس وهذه نكتشفها من خلال اسلوبه النثري المتميز، لقد وفق كورتاثار باستعمال المصطلح العامي من دون تشويه لغوي بل على النقيض ارتفع بالعامية إلى مستوى الفصحى ثم أخرج الفصحى من نطاق المحلية ليطلقها عاليا، فمملكة كورتاثار اللغوية ليس من اليسير اقتحامها لأنه دائم التصادم معها في معركة لا تنتهي وحسب تعبيره "يجب أن

نتشاجر مع اللغة كيلا تفرض علينا صيغا وتعابير وعبارات جاهزة لأنها ميزة الكاتب غير الماهر"، حتى أمست لعبة يلعبها بلا ملل، فهو لا يلتزم بالسرد التقليدي لأنه يحاول أن يتعارض مع كل ما هو مألوف من تعابير الحياة اليومية ليبحث عن لغة أخرى تعبر عن الواقع من وجهة نظره، متحديًا بذلك ما يطلق عليه هو (زيف اللغة الأدبية) فيبتدع لغة أكثر سلاسة لكنها أشد تعقيدًا إلى حد انها تربك القارئ أحيانا، من وجهة نظر النقاد أنه اعتمد التلاحم ما بين الحوار الذاتي وتوظيف الذاكرة دون تفتيت للنص بالرغم من أنه لم يتقيد بمسار الزمن في ترتيب الأحداث.

تضم مجموعة (الأسلحة السرية) أربعة قصص واضفت اليها قصصا من مجاميع أخرى واغلبها من مجموعة (نهاية اللعبة(، حيث وظف فيها الكاتب أساليب متنوعة لرسم شخصيات تلقائية مختلفة تمامًا عن بعضها، مستندًا إلى سمات تبدو تلقائية أو تنهج سلوكًا طبيعيًا، كل قصة يكتبها كورتاثار تتمحور حول فكرة أساسية تمسي انعكاسًا للحدث، لكنه لا يتردد بفرض رؤيته الخاصة على تلك النماذج ليسرد نبذة من تجربته الشخصية أو ظروفه الخاصة أو يسرد الحدث بالشخص المتكلم الثالث أي الآخر ويتلاعب بالتسلسل الزمنى بمهارة، فيضيف إلى شخصياته حركة من خلال الحوار وليس الحدث فيترك القارئ في حيرة أو ارتباك من النص. كما نلمس فيها الغموض أو الرومانسية أو الشك، لكنها تعبر أيضا عن شخصية كورتاثار، لان بونيس آيرس لم تغادر ذاكرته فهي حاضرة في العديد من القصص بحاراتها القديمة وازقتها وسكانها.

تنتمي الأسلحة السرية والمطارد إلى مجموعة: "الأسلحة السرية -1959" حيث بلغ فيها الكاتب ذروة نضوجه الفكري وتعتبر قصة المطارد من أهم القصص التي كتبها، أنها بحث عن إلغاء الزمن وهذه المعضلة تتكرر في قصص أخرى، فتجري الأحداث في زمن آني وغالبا ما يتحول أبطال كورتاثار إلى ضحايا نتيجة الإحباطات الداخلية كأن يكون الإنسان أسير عاداته أو أسير قيود اجتماعية فرضت عليه. لقد استفاد كورتاثار من اطلاعه على الأدب الفرنسي في بلورة أفكاره وفي احدى المقابلات تحدث كورتاثار عن تجربته في الكتابة وخصوصا (المطارد) التي تدور أحداثها في مدينة باريس خلال حقبة الخمسينات، الشخصية المحورية هو عازف ساكسفون، من وجه نظر النقاد هو شخصية حقيقية قد يكون الموسيقار جوني هودجس أو بني كارتر، تناول الكاتب في روايته موضوع الزمن ففصل بين الزمن الجاري الذي نعيشه وأخر لا يمكننا حسابه أو إدراكه و لا حتى تحدديه، وذلك من خلال تناول السيرة الذاتية للموسيقار جوني كارتر, أما الموضوع الثاني الذي طرحه كورتاثار هو الموسيقى التي يعزفها جوني لأنه حاول أن يجد من خلالها تلك المساحة المفقودة من الزمن، ولربما أدراج قصائد الشاعر ديلان توماس تعبر عن الازمة التي يعيشها جوني في الوقت الذي حاول صديقه الناقد أن يضعه بمظهر آخر لا يمت بصلة إليه، وتجدر الإشارة أن الإهداء هو للموسيقار جارلي باركر الذي يعد من أهم عازفي الجاز. حازت الرواية على إعجاب الناس حين صدورها فأنتجها المخرج الأرجنتيني اوسياس فيلنسكي فيلما بالأبيض والأسود عام 1965، إضافة لعرض الرواية كفيلم ألف أحد الموسيقيين بتأليف مقطوعة موسيقية اسمها المطارد.

أما قصص نهاية اللعبة توخى فيها الموضوعية في الطرح لتسرد مشاهد الحياة اليومية في بوينس آيرس واجوائها التي مكثت محفورة في ذاكرته بالرغم من اقصائه عنها لسنوات طويلة واختتم المجموعة بقصة ليلة مانتكيا حيث سرد فيها قصة شبه بوليسية، حاول من خلالها أن يسلط الضوء على أفول نجم الملاكمة الأرجنتيني مونثون، حدث وظفه كورتاثار لربما ليؤرخ حادثة تخص بلده لكنه حولها إلى قصة بوليسية بمهارته اللغوية وبراعته في توظيف الحدث لسرد واقعة أخرى، وكتب عن هذه المجموعة قائلًا: "حتى هذه اللحظة أشعر بالراحة لأنني أبدعت نماذج خيالية في كل قصص (العيد) و(نهاية اللعبة). أن عملية الإبداع، وتخيل وضع خيالي هدفه الجمالي يؤدي إلى خلق قصة مقنعة لي كان ذلك دوما احدى متطلباتي وكان ذلك يكفيني، أما قصص (نهاية اللعبة) فهي تنتمي إلى الشكل نفسه، ولما كتبت المطارد تخليت عن شعوري بالاطمئنان تناولت فيها مشكلة وجودية الطابع إنسانية، حتى بلغت من خلالها إلى مرحلة الوعي الكامل وتكامل القصاص الخطير الذي بلغ مستوى معين في (المطارد) تركت الخلق الابداعي لأضع نفسي داخل عالمي الخاص أي إن انظر قليلًا إلى نفسي، والنظر إلى نفسي يعني النظر إلى الأنسان والنظر أيضا إلى الآخرين. لقد نظرت قليلًا إلى الجنس البشري ثم كتبت المطارد".

ولربما حاول كورتاثار استقصاء وضع أنساني معين من خلال الميتافيزيقا دون التقيد برقعة جغرافية محددة الأمر الذي أرتفع به إلى منزلة عالمية.

ميادة مصطفى سامح

مداعبة في الأعماق

لا يقولون له شيئا في البيت، فيستغرب أكثر كل مرة لعدم مبالاتهم. بادئ ذي بدء أستطاع أن يواصل غير آبه مستغرقًا مع نفسه، بأن أضغاث أحلامه أو ما جرى له لن يدوم طويلًا، ها هو يسير غائرًا في الأرض حتى مرفقيه، لم يفطن إليه والديه وأخواته ليتخذوا قرارًا ما، حتى هذه اللحظة كان موقنًا أنه لن يواجه أية صعوبة لأن يتحرك، وهذا ما يخاله أشد غرابة من أي شيء، طالما فكر بإهمال والداه وأخواته له دون أن يلتفتوا إلى الطريقة التي يسير بها في كل مكان غائرًا في الأرض حتى مرفقيه.

جرت العادة أن تحدث الأشياء الرتيبة باطراد -من الأقل نحو الأكثر – فتوهم ذات يوم عندما أجتاز الباحة أن شيئا أمامه قد أثقله، بالغ النعومة كمن يزج في قطن وعندما نظر محدقًا، وجد رباط حذائه بالكاد يعلو عن أديم البلاطات، تملكته الدهشة فعجز عن التحدث أو البوح به فأنذعر من غضاضة انغماسه بأكمله متسائلا إن كانت الباحة قد لانت من كثرة غسلها، فوالدته تغسلها كل صباح وأحيانا كل مساء. فتجرأ بعد ذلك ليمد قدما ويخطو خطوة حذرا. ظن أن كل شيء على ما يرام لكن الحذاء عاود الدخول في البلاطات حتى عقدة رباطه. خطا خطوات عديدة وفي النهاية حتى كتفيه ثم ذهب ليشتري صحيفة الراثون بغية قراءة إعلانات الأفلام، كان يتجنب المغالاة عمومًا، قد يعتاد في النهاية على أن يسير على هذه الشاكلة، وبعد أيام

قلائل غض طرفه عن رباط الحذاء لكنه ذات مساء لم يبصر حتى حاشية سرواله.

من الآن فصاعدًا، الطريقة الوحيدة لتغيير حذائه وجواربه هي أن يتخذ مقعدًا ويرفع ساقا ليسندها على طرف مقعد أو على حافة سرير. وبهذا يستطيع أن يغتسل ويرتدي ملابسه، لكنه ما أن يتحرك حتى ينغرز مرة أخرى إلى ركبتيه. وعلى هذا المنوال كان يمشي مرورًا بسلالم المكتب أو في محطة «الرتيرو».

لم يتجرأ في تلك الأيام الأولى أن يسأل عائلته، أو أي شخص مجهول من الشارع، أن كانوا قد لاحظوا عليه شيئا غريبًا. ما من أحد يسره أن ينظر إليه خلسة -ليظن بعدها أنه مخبول -من الجلي أنه بمفرده يلاحظ ذلك، وكأنه يغور أكثر في كل مرة، ومما لا يطاق – وهذا الأمر يصعب البوح به لأحد -تقبله مزيدًا من الشواهد على طريقة غوره ببطء. أمضى الساعات الأولى يحلل فيها بتأن ما يجري له، عدا ساعات النوم مستغربًا من تصرف غير معقول لوالدته وخطيبته على سبيل المثال ألم تلتفت إلى ضغط يديه على مرفقيها ، فقامته أقصر منها ببضعة سنتمترات؟ حتى أنه أضطر لأن يثب على رؤوس أصابعه ليقبلها لكي يودعها عند مفترق الطريق، في تلك اللحظة تصلبت قدماه فشعر بشكل ملموس أنه يغور قليلًا وينزلق بصعوبة بالغة نحو العمق، لذا قبل خطيبته على عجل ثم ودعها بجملة لطيفة باهتة جعلتها في حيرة من أمرها بعض الشيء لكنه أقتنع بما لدى خطيبته من غباء لأنها لم تعترض على تصرفه الطائش هذا. أما أخواته، اللواتي لم يحببنه مطلقًا فقد وجدن فرصتهن الوحيدة ليشمتن به فهو لا يكاد يبلغ أكتافهن، ومع ذلك ما زلن

يتعاملن معه بتلك اللطافة الساخرة اعتقادًا منهن بأنه سلوك ودود جدا.

لم يفكر بإهمال والديه، بطريقة أو أخرى كانوا دائمي العمى عن أولادهم، إلا أن بقية العائلة والزملاء، وبوينس ايرس ما زالوا هنا يرونه. فكر بمنطق أن كل شيء بدا غير منطقي، والنتيجة القاسية أودت به إلى غطاء برونزي في شارع سيرانو، وإلى طبيب ليفحص ساقيه ولسانه. ضربه الطبيب بمطرقة لدنة وتندر قليلًا ثم أنقلب على ظهره، بدا له كل شيء طبيعيًا على سرير الفحص، لكن المشكلة بدأت من جديد لقد قالها له وكررها كما لو أن الطبيب أمسك برسغيه تلطفا منه ليساعده أن يلمس أديم الأرض.

ينبغي على شقة الباركية أن تكون شفافة ناعمة الملمس. فهو لم يفحص أوتار العضلات والمفاصل فحسب بل دغدغه من أخمص قدميه، طالبا منه أن يستلقي مرة أخرى على سرير الفحص، وفحص بالسماعة القلب والرئتين كان أجر الطبيب مرتفعًا، وقد أستغرق الفحص بتفان نصف ساعة تمامًا قبل أن يعطيه وصفة مع شيء مهدئ ونصحه كما هو معروف بتغيير الجو لأمد من الوقت.

أعاد إليه ستة آلاف بيزوس مقابل قطعة نقدية من فئة عشرة ألف. بعد هذه الأحداث لم يبق له طريق آخر إلا أن يواصل وهو يكابد، يذهب إلى العمل كل صباح ليرفع نفسه بقنوط كي يبلع شفتي خطيبته أو القبعة على مشجب المكتب.

بعد مضي أسبوعين، كان قد غار في الأرض حتى ركبتيه. وذات صباح عندما ترجل من سريره عاوده شعور كمن زج في

قطن بالغ النعومة، لكنه الآن يدفعه بيديه، فتنبه إلى أن الأرض قد بلغت منتصف عضلتيه حينئذ لم يستطع أن يلاحظ شينا غريبًا في وجه والديه وأخواته، بالرغْم أنه يراقبهم منذ فترة ليباغتهم بكل ريائهم.

ذات مرة تراءت له احدى أخواته أنها طأطأت قليلًا لتعيد له قبلة باردة على خده كانوا يتبادلونها عندما يستيقظون، فخامره شك في إنهم اكتشفوا الحقيقة أو غضوا طرفهم عنها لم يكن الأمر كذلك، لأنه بذل جهدا ليرفع نفسه أكثر من كل مرة حتى اليوم الذي ستبلغ الأرض ركبتيه، وبعدها تفوه بشيء عن غباء تلك التحية الشفوية التي لا تعدو أن تكون بقايا بدائية تحد من الأيام السعيدة التي ترافقها الابتسامة.

لقد فعل شيئا أسوأ مع خطيبته، عندما اصطحابها إلى الفندق، وهناك بعد أن ربح في عشرين دقيقة معركة ضد ألفي عام من الفضيلة، قبلها بلا نهاية حتى اللحظة التي ارتدت فيها ملابسها ثانية، تمت المعادلة كاملة ولم يبد عليها الضرر الذي سعى ليزيله كفاصل بينهما، رفع قبعته كيلا يضطر إلى تعليقها على مشجب المكتب، راح يجد حلا لكل مشكلة معدلًا اياها بالمقدار الذي يغور به في الأرض وعندما غار في الأرض حتى مرفقيه شعر بأن موارده قد نضبت وسيضطر أن يستعين بأحد ما جديا. أمضي أسبوعًا متظاهرًا بالزكام ليستحوذ على اهتمام والدته به وليضع أخواته التلفاز عند نهاية السرير. كان الحمام إلى جانبه، وأمضى أياما يرقد في سرير من خشب البلز لازمه تمامًا كالعائم فوقه، لكن ما أصابه كان شيئا لا يصدق، بدأت مكابدته ليبلغ القدح الذي توضع فيه فرشاة الأسنان، أذ تعذر عليه أن يعتلي حوض الاستبراء، لذلك كان يرقد في سريره عندما يشعر

بدخول أحد ومن مكانه كان يتصل هاتفيًا بخطيبته ليهدئ من قلقها عليه. يتخيل أحيانا كما في وهم طفولي شكل أسرة متصلة تمكنه من العبور إلى سرير آخر حيث خطيبته في انتظاره، ومن هناك سرير يمتد حتى المكتب وآخر حتى السينما أو المقهى، جسر من الأسرة فوق أرض بوينس ايرس. لن يغور أبدا، طالما أنه قادر بصحبة الأيادي على أن يتسلق الأسرة ويتظاهر بالزكام، في تلك الليلة ألم به كابوس فاستيقظ يصرخ وثغره يطفح ترابا لكنه لم يكن أكثر من نكهة ميرمية، ومزاج مكدر وهلع، طفق يفكر في الظلمة أن هو لازم السرير لربما ذلك كان مجرد حلم، لكن هل سيكفيه ليتنازل ثانية واحدة عن الرعب الذي يجعله ينهض حتى في حلكة الليل ليذهب إلى الحمام كي يغرق حتى رقبته في الشقة، فالسرير لن يستطيع حمايته مما سيأتي. راح يقتنع رويدا رويدا بانه حلم لأنه في الواقع كان هكذا، كان قد رأى في منامه أنه نهض في العتمة، ومع ذلك عندما أراد الذهاب إلى الحمام أنتظر حتى يكون بمفرده ثم أنتقل إلى المقعد، وبلغ الحمام حذرا ثم قفل عائدًا إلى السرير، بدر ذلك منه عندما تناسى الكابوس ليتسنى له أن ينهض مرة أخرى ويغور حتى خصره فقط ذلك أخف وطأة مما انتهى إليه في حلمه، وفي اليوم التالي أضطر أن يعاود التجربة فهو لا يستطيع أن يستمر متغيبًا عن المكتب.

يقينا كان حلمه مبالغًا به طالما أن التراب لم يدخل ثغره ولو للحظة، لم تكن المعاشرة أكثر من أحساس قطني قد ألم به في البداية، والتغيير الوحيد الذي لمسه بناظريه على مستوى الشقة هو أنه أكتشف على مسافة مجاورة مبولة، ونعلين حمراوين، وصرصرا صغيرا٠ كان يلاحظ بانتباه مطلق لم تكرسه له

أخواته أو خطيبته. فتنظيف الأسنان والحلاقة عمليات تجشمه عناء لما يبذله من جهود لكي يبلغ حوض الاستبراء وتسلقه بعناء على ذراعيه كان يضنيه٠ أما الطعام فقد كان يتناوله بشكل جماعي في بيته، ومن قبيل المصادفة أن لمقعده مسندين كان يستعين بهما، فيستند إليه ويعتليه على عجل.

كانت أخواته يقرأن صحيفة كلارين باهتمام ملحوظ، كأي قارئ صحيفة صباحية محلية لكن والدته حدقته للحظة، فرأته شاحبًا بعض الشيء بسبب الأيام التي رقد فيها ونقص الهواء الطلق في حين قال والده له أنه يكرر الشيء ذاته وأن دلالها له سيفسده، الجميع ينعمون بمزاج رائق فالحكومة الجديدة أعلنت هذا الشهر زيادة الرواتب وإعادة تنظيمها.

أشترى بدلة جديدة – كما نصحته والدته – بمقدوره أن يجدد رصيده هنالك زيادة في الدخل. لقد قررن أخواته تغيير الثلاجة والتلفاز، رأى على الطاولة نوعين من المربي. كان مطمئن البال لتلك الأخبار وتلك الملاحظات، وعندما نهض الجميع ليذهبوا إلى أعمالهم مكث هو في آخر مرحلة من كابوسه، معتادًا لأن يغور حتى خصره فحسب، بغتة رأى حذاء والده يمضي ملوثًا رأسه ليخرج إلى الباحة، لاذ بنفسه تحت الطاولة ليتفادى صندل إحدى أخواته وهي ترفع الشرشف، مهدئًا من روعه. «هل سقط منك شيء» سألته والدته، "السجائر" أجابها مبتعدًا قدر الإمكان عن الصنادل والأحذية التي ما فتئت تدور حول الطاولة.

امتلأت الباحة بالنمل، وأوراق الخباز وقطع زجاج قد تخدش خده، فقفل عائدًا على عجل إلى غرفته وفي اللحظة التي تسلق

فيها سريره رن جرس الهاتف. سألته خطيبته أن كان قد تحسن وهل سيلتقيان مساء؟

شعر بكدر ولم يستطع تنظيم أفكاره في تلك اللحظة، وعندما تذكر موعده في الساعة السادسة عند ركن الشارع كالمعتاد، ليذهبا إلى السينما أو إلى الفندق أو كما سيقرران حينذاك غطى رأسه بالوسادة ونام ولم يصغ حتى لنحيبه في الأحلام. أرتدى ملابسه في الساعة السادسة مستويًا على سريره، منتهزا عدم وجود أحد ما يراه فاجتاز الباحة مسرعًا حيث رقدت القطة. أجهده التفكير في الشارع بعدد لا يحصى من أزواج الأحذية تعلو ناظريه لئلا تركله أو تدعسه طالما أن أصحاب هذه الأحذية لا يبصرونه حيث يمكث في مكانه وفي الوقت نفسه أبعد تعب ناظريه المطبقين عنه الأشياء، حتى بدت خيالًا. أستطاع أن يرفع رأسه فمضى ليبحث عن وجه خطيبته لكنه لم يبصر سوى نعلي حذائها على مبعدة منه، في حين هي لم تكن تلاحظ حتى العوانق.

بسط ذراعًا ثم تلتها الأخرى، محاولًا أن يداعب تلك النعلين اللذين يخبرانه عن وجود خطيبته المسكينة بعد أن استطاع أن يبعدها عنه بيده اليسرى غير أن اليد اليمنى لم تطالها، وبعدئذ أخفقت يداه، أما هي فما زالت تنتظر.

الفرقة

قص عليّ لوثيو مدينا، حادثة جرت له عام 1947، بعد أن علمت في شهر أيلول من العام نفسه بأنه تخلى عن مهنته ورحل عن البلد. فكرت بإمعان عن علاقة تربط بين الحدثين. لست أدرى أن لمس تلك الصلة ذاتها، سواء كانت تجدي أم لا، أو يعيش في روما أو بيرمنغهام، سأقص راويته البسيطة وأوضحها بأقصى مستطاعي.

نظرة إلى لوحة الإعلانات أوعزت للوثيو أن سينما دار الأوبرا تعرض فيلما لاناتول ليتفال ضيع فرصة مشاهدته عندما كان يعرض في الصالات الرئيسية. جذب انتباهه أن سينما مثل دار الأوبرا تعيد عرض مثل ذلك الفيلم. لكن بوينس ايريس كانت تفتقر إلى ما هو جديد في عام47. بعد أن أنهى عمله في سارمينو فلوريدا، في الساعة السادسة أتجه صوب مركز المدينة منقادًا برغبة أرجنتيني طيب. وصل إلى السينما لحظة ابتداء العرض، كان البرنامج يتضمن أعلانا عن فاصل دعاني، ورسم محفز وفيلم لليتفاك، طلب لوثيو مقعدًا في الصف الثاني عشر وأشترى صحيفة كريتكا ليتجنب النظر إلى ديكور الصالة والشرفات الجانبية التي تسبب له جيشانا خفيفا.

ابتدأ الفاصل الدعائي في تلك للحظة، ولج الصالة كثير من الناس عندها ابتدأ عرض السباق بين سباحين من ميامي وحوريات البحر في حين افتتحوا في تونس سدا ضخما. جلس إلى يمين لوثيو جسد ضخم تفوح منه رائحة جلد روسي اتكينسون، عبقه معروف لديه برفقته جسدان صغيران كانا

يسببان ضجيجًا بلا راحة لكنهما هدأ ساعة عرض دونالد دك. كل ذلك بدا مألوفًا في سينما بوينس ايريس وبخاصة في القسم الشعبي.

عندما اوقدت الأنوار حجبت لوهلة سماء يعجز وصفها مزينة بالنجوم والغمام، أستهل صديقي قراءة صحيفة كريتكا بعد أن ألقى نظرة على الصالة. ثمة شيء فيها لا يبدو على ما يرام، شيء بلا ملامح. سيدات مفرطات السمنة تناثرن في الصالة كالتي إلى جانبه ترافقهن ذرية كثيرة العدد. أستغرب من تلك الناس التي ترتاد الأوبرا، سيدات عديدات يرتدين الفراء وملابس لطاهيات وقورات أخذن زينة يوم الأحد، كن يتكلمن بإسهاب برفقة إيماءة إيطالية ودية، ويخضعن أطفالهن لنظام القرص والدعاء. ورجال يسندون قبعاتهم إلى ساقهم (يحملونها بكلتا يديهما) كانوا يمثلون الجانب الآخر المذكر واجتماعهم معا جعل لوثيو في حيرة من أمره، ألقى نظرة على البرنامج المطبوع. لم يقرأ شينا سوى الأفلام المعروضة والأفلام التي ستعرض وكل ماعدا ذلك لا يتطابق مع أي نظام، دون أن يدرك الأمر شرع في قراءة صحيفة كريتكا ولما أنتصف قراءة الصحيفة أخذ يفكر بالوقت لأن فاصل الاستراحة كان طويلًا ثم ألقى نظرة أخرى على الصالة. دخل زوجان ومجموعة مكونة من ثلاث أو أربع نساء كن أنيقات وفق تقدير باركه وبياكرسيو، في حين توزعت اللقاءات والترحيب الحار في شتى أنحاء الصالة.

تساءل لوثيو أن كان مخطئًا بالرغْم مشقته في تحديد خطته. خفتت الأنوار في تلك اللحظة، وخبت أضاءه المسرح ثم رفعت الستارة، فرأى لوثيو، دون أن يصدق ما يراه، فرقة نسائية

موسيقية كبيرة ظهرت على المسرح تحمل لافتة كبيرة كتب عليها فرقة البركاتاس، (أتذكر ملامح وجهه عندما قصها علي) ولما شهق من روع المفاجأة، رفع المدير العصا وأسكت ضجيج الصالة الصاخب، كأنه استعراض عسكري.

- وكما تعلم، كان الأمر لا يعقل مما أذهب عني ذهولي الذي تملكني برهة -قال لوثيو -أو ذكائي. أن سمحت لي أن اسميه هكذا، أستجمع فورًا التنافر المتباين ليجعل منه حقيقة: عرض لموظفي وعوائل شركة الباركانس. أما ضفادع الأوبرا الذين كانوا مختبئين يبيعون البطاقات الفائضة كانوا موقنين أننا لو علمنا بأمر الفرقة ونحن في الخارج لما دخلنا ولو رميا بالرصاص، كل ذلك رأيته بوضوح، لكن لا تظن أنها سلبت مني المفاجأة أولا، لأنني لم اتخيل مطلقًا وجود فرقة نسوية كهذه الظاهرة (أقصد الكمية) في بوينس ايريس. أما الموسيقى التي تعزفها فبدت مروعة، لان معاناة مسمعي لم يبج لي أن أنسق افكاري وتأملاتي، فتملكتني رغبة لأن اضحك عاليا، وأرفس جميع الناس، ثم أذهب، لكنني لم أشأ أن أخسر فيلم أناتول ليتفاك، لهذا لم أبرح مكاني. اختتمت الفرقة الجولة الأولى في حين اثارت السيدات هرجا للاحتفاء بها.

أخذ لوثيو يرصد ما سيقدم في الفاصل الثاني (وفق ما هو معلن) وعاجلا ما تبين زيف الفرقة الكبير، بالرغم من أن عدد أعضائها بلغ المائة ونيف كان الجزء الثالث هو الذي يعزف فقط أما البقية كانوا مجرد حشدا من البنات يلوحن بالأبواق والمزامير كعازفين بحق، بيد أن الموسيقى الوحيدة التي يطلقونها تنبعث من سيقانهن الجميلة التي وجدها لوثيو جديرة بالمدح والثناء، وبالأخص بعد بضع تجارب مخيبة في مايبو ٠

مجمل القول، أقتصر عدد الفرقة الغريبة على أربعين من قارعي الطبول وعازفي البوق، أما البقية كانوا مجرد زينة ظاهرية بمساعدة زي أنيق وزينة نهاية الأسبوع. كان المدير شابا ملامحه غير واضحة لأنه تلفع ببدلة فراك، فبدا كشبح صيني متباين مع الخلفية الحمراء المذهبة للفرقة وخنفسًا مختلفًا تمامًا عن صورة المشهد، شرع الشاب يلوح بعصا طويلة في جميع الاتجاهات ومتأهبًا لضبط إيقاع موسيقى الفرقة، أما الفرقة فهي أسوأ ما سمعته في حياتي. توالت الفقرات، وأستمر اصغائي وسط أهازيج عامة (كرر أقوالهم الهازئة الجارحة)، تملكتني رغبة لأن تنسحب قطع الحلوى ويسود السكون قبة الأوبرا المضاءة. أسدلت الستارة وشعر لوثيو بوثبة فرح، لكنه تنبه إلى أن الأنوار لم تنطفئ، فقفز من مقعده متوجسًا، ثم رفعت الستارة مرة أخرى، والآن ابتدأ استعراض جديد:
«الفرقة في أستعراض» ٠أصطف البنات بشكل جانبي، وانبثقت من آلاتهن المعدنية ضجيجًا حادا بلا إيقاع كعرض التالا، لم يقم جميع اعضاء الفرقة بأية حركة على المسرح، باستثناء تحريك سيقانهن بإيقاع منتظم وكأنهن يقمن باستعراض، ويكفي وجود والدة احدهن ليبدو الاستعراض متكاملًا. وتألق المشهد عندما ظهرت ثماني فتيات قبيحات يمسكن بعصا لها مقبض يلوحن بها، ثم يرمونها بالهواء، ويتبادلن فيما بينهن. أفتتح العرض الشاب المرقش متظاهرًا بأنه يحسن ضبط الإيقاع، فأضطر لوثيو أن يصغي حتى النهاية ولحسن ظنه استغرق العرض من خمس إلى ثماني ساعات وعند انتهائه بدا الترحيب به فاترًا. فأسدلت الستارة كجفن عريض ليحمي السطح الأملس المستقيم من الظل والصمت.

-تناسيت دهشتي -قال لي لوثيو – وأثناء مشاهدتي للفيلم الرائع لم أستطع أن أتجرد من احساسي بالدهشة. خرجت إلى الشارع، كانت الحرارة خانقة ورواد الثامنة ليلا، دخلت حانة لأحتسي مشروبًا، وبغتة نسيت فيلم ليتفاك تمامًا، وأنشغل تفكيري بالفرقة التي بدت كعرض الأوبرا. اعترتني رغبة في الضحك لكنني كنت غاضبا أتفهمني!

أولا لأنني وددت أن أدنو من شباك التذاكر لأقول أربع حقائق لم أفعلها لأنني أرجنتيني، وأدرك ذلك جيدا. أنها فوضى، ألا تبدو لك هكذا؟ ليس ذلك ما أثارني فقط، بل الأمر أكثر عمقا، بل لأنني ابتدأت أفهم في النصف الثاني من العرض.

يصعب وصف قصة لوثيو. وهي بمجملها (بالرغم من أن جوهرها يفلت مني)، حتى تلك اللحظة أقلقته سلسلة عناصر شاذة مشتتة: البرنامج الكاذب. المشاهدون المزيفون، والفرقة المشعوذة بغالية عناصرها المزيفة. مظهر المدير الذي لا ينسجم معها، الاستعراض الظاهري، وهو الذي وجد نفسه محشورا في أمر لا يهمه. فتهيأ له عاجلا أنه فهم ما حدث بصيغة مبالغ فيها. أحس في النهاية بأنه استطاع أن يرى الحقيقة، كانت لحظة حقيقية، بدت له مزيفة لأنها الحقيقة التي لم يعد يراها. ما أن انتهى من مشاهدتها كان موقنًا إنها مزيفة، لم يعد يستنكر العناصر المتنافرة التي تحيط به، لأنها تكمن في وعي العالم الآخر نفسه، أدرك أن تلك الرؤية قد تمتد إلى الشارع وإلى الحانة وبدلته الزرقاء، وبرامجه الليلية، ومكتبه الصباحي، وما وفره، وعطلته في شهر آذار، وصديقته، ونضجه، حتى يوم مماته، ولحسن حظه لم يعد يرى ما قد

حدث، ولحسن حظه أنه أصبح مرة اخرى لوثيو مدينا لكن لحسن حظه فقط.

البيت المسروق

كان المسكن يروق لنا، فإضافة لاتساعه وقدمه (البيوت القديمة تخضع اليوم للاستفادة القصوى من تصفية موادها) فهو يحتفظ بذكرى أجدادنا، جدي لأبي، ووالدينا وكل عهد الطفولة. أعتدنا أنا وايرينه أن نتواجد فيه وحيدين وما يبعث على هوسنا بذلك المسكن أتساعه لسكن ثمانية أشخاص دون أتلافه. كنا نبدأ التنظيف صباحًا، نستيقظ في الساعة التاسعة وعند الحادية عشرة أترك الغرف الأخيرة لايرينه لتعاود الكرة وأدلف إلى المطبخ. نتناول غداءنا عند الظهيرة، مراعين المواعيد دائمًا، وعندئذ لا يبقى شيء للقيام به عدا بضعة صحون متسخة، كنا نشعر بسرور لما نفكر في المسكن الأصيل الهادئ وكم توخينا أدامته نظيفًا، حتى نظن أحيانا بأنه هو الذي يصرفنا عن الزواج. ردت ايرينه متقدمين لخطبتها دون سبب قوي. أما أنا فقد توفيت ماري استر قبيل عقد القران. دخلنا عامنا الأربعين بفكرة مبهمة أن ما يخصنا هو كزواج أخوي بسيط، كان ختام مهما لسلالة أسسها أجداد مسكننا.

سنقضي نحبنا هنا يومًا ما وأبناء عم لنا كسالى، سيستحوذون على المسكن ويطرحونه أرضا ليثروا بأرضه وآجره، من المستحسن أن نخصصها نحن لأنفسنا بأنصاف قبل قوات الأوان. ايرينه فتاة ولدت كي لا تكدر أحدا، فإضافة إلى نشاطها الصباحي تمضي بقية اليوم على أريكة مضجعها وهي تنسج، لا أعرف لماذا تنسج كثيرًا، أرى أن النساء ينسجن عندما يجدن في هذا العمل حجة كيلا يعملن شيئا. لم تكن ايرينه كذلك، كانت

تنسج أشياء ضرورية دائمًا، بلوزات للشتاء وزوجي جوارب لي، وبلوزة وقميصًا لها.

كانت تنسج أحيانا قميصًا وتنكثه في لحظة لأن شيئا ما لم يرق لها. تسرها رؤية كومة الخيوط المتغضنة في السلة تحاول ألا تفقد شكلها في غضون ساعات. أذهب كل سبت لأشتري لها أصوافا، كانت ايريته تثق بذوقي، وترضيها الألوان ولم يحدث لي أن ارجعت اللفائف كنت أنتهز ذلك الخروج لأتجول في المكتبات وأسأل عن جديد في الأدب الفرنسي. منذ 1939 لم يصل شيء قيم إلى الأرجنتين . أما عن البيت فالكلام يروق لي عن وعن ايرينه، فأنا لست مهما. أتسأل ما عسى أن تفعل ايرينه من دون أن تنسج، بمقدور كل شخص أعادة قراءة كتاب، أما إذا أنجز بلوزة فلا يمكن اعادة نسجها دون فضيحة.

ذات يوم وجدت صندوقًا في الصوان مليئًا بمناديل صغيرة بيضاء وخضراء وبنفسجية كامنة بالنفتالين، مكدسة كما في محل أدوات الخردة، لم تستحق قيمتها أن اسأل ايرينه عما تفكر أن تفعل بها. لم نحتج أن نكسب العيش، تصلنا حصتنا من غلة الحقول كل شهر ومالنا يتزايد، أما ايرينه فلا يسليها إلا النسج يبدو أنها تسلية رائعة. أما أنا فأمضي الساعات وأنا أراقب يديها كالقنافذ الفضية إبر تذهب وتغدو، سلة وسلتين على الأرض تتأرجح فيها اللفائف باستمرار، يالروعتها. كيف لا أذكر تقسيم الدار، غرفة طعام، وبهو استقبال ومكتبة وثلاث غرف نوم كبيرة، تقع في الجانب المنزوي وتطل على شارع (رودريكث بيبا) وهنالك ممر يعزل ذلك الجانب بباب مصنوع من خشب البلوط الثقيل عن الجانب الأمامي حيث الحمام والمطبخ، وغرف نومنا وغرفة الجلوس التي تطل عليها غرف نومنا

والممر. ندخل المسكن عبر دهليز مزين بفخار مزجج، ينفتح باب بثلاثة مصاريع ومن ثم ندخل إلى غرفة الجلوس، على جوانبها أبواب غرف نومنا وأمامها ممر يقود إلى الجانب الأكثر انزواء، ثم نمضي قدما في الممر لنتجاوز باب خشب البلوط وعند نهايته يبتدئ الجانب الآخر من المسكن، وأن شئت أن تحيد نحو اليسار قبل الباب تمامًا، ثم تواصل في ممر ضيق ينتهي بالمطبخ والحمام. عندما ينفتح الباب يتنبه الشخص إلى سعة المسكن لأنه لا يشبه الشقق التي تبنى اليوم، بالكاد تسع للحركة، كنا نعيش أنا وايرينه دائمًا في هذا الجانب من المسكن ولم نذهب بتاتًا أبعد من باب خشب البلوط، إلا للتنظيف. أن تراكم الغبار على الأثاث أمر لا يصدق، قد تكون بوينس ايرس مدينة نظيفة، إلا أن هذا يعتمد على أهلها وليس على شيء آخر، هنالك غبار كثير في الهواء، ما أن تهب نسمة حتى تلمس الغبار على مرمر الطاولة وبين تغضنات السجاد وينبغي أزالته بمنظفة ريش، فيتطاير ويعلق بالهواء، وبعد لحظة واحدة يتراكم على الأثاث والبيانو، كانت ايرينه تنسج في مضجعها، عندها خطر على بالي بغتة في الثامنة ليلا أن أضع الإبريق على النار. سرت باتجاه الممر حتى واجهت باب خشب البلوط المغلق فاستدرت عند انحناءاته نحو الجانب المؤدي إلى المطبخ فسمعت شيئا في غرفة الطعام والمكتبة، تناهى صوتا مبهما خافتا كأصيص الكرسي على السجاد أو همس خافت لكنني سمعته أيضا، في اللحظة ذاتها أو بعد ثانية من خلال جوف الممر الذي يجلبه من تلك الناحية حتى الباب، اندفعت خلف الباب قبل فوات الأوان، وقد اغلقته بغتة مستندًا عليها بظهري، من حسن حظي أن المفتاح كان في جهتي وأضافه إلى ذلك أغلقت المزلاج الكبير لكي اطمئن أكثر. دخلت المطبخ ثم

سخنت الإبريق وعندما عدت بصينية الشاي قلت لايرينه: يجب أن أغلق باب الممر لقد سرقوا الجانب الداخلي أسقطت النسيج ورمقتني بنظرتين خطرتين منهكتين.

- هل أنت متأكد؟

فأومأت مؤكدًا ذلك.

أذن -وهي تلتقط أبر النسيج -علينا أن نعيش في هذا الجانب. ارتشفت الشاي بحذر، لكنها تأخرت للحظة لتستأنف عملها. أتذكر أنها كانت تنسج صديريا رماديًا، لقد أعجبني ذلك الصديري. مرت الأيام الأولى بحزن لأننا تركنا في الجانب المسروق أشياء محببة إلينا، كتبي في الأدب الفرنسي على سبيل المثال، كانت برمتها في المكتبة، في حين افتقدت ايرينة بضع محافظات أوراق، وزوجي خف، كثيرًا ما تدفأت بهما شتاء، تأسفت على الغليون، وأظن أن ايرينه تذكرت علبة اسبرين احتفظت بها أعوامًا عديدة. غالبا ما كنا (لكن هذا حدث في الأيام الأولى) نغلق أحد أدراج الصوان ونحدق اليها بكآبة.

-لا يوجد شيء.

ما كنا افتقدناه في الجانب الآخر من المسكن كان شيئا أكثر من الكل لكنه عاد علينا بفائدة، فالتنظيف تيسر كثيرًا حتى لو نهضنا متأخرين، في التاسعة والنصف مثلا، فما أن تبلغ الحادية عشرة نكون ساعتئذ مكتوفي الأيدي. اعتادت ايرينه أن ترافقني في المطبخ وتعينني في تحضير الغداء فكرنا مليا وقررنا ما يلي:

بينما أحضر الغداء تطهي ايرينه أطباق أكلات باردة لليل. لقد سررنا لأن ما يكدرنا دوما ترك غرف النوم عند المساء

والذهاب إلى المطبخ لننصرف إلى الطهي. أما الآن فستكفينا طاولة في مضجع ايرينه ليتسنى لها وقت أكثر للنسج، أصبحت ضائعًا بعض الشيء بسبب تراكم الكتب. ولكيلا أحزن أختي انصرفت لمراجعة مجموعة طوابع والدي لقد أسعفني هذا في قتل الوقت. كنا نتسلى بأشياء كثيره، غالبا ما كنا نجتمع في مضجع ايرينه المريح، أحيانا كانت ايرينه تقول:

-أنظر إلى هذه الزخرفة التي خطرت على بالي، ألا توحي لك بصورة أو برسم؟

وبعد لحظة كنت أضع أمام ناظري مربعًا ورقيا لأرى أي طابع هو أفضل. كنا مرتاحين وتركنا التفكير شينا فشيئا٠ يمكن العيش دون أن تفكر. عندما تحلم ايرينه بصوت عال كنت أبقى صاحيًا حينذاك، لم أعتد مطلقًا على ذلك الصوت وكأنه لتمثال أو ببغاء، صوت يأتي من الأحلام وليس من الحنجرة، قالت ايرينه بأن أحلامي مثل هزات كبيرة، تسقط اللحاف أحيانا. تتوسط غرف نومنا طاولة كبيرة، وليلا يمكن سماع كل شيء في المسكن، كنا نسمع التنفس، والعطس، والسهاد المتبادل المعتاد. عدا ذلك كان كل شيء ساكنا في الدار، تسمع الضوضاء المنزلية نهارًا، واحتكاك أبر النسيج وخشخشة تصحيف أوراق البوم الطوابع. أما باب خشب البلوط، أظن أني ذكرته فقد كان ثقيلًا، وفي المطبخ والحمام المطلين على الجانب المسروق، كنا نتحدث بصوت عال وتشدو ايرينه ترنيمة ما، ومن المطبخ يصدر ضجيجًا بسبب تداخل أصوات الفخار والزجاج بأصوات أخرى. نادرًا ما كنا نسمع الصمت يسود ذلك المكان، وعندما نلج غرف نومنا وغرفة الجلوس يخلد البيت للهدوء نصف مضاء، حتى أننا نمشي بحذر لئلا نزعج أنفسنا.

أظن أن ذلك كان ليلا، عندما شرعت ايرينه تحلم بصوت عال، وسببت لي أرقا. أكاد أكرر الشيء ذاته إلا النتائج، شعرت بظمأ ليلا، وقبل أن أرقد أخبرت ايرينه أنني ذاهب إلى المطبخ، ربما في المطبخ أو ربما في الحمام لأن انحناءة الممر تخفت الصوت. لفت انتباه يرينه طريقة توقفي بفظاظة فأتت إلى جانبي دون أن تنبس ببنت شفة بقينا نصغي لولولة مدركين بوضوح أنها تصدر من هذا الجانب من باب خشب البلوط، ومن المطبخ والحمام، أو في الممر نفسه حيث تبدأ انحناءته من جانبنا تقريبًا. لكننا لم ننتظر، ضغطت على يد ايرينه وهرولنا إلى الباب الثلاثي المصاريع بغتة وبقينا في الدهليز٠٠ الآن لا نسمع شيئا.

- لقد سرقوا هذا الجنا ح... -قالت ايرينه ٠

وقد تدلى النسيج من يديها وتدحرجت اللفائف حتى الباب الثلاثي المصاريع وضاعت تحته وأبتعد النسيج وغاب عن النظر.

-هل لديك الوقت لجلب شيء ما؟ سألتها بلا جدوى.

-لا، لا شيء.

كنا بما عليه، تذكرت الخمسة آلاف بيزوس في صوان مضجعي. لكن الأوان قد فات، وكل ما تبقى ساعة يدوية فعرفت أنها الحادية عشرة ليلا، طوقت وسط ايرينه بذراعي (ظنا مني إنها تبكي) وهكذا خرجنا إلى الشارع. وقبل أن نبتعد تأسفت وأغلقت باب المدخل جيدا ورميت بالمفتاح إلى مجاري التصريف

زهرة صفراء

تبدو أنها طرفة لكننا خالدون، أعرفها لسلبيتها، أعرفها لأنني أعرف الفاني الوحيد. روى لي حكايته في حانة في شارع كاميرون. كان ثملا ولم يجد مشقة لأن يبوح بالحقيقة بالرغم من أن مالك الحانة والزبائن ضحكوا حتى نضح الخمر من عيونهم. اضطررت أن أرسم أي تعبير على محياي، لأنه أحكم تطويقي وانتهى بنا الأمر أن نجلس إلى طاولة في ركن ما، فتسنى لنا أن نشرب ونتحادث بهدوء. روى لي بأنه متقاعد عن العمل في البلدية في حين عادت زوجته لوالديها منذ فترة، أي أنه استوعب بشكل آخر هجرها له. كان نمطا ليس بالكهل ولا بالجاهل، عابس الوجه متدرن العينين ويحتسي الخمر لينسى، وبدأ يسرد قصته بعد كأس النبيذ الخامسة لم أشعر منه بتلك الرائحة التي هي ميسم باريس لكن يبدو أننا نعبق برائحة الأجانب. كانت أظافره مقلمة ولا أثر للقشرة في شعره روى لي أنه رأى في إحدى حافلات خط 95 صبيا يبلغ الثالثة عشرة من العمر، وفي اللحظة التي وقع بصره عليه أكتشف أن الصبي كثير الشبه به، أو على الأقل يشبه الذكرى التي أحتفظ بها عن نفسه في تلك المرحلة من العمر. ورويدا رويدا أقتنع أنه يشبهه في كل شيء. الوجه واليدين، ذؤابة شعره المتدلية على جبهته بل أكثر من ذلك في حيائه وطريقته التي يهرب بها وهو يقرا مجلة حكايات، طريقة تصفيف شعره للخلف، وتعثر حركاته البليدة، كان يشبهه لدرجة حدت به للضحك ولما ترجل الصبي في شارع رينس، هبط كذلك تاركًا صديقه بانتظاره في مونت بارناس. بحث عن حجة ليتحدث بها مع الصبي، سأله عن

شارع فتناهى إليه بلا مباغتة صوت كصوته في الطفولة. كأن الصبي يقصد ذلك الشارع، سارا معا بحياء بضع خطوات وبعد هذه المسافة هبط عليه نوع من ألإلهام٠ لم يكن الأمر جليا لربما لن يتطرق إليه، فمن الحماقة والغباء أن يحاول -كما الآن-أن يشرحه. خلاصة الأمر، تهيأ ليعرف بيت الصبي، مستعينا بالمنزلة التي يمنحها اياه ماضيه كمدرب تنس للفتيان، خطا خطوة صوب ذلك الحصن المنيع كان منزل فرنسيا.

وجد حالة من البؤس ووالدته العجوز، وعمه المتقاعد، وقطتين. لذلك لم يجد مشقة لما ائتمنه أخوه على أبنه البالغ أربعة عشر عاما، فأصبح الصبيان صديقين٠ أخذ يتردد كل أسبوع على بيت لوك، فتستقبله الأم بالقهوة المغلية، كانوا يتحدثون عن الحرب وعن الاحتلال، وكذلك عن لوك الذي رسخ بداخله صورة راحت تنتظم هندسيا لتسلك ذلك الجانب الواضح الذي يروق للناس أن يطلقوا عليه أسم القدر. ويمكن صياغته بالتعابير اليومية: كان لوك هو مرة أخرى. لا يوجد فناء كلنا خالدون.

-كلنا خالدون، أيها العجوز. أنظر لم يستطع أحد ان يقارنه بي لكنه حصل لي في خط 95. لقد حدث خطأ طفيف في آلية الزمن ودورته، ثمة مصادفة متزامنة بدل أن تكون متعاقبة. توجب على لوك أن يولد بعد موتي، و بالمقابل... من دون أن أروي مصادفة لقائي الخرافي به في الحافلة. أظن أنني ذكرته له، كان درب يسوده الأمان التام بلا كلمات. هكذا كان وانتهى، بعد ذلك راودتني الشكوك، لأنه في تلك الحالات يتصرف الإنسان بلا رشد ويتناول المهدئات، وإلى جانب الشكوك التي قتلتها واحدة تلو الأخرى، أن اثبت عدم الخطأ، ولم يكن هنالك

سبب لأن أشك لأن ما سأقوله هو أكثر ما يثير ضحك هؤلاء الحمقى، عندما أقصه عليهم أحيانا ◆ لوك لم يكن أنا مرة اخرى. بل سيصبح مثلى، مثل هذا الفقير التعيس الذي يحدثه. ينبغي ألا أراه كثيرًا وهو يلعب، وأراه يسقط. فتنكسر قدمه أو عظم الترقوة، تلك الأحاسيس التي تثير القشعريرة، وهذا الحياء الذي يعلو وجهه عندها توجه له سؤالًا. كانت أمه على النقيض منه، يعجبها الكلام كثيرًا، تروي لي كل شيء بالرغم من أن الصبي يكاد يموت خجلا، تفاصيل صميميه لا تصدق، مفارقة ظهور السن الأولى، رسومه وهو في الثامنة وما أصابه من أمراض، لم تكن السيدة الطيبة ترتاب بأي شيء، فالعم يلعب معي الشطرنج، أصبحت واحدًا من العائلة، حتى أنني أعنتهم بالنقود لتساعدهم حتى نهاية الشهر. لم أبذل جهدا لأعرف ماضي لوك، اكتفيت بطرح الأسئلة من خلال مواضيع تعجب الشيوخ، كروماتيزم العم وسوء تصرف البواب والسياسة. وهكذا عرفت طفولة لوك التي تراوحت بين تهديد المالك ورد الفعل إزاء سعر اللحم، فأثبت ما أريده بشكل تام وبلا خطأ واتضحت الأمور لي، طلبنا كأسًا آخر... لوك هو أنا، ما كنت عليه عندما كنت طفلا، لكنه لم يرد على خاطري كذكرى أو بالأحرى شكلا مشابهًا لي، أتفهم؟ أي عندما كنت في السادسة من عمري كسرت معصمي ولوك كسر عظم الترقوة، وفي التاسعة أصبنا كلانا بالحصبة والحمى القرمزية. وتتداخل الحكاية، فالحصبة لازمتني خمسة عشر يومأ في حين لوك برأ منها خلال أربعة أيام، بسبب تقدم الأدوية والأشياء الأخرى.

كانت الأشياء متشابهة، على سبيل المثال بائع الخبز على الناصية هو نسخة من نابليون، بالرغم من أنه يجهل هذا لأن

نظام الزمن لم يُزيف، ولا يجد الحقيقة مطلقًا في الحافلة. وأن عرف الحقيقة ذات يوم، سيدرك أنه كرر وسيكرر نابليون وسيتحول من عامل يغسل أطباق إلى مالك أفضل مخبز في موني بارناس وأنه الصورة نفسها التي انتقلت من كورسيكا إلى عرش فرنسا، ولو أنه راجع بتأن تاريخ حياته سيجد اللحظات التي تخص حملته على مصر والقنصلية واوسترليتز، وقد ينتبه أن شيئا ما سيحدث له في مخبزه خلال بضع سنوات وينتهي به الأمر في (القديسة هيلينا) في غرفة صغيرة تقع في الطابق السادس لكنه منتصر أيضا، فخور بمخبره الذي يشبه حومة النسر، هل فهمت حضرتك، أليس كذلك؟ لقد فهمت، لكنني أظن أننا نصاب في طفولتنا بأمراض تقليدية لفترة محددة، ونكاد جميعنا نكسر شينا ما حينما نلعب بالكرة.

-أعرف بأنني لم أحدثك إلا عن المصادفات المنظورة. على سبيل المثال شبه لوك بي ليس ذي أهمية، بالرغم من أنني اكتشفته في الحافلة، أما النتائج فهي مهمة حقا، وذلك يصعب شرحه، لأنها تمس الشخصية والذكريات الغامضة وخرافات الطفولة. في ذلك الوقت، أعنى عندما كنت في عمر لوك، مررت بفترة مريرة لأنها ابتدأت بمرض مزمن، وبعد فترة نقاهة تامة ذهبت لألعب مع أصدقائي فكسرت ذراعي، وما أن انتهيت من هذا أحببت أخت زميلي فكابدت كالذي يعاني كلما ينظر في عيني فتاة تسخر منه. لقد تمرض لوك كذلك. وما أن أجتاز فترة النقاهة دعوته لمشاهدة السيرك فتزحلق عند هبوطه السلم وأنخلع رسخه وبعدها وجدته أمه يبكي بجوار النافذة وبيده منديل أزرق مغضن، لم يأت به من البيت. بما أن الإنسان يناقض حياته. لهذا أقول إن حب الطفولة هو تتمة لابد منها.

لكنني اقتنعت أن تكون حكاية الطائرة شينا مختلفًا، كانت طائرة مروحية تعمل بنابض، جلبتها له في عيد ميلاده، عندما أعطيتها له ذكرتني مرة أخرى بالميكانو الذي أهدته لي والدتي في الرابعة عشر من عمري وما حدث لي عندما كنت في الحديقة بالرغم من هبوب عاصفة صيفية وهدير صوت الرعد أخذت أركض ووضعتها فوق طاولة تحت العريش قريبًا من الباب المطل على الشارع. ناداني أحدهم من البيت، فاضطررت أن أدخل لبرهة، عندما عدت وجدت علبة الميكانو قد اختفت وكان الباب مفتوحًا صرخت يائسًا وعدوت صوب الشارع بيد أنني لم أر أحدا وفي اللحظة نفسها سقط شعاع على الشاليه المواجه لنا٠ كل ذلك حدث في ومضة واحدة وطرأ على ذاكرتي عندما ناولت الطائرة للوك الذي مكث يرمقها بالغبطة التي تملكتني وأنا أنظر إلى الميكانو. جلبت لي الأم فنجان قهوة، كنا نتبادل العبارات نفسها لما تناهت إلينا صرخة فركض لوك صوب النافذة كما لو أنه رام القاء نفسه في الفضاء. كان وجهه أبيض وانهملت الدموع من عينيه، ليقول هامسا بأن الطائرة انحرفت عند طيرانها فخرت تمامًا من فتحة النافذة المفتوحة٠(لم أعد أراها. لم أعد أراها) كررها باكيًا، سمعنا صراخا يصدر من الأسفل دخل العم مهرولًا ليعلن عن اندلاع حريق في البيت المواجه لنا. هل فهمت الآن؟ نعم، يستحسن أن نتناول كأسًا أخر.

بعد ذلك، لما التزمت الصمت أخبرني الرجل بأنه لم يعد يفكر إلا بلوك. كانت أمه قد ارسلته إلى مدرسة للصناعات الحرفية. لكي يبتدئ ما أطلقت عليه بتواضع طريقه في الحياة. لكن ذلك الطريق كان مفتوحًا وهو بمفرده، لم يقو الحديث عنه وإلا

سيهزئون منه وسيبعدونه عن لوك نهائيًا. بمقدوره أن يخبر الأم والعم بعدم جدواه. ومهما فعلوا ستكون النتيجة سيان، الاستياء والرتابة المؤسفة، والأعوام المتكررة والاخفاقات التي تلف الملابس والروح واللجوء إلى عزلة مؤسفة في إحدى حانات الحي. لكن أسوأ ما في الأمر لم يكن مصير لوك، بل الأسو أن لوك سيموت بدوره وسيكرر رجل أخر شكل لوك وشكله الخاص، حتى يموت فيدخل رجل آخر الحلقة. لم يعد لوك يهمه. لأن أرقه ليلا يقوده بعيدًا إلى لوك آخر، إلى آخرين اسمائهم روبرت أو كلاود أو ميشل أنها نظرية بلا نهاية فالشياطين المساكين يكررون الشكل دون علمهم، مقتنعين بحريتهم وباختيارهم فالإنسان يملك نبيذًا حزينا، وليس لديه شيء آخر يقوم به.

-الآن سيهزئون بي أن أخبرتهم بموت لوك بعد شهرين٠ لأنهم حمقى ولا يدركون.

نعم لا ترمقني بهاتين العينين. لقد مات بعد شهرين، أصابه التهاب رئوي، كما أصبت أنا في العمر نفسه بالتهاب في الكبد. فحملوني إلى المستشفى، في حين والدة لوك عزمت على رعايته في البيت. كنت أذهب إليه كل يوم وأحيانا اصطحب معي أبن أخي ليلعب مع لوك. كان الشقاء مخيمًا على ذلك البيت فأصبحت زياراتي عزاء لهم بكل معنى الكلمة، في حين صحبة لوك مثل علبة سمك الزينة أو حلوى دمشقية، اعتادوا على أن أشتري لهم الدواء بعد أن اتفقت مع صيدلية على تخفيض خاص واعتبروني ممرضًا للوك، تصور في مثل هذا البيت حيث يخرج الطبيب ويدخل دون رغبة. دون أن ينتبه أحد إذا كانت الأعراض النهائية تتطابق مع أول تشخيص ...

لم تنظر الي هكذا، هل ذكرت شيئا مسيئًا؟

لا لم تذكر شيئا مسيئًا ولا سيما بعد هذه الكمية من النبيذ. بل على النقيض أخف وطأة من تصور شيء مرعب، لقد أثبت لي موت لوك أن الخيال يبتدئ كشبح في حافلة رقم (95) لينتهي طفلا محتضرًا بصمت على حافلة السرير. قلت له هذا لكي أهدئه. مكث محدقًا في الفضاء قبل أن يعود للحديث.

-حسنا كما تريد، لأنني بعد مرور تلك الأسابيع من دفنه انتابني شعور حقيقي بدا لي للمرة الأولى سعادة. ما زلت أزور والدة لوك أحيانا وأحمل لها علبة بسكويت، لكن لم يعد يهمني الشارع أو هي، كنت كالغارق في ريب رائع بأنني القاضي الوحيد، وبان حياتي تستهلك يومًا تلو الآخر نبيذًا بعد نبيذ، وفي النهاية سأنتهي على حين غرة أو في ساعة ما، مكررًا حتى النهاية موت مجهول المصير لا أعرف أين ومتى؟ بينما أنا، نعم، سأموت حقيقة دون أن يدخل لوك الحلقة ليكرر بغباء حياة حمقاء، أتفهم ذلك التكامل أيها العجوز، غمرتني سعادة كبيرة لاستمراره لأنه أمر لن يدوم.

لقد جرب الحانة والنبيذ الرخيص وتلك العينين التي تشع منهما حمى لم تنبثق من الجسد. بيد أنه عاش بضعة شهور متذوقًا كل لحظة من الحياة اليومية، إخفاقه في الزواج، وحطامه في الخمسين من العمر، واثقا من موته المؤكد. ذات مساء حين كان يجتاز شارع (لوكسميرغ) رأى زهرة.

- كانت على حافة مزهرية، زهرة صفراء مثل سواها. كنت قد توقفت لأشعل سيجارة فسهمت ناظرا صوبها. بعد قليل بدت الزهرة وكأنها تنظر الي أنها تلك الاتصالات التي تحدث

احيانا... حضرتك تعرفها أيا كان يشعر بها، وهذا ما يطلقون عليه أسم الجمال. هكذا تمامًا كانت الزهرة جميلة، في غاية الروعة في حين أنا كنت مجهدًا، دنوت من موتي يومًا وإلى الأبد. كانت الزهرة جميلة فالزهور موجودة دائمًا لجيل المستقبل. بغتة فهمت ما هو العدم، ذلك الذي اعتقدت أنه سلام، أنها نهاية الحلقة. أنا سأموت ولوك قد مات ولا توجد زهرة كما وجدت لكلينا، لم يكن هناك شيء، لم يكن هنالك شيء مطلقًا، وذلك كان العدم، الذي لم يعد أكثر من زهرة. أحرق وهج السيجارة المتقد أصابعي ثم وثبت إلى الحافلة التي كانت في الساحة وجلست ساهما دون أن أدرى أية جهة تمضي، محدقًا في جميع الأشياء المرئية في الشارع وفي الحافلة، وعندما بلغنا النهاية هبطت وصعدت حافلة أخرى تقصد الضواحي بقيت طيلة فترة المساء حتى خيم الليل، كنت أهبط من حافلة وأتخذ غيرها مفكرًا في الزهرة وفي لوك، باحثا بين المسافرين عن شخص شبيه بلوك، شخص يمكن أن يكون أنا مرة أخرى. ثم أتركه وشأنه دون أن اقول له شيئا وأحميه ليتسنى له أن يواصل حياته الحمقى حياته الغبية المحبطة صوب حياة أخرى محبطة صوب حياة غبية محبطة أخرى ثم دفعت الحساب.

أحدهم مر من هنا

حينما خيم الليل أوعزوا لخمينث أن يرسو وقد تهيأوا لمواجهة الأخطار فالخليج كان على مقربة من الميناء. لقد استفادوا من الضياء الكهربائي المشع لقدرته على الإنارة بصمت، كان الشعاع يتلاشى في الأفق من جديد في حين مكث خمينث لوهلة بين الشجيرات منتظرا لأن تعتاد عيناه وليألف احساسه الهواء الساخن وهمس الأرض الداخلي. منذ يومين كان يستمتع بالرصيف الأسفلتي الساخن والسمك المقلي والمطهر اللذين نادرًا ما يستخدما في ردهة فندق اتلنتك وطبول بوربون التي يستنجد بها الجميع لينبذوا ذكرى مشروب الرون بالرغم من أنه يرتعش الآن ولا يقوى على التفكير. لفحته رائحة الشرق، وهيأ له تغريد طائر الليل ترحيب به، يستحسن به أن يحسبها بشارة خير. بادئ ذي بدء. ارتأى يورك أن خمينث أرتكب حماقة لما رسا قريبًا من سانتياغو. أنه أمر مخالف للمبادئ، لهذه الأسباب ذاتها، ولأن خمينث يعرف تلك البقعة من الأرض أكثر من أي كائن تآلف مع الخطر وقام بتهيئة القارب الكهربائي لم يجدوا مشقة لأن يتجنبوا تلطخ احذيتهم، وبلوغ الفندق بمظهر سائح من المحافظات يجول البلد، لعل الفونسو سيتولى تهيئة الأمور وما تبقى لن يستغرق سوى ساعات قليلة، ثم يضع الحمل المطاطي في المكان المناسب وبعدها يعودون إلى الساحل حيث ينتظرهم القارب والفونسو، و جهاز التحكم جاهز، ثم يتردد صدى الانفجار في البحر، وعلى مبعدة منهم ستودعهم أول مشاعل حريق المصنع بكبرياء، في تلك اللحظة أضطر أن يتجه صوب الفندق سالكًا الطريق القديم الذي أهمل

بعد أن شيدوا الطريق الجديد المتجه شمالًا، أستراح برهة قبل أن يبلغ البقعة الأخيرة كيلا ينتبه أحد إلى ثقل الحقيبة وعندما ألتقى خميئث بالفونسو رحب به كصديق ليتجنب حامل الحقيبة الخدوم وقاد خمينث إلى أفضل أجنحة الفندق.

كانت أخطر فقرة في العملية فالمخرج الوحيد يفضي إلى حدائق الفندق، لكن بمساعدة الحظ والفونسو ستكون النتائج جيدة. كان الطريق خاليًا مهملًا يغص بالشجيرات، لكن عبق الشرق وشكوى الطير أثارا خمينث وكأن أعصابه كانت بحاجة لحجة كي تستفز قليلًا لذلك أدرك مرغمًا بأنه موجود هنالك بلا سلاح، بلا مسدس في جيبه لأن يورك كان حديا في هذا الأمر بعد أن أستحم مسرعًا وتأكد بأن الباب موصد فتح الحقيبة فوق السرير الآخر وخبأ الغلاف الأخضر في درج الصوان ما بين القمصان والصحف. لما جلس الفونسو طلب شرابًا جافا مع كثير من الثلج، تحدثوا وهم يدخنون عن كاما غواي وآخر مباراة ملاكمة لسيتفنسن، تهادت موسيقى البيانو لمسامعهم وكأنها تنبثق من عالم بعيد بالرغم من أن العازفة قريبة من جلستهم عند الطرف الآخر من النضد تعزف بعذوبة مقطوعة من هافانا وموسيقى لشوبان، ثم تنتقل إلى عزف راقص وبعدها إلى أغنية لفيلم روائي، كلمات غنتها ايرين دورين في الأيام السعيدة. احتسى كأس رون آخر وأخبره الفونسو بأنه سيرافقه في جولته ليعرفه على الأحياء الجديدة. توجد أماكن كثيرة في سانتياغو تستحق أن يراها، لقد عمل بجهد لإنجاز الخطط وتطبيقها. جاء ليفتتح معملين وهنالك في أحدهما سقط فيدل صريعًا، كان الرفاق متكاتفين فيما بينهم ومسرورين.

– سكان سانتياغو لا يخلدون للنوم -قال النادل وهم أيدوه ضاحكين مكث قليل من الناس في الصالة وانزوى خمينث في طاولة قريبة من النافذة ودعهم الفونسو بعد أن كرر مؤكدًا لقاء الغد، سار بخطوات متسرعة. أبتدأ بدراسة الرسالة، كان يترنح لكن ليس لأنه منهك الجسد بل بسبب شيء ما هنا مسالم ودي هادئ ومعزوفة لشوبان، أنه ينبعث الآن من ذلك اللحن الذي تعزفه العازفة بانسيابية، لكن خمينث أستحوذ عليه شعور بالتهديد وبخطأ بسيط فتحولت الوجوه الضاحكة إلى أقنعة كراهية. كان ملمًا بتلك التفاصيل وكيفية كبحها، طلب طعامًا ليقضي وقته وأهمل النصيحة في أثناء الأكل، في تلك الليلة فضل السمك على اللحم. لم يدخل المطعم إلا القليل من الناس، جلس إلى النضد زوجان شابان وعلى مبعدة منهما رجل بدا غريبًا يشرب من كأسه دون أن ينظر إليه، عيناه هائمتان في عازفة البيانو، التي تكرر لحن ايرين دورين، عرف خمينث بأنها معزوفة (في عينيك دخان) تلك المقطوعة القديمة من هافانا، ثم ينتقل البيانو إلى شوبان، أحدى المقطوعات التي عزفها خمينث أيضا عندما كان يدرس البيانو في طفولته قبل فترة الرعب الكبيرة. كانت دراسته سلسة حزينة تذكره بصالة البيت، وجدته المتوفية، وصورة أخيه المتكاسل الذي مكث بالرغم من لعنة الوالد، مات روبرتو كأي ولد عاق في مدينة خيرون بدلا من أن يكون عونا ليمهد الطريق إلى حرية حقيقية.

عاد يلتهم طعامه متأملًا، ومتلذذًا بذكريات لم تفارق مخيلته، يقنع نفسه ساخرًا بأنه أفضل مما يقدم من طعام دسم يأكلونه في الجانب الآخر، لم يكن يشعر بالنعاس فاستمتع بالموسيقى، كانت العازفة امرأة شابة جميلة، كأنها تعزف لنفسها دون أن تنظر

أبدا ناحية النضد حيث الرجل ذو الملامح الغريبة يرصد تلاعب يديها ثم يتناول كأس رون أخر وسيجارة أخرى. فكر خمينث بعد تناول القهوة أن ساعة انتظاره ستطول في المكان، دنا من النضد ليتناول كأسًا آخر، أفصح النادل عن رغبة في الكلام لكنه أبدى احترامًا للعازفة فهمس وكأنه يفهم أن الغريب وخمينث كانا يستمتعان بالموسيقى. كانت مقطوعة فالس، فبدا لحن شوبان البسيط كرذاذ مطر خفيف، كمسحوق أو كأزهار مجففة في البوم. لم يعر الناس اهتمامًا للغريب، الذي قد لا يجيد التحدث بالإسبانية أو قد يكون رجلا صامتا، خفتت الحركة في بَهْو الطعام وحان أوان النوم واستمرت العازفة تعزف اللحن الكوبي الحزين لكن خمينث أولاها ظهره وأشعل سيجارة وبعد أن ألقى تحية المساء هامسا أتجه صوب الباب وقصد ما كان ينتظره بعيدًا، كانت الساعة الرابعة تمامًا وقد تزامنت مع ساعة المركب.

قبل أن يدخل غرفته أستطلع بنظرة ظل الحديقة ليتأكد مما شرحه له الفونسو. كانت الفتحة على مبعدة 600 متر غربا، وإلى جانب عامود الأسمنت الثالث سيجد الفتحة ليقتحم الأسلاك الشائكة. أستغرب في البدء من وجود الحراس في هذه الناحية، يتجولون كل ربع ساعة وبعد لحظة فضلوا التحادث فيما بينهم في الناحية الأخرى حيث الضياء والقهوة، على أية حال لم يعد يبالي بثيابه المتسخة، لقد أضطر أن يزحف بين الشجيرات حتى المكان الذي وصفه له الفونسو تفصيلًا، ستكون العودة أيسر دون الغطاء الأخضر و الوجوه التي احاطت به حتى اللحظة. أستلقى على سريره حالا وأطفأ الضياء ليدخن بهدوء، وينام برهة كي يريح جسده، أعتاد أن يستيقظ في الوقت المناسب،

فتأكد أولا أن الباب موصد من الداخل وأن أشياءه مثلما تركها. أخذ يدندن لحن الفالس الذي علق بذاكرته ويمزج ما بين الحاضر والماضي، أجهد نفسه ليتخلص منه، فأستبدله بلحن (في عينيك دخان) لكن الفالس عاد إليه أو المقطوعة الموسيقية عاودته، أخلد إلى النوم مستسلمًا، ما زالت يد العازفة البيضاء ماثلة أمام ناظريه محنية الرأس تصغي بإمعان، غرد الطائر الليلي مرة أخرى على إحدى الشجيرات أو في واحة الشمال. أيقظه شينا أشد دكنة من عتمة الغرفة، أشد سوادًا وثقلا، عند نهاية قدميه على حافة السرير كان يحلم بفيليبس وباحتفال موسيقي البوب، بأضوائه وأصواته المكثفة ولما فتح عينيه شعر كأنه يهوي في فضاء صاف بلا موانع، بئر يملأها العدم! وفي اللحظة ذاتها أخبرته معدته أن الأمر ليس كذلك بل مختلف، لأن شكله ودكنته مختلفتان، بحث عن المقطع الكهربائي اليدوي، أنه الغريب في البار يجلس عند نهاية السرير وينظر اليه مسترخيا، حتى هذه اللحظة خيل إليه أنه حلم مزدوج. لكن عمل أي شيء أو التفكير بشيء غير مستساغ، بل على النقيض فالشعور بالرعب الخالص، أصبح أمرا اكيدا، والصمت العفوي اللامتناهي، وحاجباه المعقودان والبندقية أنها أول فكرة غير مستساغة، نعم البندقية بالأخص، عجلت التنهدات بانصرام الوقت، ونفت آخر احتمال ألا وهو أن ما يحدث كان حلما بفيليبس، وبالموسيقى، وبالأضواء وبالشراب٠

-نعم أنه هكذا -قال الغريب، فشعر خمينث بلهجته الثقيلة تخترق جلده، لتثبت أنه الغريب كما تصوره وتخيله عندما رآه أول مرة في البار٠

وثب بضعة سنتمترات لعله يلمس ارتفاعًا متساويًا في طول القامة لكن وضعه كشف عن يأس كامل، كانت المفاجأة احتماله الوحيد لكنها ذهبت سدى، إضافة إلى إحباط مسبق. لم تعد عضلاته تستجيب له، فساقاه تعوزهما القوة بسبب شحنة اليأس كان هادئًا كسائل مراق عند حافة السرير.

عندما رآه خمينث يشعل سيجارة، لم يعد قادرا على استخدام يده وخبأها في جيب بناطله ليبحث عن الفوسفور، أدرك بأنه سيضيع وقته أن هجم عليه، سلوكه ينم عن ازدراء لتجاهله ولعجزه عن الدفاع. وأسوا ما في الأمر احتياطاته المناسبة فالباب موصد بالمفتاح والمزلاج.

- من أنت؟ - سمعه يسأله لا محالة بعد أن أيقن أنه ليس حلما ورديا ٠

-وما يهمك -قال الغريب. رآه يحدق بشيء خاله كزمن فائض وكمساقة خاوية، انعكست شعلة الفوسفور في حدقتيه المتسعتين ونظر برهة إلى يديه.

- الفونسو المسكين -قال -مسكين، مسكين الفونسو. كلماته ليس لها مذاق الندم بل تجربة فاترة.

-لكن أي مصيبة أنت؟ صرخ خمينث وهو بحاله هستيرية دون أن يسيطر على نفسه.

-آه، أحد مر من هنا -قال الغريب -أقترب دوما عندما يعزفون مقطوعتي الموسيقية وبالأخص هنا. أتدري يعجبني سماعها عندما يعزفونها هنا، أي في صالة البيانو المتواضعة. كانت مختلفة في زمني عما هي عليه الآن، لهذا يعجبني التردد عليها،

أنها كهدنة مع الذات، وعدالة... ضغط على أسنانه ليسيطر على الرعب الذي تملك جسده. فكر خمينث أنه من الحكمة بأن يفكر بأن الرجل مخبول، لم يعد يهمه الآن كيف دخل وكيف عرفه، لأنه يدري بانه مخبول وتلك كانت الفائدة الوحيدة، ومن أجل كسب الوقت جاراه فيما هو عليه. فسأله عن البيانو وعن الموسيقى.

- لديك اطلاع -قال الغريب -ويبدو واضحًا أن ما تسمعه الألحان السعيدة فقط. كم وددت في تلك الليلة لو عزفت العازفة تلك المقطوعة التي يسمونها الثورية. لكنها لا تستطيع، يا للمسكينة أصابعها لا تمكنها من ذلك، فالأمر يتطلبا أصابع كهذه، ويداه مرفوعتان بمستوى كتفيه، أظهر لخمينث أصابع متباعدة طويلة غليظة تمكن خمينث أن يراها لوهلة قبل أن يشعر بها على رقبته.

هنا لكن أين، وكيف؟

(لوحة لرينه مارغريت تمثل غليونًا يحتل وسط القماش، ثبت عنوانها عند نهاية الرسم هذا ليس غليونًا إلى باكو المعجب بحكاياتي)

إلى بستاريو، 1950

لا يعتمد على الإرادة. أنه هو، هو بعناده: الآن، وقبل أن أشرع في كتابة السبب الذي دفعني لأكتبه بالأمس أو صباحا • ليس هناك من دليل موجز موجود أو غير موجود، لا أقوى أن أقول أنه وصل أنه لا يوجد وصول أو مغادره، أنه حاضر صاف قد يظهر أو لا يظهر في هذا الحاضر المتسخ المفعم بأصداء الماضي والتزامات المستقبل.

إليك يا من تقرأ لي، ألم يحدث لك هذا؟ يبدأ حلما ثم يتكرر في أحلام أخرى لكنه ليس كذلك. فهو ليس حلما فحسب. أنه شيء قابع هنا ولكن أين، وكيف؟ شيء ما يخطر جليا كالحلم، أنه حلم نقي قابع هنا أيضا بطريقة مغايرة لأنه طري مشبع بالإبر، لكنه قابع تواصل رؤيته في قعر حوض المغسلة في حين تنظف أسنانك، أو تبصق معجون الأسنان وتغرق وجهك بالماء البارد. ثم يتلاشى لكنه مازال عالقًا بالبيجامة، فتذوقه بلسانك عندما تسخن القهوة. هنا ولكن أين. وكيف؟ ملتصقًا بالصباح الممتزج بضوضاء النهار والمذياع الصاخب الذي تفتحه عندما نستيقظ وننهض ويواصل العالم المسير.

عجبا، عجبا كيف يمكن أن يحدث ذلك. وما ذاك الذي حدث، الذي حدث لنا في الحلم لكنه شيء آخر يعود كل لحظة أنه قابع هنا ولكن أين، كيف يقبع هنا وأين هنا؟

لماذا باكو مرة أخرى في هذه الليلة... الآن ما أكتبه في هذا النص نفسه إلى جانب هذا السرير نفسه، حيث خطت آثار جسد على الشراشف، ألم يحدث لك هذا؟ كما حدث لي مع شخص توفي منذ ثلاثين عاما وواريناه الثرى في ظهيرة مشمسة في جاكارتا حاملين نعشه على الأكتاف مع أصدقاء الحي وأخوة باكو.

كان وجهه صغيرًا شاحبًا وجسده ضئيلا كلاعب كرة الباسك وعينان مائيتان وشعره أشقر مسرح ملتصق ببعضه بفرق جانبي، وبدلة رمادية. كان يرتدي دوما موكاسين أسود وربطة عنق زرقاء، يرتديها أحيانا مع قميص قصير الأكمام أو روب اسفنجي• عندما كان ينتظرني في داره بشارع ريبا دابيا ينهض بجهد كيلا أنتبه إلى شدة مرضه، يتوسد حافة السرير متلفعًا بالروب الأبيض، يسألني سيجارة حرمت عليه.

أعلم أنني لا أستطيع أن أكتب هذا الذي أكتبه، أنها احدى الوسائل اليومية لإنجاز عمليات الحلم الواهنة. سأذهب الآن إلى العمل والتقي مع مترجمين ومراجعين في مؤتمر جنيف حيث سأمكث بضعة أسابيع واقرأ أخيرًا عن شيلي. أما ذلك الكابوس الآخر لا يقوى أي معجون أسنان أن ينتزعه من الفم، لأنه حينذاك يثب من السرير إلى آلة الحلاقة، في البيت الكامن في شارع ريبا دابيا في بوينس آيرس حيث كنت لتوي مع باكو، إلى هذه الآلة التي لا تجدي الآن لأي غرض عندما أكون يقظا

وأفطن إلى انصرام واحد وثلاثين عاما منذ صباح تشرين الأول. ذلك المحراب القابع في بناء خاو وأزهارا لم يجنها أحد البتة، فاللعنة إن كانت الأزهار تهمنا ونحن نواري باكو الثرى، أقول لك لا تهمني الواحد والثلاثون عاما، بل أسوأ من ذلك ما ينتقل من الحلم إلى الكلمات والأسوأ تلك الاستحالة من الحلم إلى الكلمات، أنها الثغرة بين مازال مستمرًا هنا لكنه أخذ بالاستسلام أكثر فأكثر وبين الحد الدقيق لأشياء هذا الجانب، وسكين الكلمات التي أمضي في كتابتها لكنها ليست ذلك الشيء الذي مازال هنا ولكن أين وكيف؟

فأن كررته فذلك أنني لم أعد أطيق أكثر من ذلك، عرفت مرات عديدة بأن باكو على قيد الحياة وسيموت. وأنه يعيش بطريقة مغايرة لطريقتنا في العيش أو في الموت، وأصر على ذلك لا تجنب كل ما هو مبتذل، أمر بأنامل كلماتي على ثغرات الحبكة الرقيقة التي مازالت تشدني إلى الحمام، وإلى المحمصة، والسيجارة الأولى التي مازالت هنا ولكن أين، وكيف؟ مكررًا ومؤكدًا صيغا من سحر وحقيقة يستحسن بك يامن تقرأ لي أن تحاول التركيز على ترتيل المزامير التي تخطر على ذاكرتك، التي تراودك لتكرر بغباء قصيدة أطفال (عنكبوت مرئي. عنكبوت مرئي)، تغمض عينيك لتركز على المشهد الأساسي من الحلم المستقل ثم ترفض العنكبوت، تقوض كتفيك عند كلمة مرئي، يطرق موزع الصحف على الباب فترمقك امرأتك مبتسمة وتقول لك: يا بيدرو لقد مكث بيت العنكبوت في عينيك وأنت محق بما تفكر به هو عنكبوت من الطبيعي أنه نسيج عنكبوت.

عندما أحلم بالفريدو وبالأموات أو بالآخرين، أو أية صورة من صورهم الكثيرة، وبين خيارات الزمن والحياة، أرى الفريدو يقود سيارته السوداء، يلعب البوكر متزوجًا ثوليما، يخرج بصحبتي إلى (ماريا نواكستا) كالمعتاد لنحتسي كأس بيرموت في (لابيرلا دلونثة) عند نهاية أي يوم على امتداد أيام السنة، لكن باكو ...كان باكو القطعة الوحيدة الباردة العارية في بيته، سريره من حديد، روبه إسفنجي أبيض، وإذا التقينا في المقهى فهو يرتدى بدلة رمادية وربطة عنقه زرقاء ووجهه كأنه قناع ترابي وأخيرًا صمت متعب لا يتوقف.

لن أهدر كثيرًا من الوقت، بالرغم من أنني أكتب لكنني لا أعرف أو لا أقوى على الإفصاح عن ماهيته وعما أعرفه وبالكاد تمكنت عزله عن الأخبار المزعجة، لن أضع الأحلام على جانب وباكو على الجانب الآخر، لكن يجدر بي أن أقوم به سواء اليوم، أو الساعة أو في أية لحظة أتوصل فيها وأشرد بعيدًا. أعلم بأنني أحلم بباكو طالما أن منطقيًا لا يسير الأموات في الشوارع وهنالك محيط من الماء والوقت يفصل فندق جنيف عن بيته في شارع ريبادابيا وبينه وهو ميت منذ ثلاثين عاما، يبدو أن باكو حي (لكن بأية طريقة مروعة ولا مجدية يتحتم علي أن أبيح بذلك لأدنو منه وأكسب شيئا من الدنيا) في حين أرقد في ذلك المسمى حلما، في كل لحظة، ربما تنقضي أسابيع أو سنوات، أعود لأعرف بأنه حي وسيموت وأنا ما زلت أرقد، لا شيء استثنائيًا في أن أحلم به وأراه حيا، يحدث كثيرًا في أحلام جميع الناس وأنا أيضا أرى جدتي تعيش في أحلامي، أو الفريدو يحيا في أحلامي، الفريدو كان أحد اصدقاء باكو، ومات قبله. أيا كان يحلم بأمواته ويراهم أحياء، لا أكتب من اجل هذا بل أكتب لأنني أعرف، بالرغم من أنني لا أقوى على الإفصاح

عن ماهية ما أعرفه. أنظر عندما أحلم بالفريدو كطبيب أسنان ينجز مهمته على أكمل وجه يبقى الحزن، وانسياب الذكريات البعيدة. بعدها ابتدأ يوم العمل دون الفريدو أما باكو كأنه يستيقظ معي وربما يمنحني على
التو عواطف مترفة لعواقب ليلة أحياها ثم يواصل حضوره ويخرج من الحلم، بقوة متناقضة لا يمتلكها الفريدو أو أي شخص آخر. أشعر به في وضح النهار وبعد الاستحمام وفي الصحيفة اليومية. ما الذي يهمه أن تذكرته بصعوبة في تلك اللحظة التي يأتي فيها أخوه كلاوديو ليصحبني معه، ليخبرني بأن باكو مريض وأن المشاهد المتوالية المتهرئة مازالت حتى الآن دقيقة متماسكة في ذاكرة النسيان، كآثار جسد مطبوعة على الشرشف تتلاشى كبقية الأحلام، ما عرفته حينذاك أن ما حلمت به ما هو إلا جزء من شيء مختلف نوع من التطابق، منطقة أخرى بالرغم من خطأ التعبير لكن ينبغي أيضا أن نركب الكلمات أو نغتصبها إذا ابتغيت أن أدنو منه أو تأملت لمرة واحدة أن أكون معه، كما الآن ينتابني شعور مرهق أن باكو يعيش بالرغم أنه سيموت، وأن أعرف شيئا ذلك لأنه لا يوجد شيء خارق للطبيعة في ذلك.

لدي أفكاري عن الأشباح لكن باكو ليس شبحا. باكو رجل، الرجل الذي كان منذ واحد وثلاثين عاما، رفيقي في الدراسة، وأفضل صديق عندي ليس من الضروري أن يعود إلى جانبي مرة تلو الأخرى، يكفيني أول حلم لأعرف أنه يحيا هنالك بعيدًا عن الحلم أو هنا بعيدًا عنه فيستبد بي الحزن مرة أخرى كما في ليالي شوارع ريبادابيا عندما أراه يتراجع لمواجهته مرضا أكله من أحشائه، مستهلكًا إياه بلا أنصاف بعذاب تام.

كل ليلة أعاود فيها الحلم نفسه، فتباين المواضيع ليست ملاذًا لي لأنخدع بها، ما أعرفه الآن قد عرفته أول مرة. أظن في باريس في أعوام الخمسينيات، بعد خمسة عشر عاما من موته في بوينس ايرس. حاولت حينها أن أكون معافى حقا، وأنظف أسناني بصورة أفضل، رفضتك يا باكو، بالرغم من أن شيئا في داخلي يعرف إنك لست كما الفريدو أو كأمواتي الآخرين، لربما تكون سوقيا وجبانا إزاء أحلامي، لعلك عدت من أجل ذلك أي لم يكن الحياء سببا بل لتثبت لي عدم جدواك، لأنك تعيش مريضًا جدا وستموت، وفي ليلة أخرى جاء كلاوديو ليصحبني في الأحلام ويبكي على كتفي، ويخبرني أن باكو ساءت صحته، ما بوسعنا أن نفعل وباكو مريض جدا ٠

وجهه ترابي بلا شمس، وبلا قمر مقاهي الاونثه وحياة الطلاب الليلية. وجه مثلث بلا دم، مياه عيونه السماوية مسلوخة من جرّاءِ الحمى، ألم التهاب الكليتين الذي لا يطاق، ابتسامته الواهنة، صوته المنخفض إلى أدني درجة اضطراره أن يأخذ نفسا بين جملة وأخرى مستبدلًا الكلمات بحركة أو إيماء ساخرة.

هل رأيت، ذلك ما أعرفه، أنه ليس بالكثير لكنه يغير كل شيء. تمحقني نظريات الزمن الفضائي ورياضيات الأبعاد دون الحديث عن اللغة الاصطلاحية المخفية، وحياة الكواكب وغوستاف ميزينك. لن أخرج لأبحث عنه لأنني أعرف نفسي عاجزا عن التوهم أو ربما في أفضل الأحوال عدم مقدرتي على الدخول في أراض مختلفة، ببساطة أنا حاضر هنا. باكو، أكتب الذي عشناه معًا ذات مرة في حين أنا راقد، ولئن كان بمقدوري أن اساعدك بشيء فهو معرفتي إنك لست الوحيد في أحلامي

هنا لكن أين، وكيف؟ إنك حاضر هنا تحيا وتكابد، عن تلك ال (هنا) لا أقوى أن أذكر أشياء إلا ما يطرأ علي في حلمي ويقظتي، لأنها (هنا) غير محاصرة. فعندما أراك أكون نائمًا ولا أقوى على التفكير وعندما أفكر أنني يقظ بوسعي أن أفكر، فالصورة والفكرة هما دوما تلك ال (هنا) لكن أين تلك ال(هنا) وكيف؟

إعادة القراءة تعني تنكيس الرأس تلوث الوجه بسيجارة جديدة، تتسأل عن معنى الضرب على هذه الآلة الكاتبة، لمن؟ أخبرني قليلًا لمن؟ لا تقوض كتفيك وتتعب بسرعة، أترك البطاقة وأمض لشيء آخر، لحكاية أخرى.

إضافة إلى ذلك لماذا باكو؟ سأتركه للنهاية بالرغْم قسوة الأمر، متمردًا على ما يحدث لك ونفورًا منه. تخيل إنني لا أؤمن بجهنم، يسعدنا كثيرًا التوغل في هذا الكلام، لكن يوجد سبب أليس ذلك أكيد، أنت نفسك تتساءل لم تحيا هنا حيث أنت أن كنت ستموت من جديد، وإذا أضطر كلاوديو أن يأتي ليبحث عني مرة أخرى أو لأرتقي السلم كما منذ لحظة في شارع ريبادابيا لأجدك مريضًا في غرفتك. بذلك الوجه بلا دم وعيناك مائيتان، تعلو شفتيك الجافتين ابتسامة، تمد لي يدا بدت كورقة وصوتك يا باكو، هذا الصوت الذي عرفته في النهاية يتلفظ قليلًا من الكلمات الفقيرة ليلقي التحية أو يسرد طرفة. من الطبيعي أنك لست في البيت الكائن بشارع ريبادابيا، وأنا في جنيف لم أرتق سلالم بيتك في بوينس ايرس، تلك هي مؤثرات الحلم التصويرية وتضعف عادة عند يقظة الخيال فتبقى أنت وحيدا على هذا الجانب، أنت الذي لست حلما والذي انتظرتني في أحلام كثيرة كمن يتواعد في مكان محايد أو محطة أو مقهى

أنها المؤثرات الصورية الأخرى التي ننساها عندما نبدأ المسير كيف اذكره ...

كيف أواصل وأمزق العقل إربًا مكررًا بأنه ليس حلما، نعم أراه في الأحلام كأي من امواتي، أنه شيء مختلف، أنه هذا، في الداخل والخارج، يعيش بالرغم ما أراه منه واسمعه: المرض يلفه. يؤطره في آخر مظهر له في ذاكرتي عنه منذ وإحدى وثلاثين عاما، هكذا هو الآن، هكذا هو.

لم تعش أن كنت قد مرضت مرة أخرى وتموت مرة أخرى؟ وعندما تموت يا باكو، ماذا سيحدث لنا؟ هل سأعلم بموتك؟ وسأحلم طالما الحلم هو المنطقة الوحيدة التي تمكنني من رؤيتك وبأننا سنواريك الثرى مجددًا، وبعدها هل سأكف عن الحلم، لأعرف إنك مت حقا، لأنك منذ أعوام يا باكو تعيش هنا حيث التقينا، لكن حياتنا كانت غير مجدية وعابرة، كان مرضك قاسيا هذه المرة أستمر أكثر من المرة السابقة تمضي أسابيع أو شهور، تمضي إلى باريس أو كيتو أو جنيف وبعدها يأتي كلاوديو ويعانقني، كلاوديو الشاب العبثي يبكي على كتفي بصمت ليخبرني بأن صحتك قد تدهورت فأذهب لأراك٠احيانا تكون في المقهى لكنني أضطر دائمًا إلى ارتقاء سلالم ذلك البيت الذي هدموه الآن، منذ عام رأيت وأنا في سيارة الأجرة ذلك المكان في (ريبادابيا) على امتداد (الاونثه) وصعدت إلى البيت لكنه غير موجود الآن أو ربما غيروه، ينقصه الباب والسلم الضيق المؤدي إلى الطابق الأول وإلى قطعة السماء العالية الملساء بلونها الأصفر الحاد، تنقضي أسابيع أو شهور لأعلم مجددًا أنني ملزم بزيارته أو ببساطة التقي بك في أية ناحية أو أعلم بوجودك بأية ناحية بالرغم من أنني لا أراك، ولا

شيء ينتهي، لا شيء ينتهي أو يبتدئ في حين أنام أو بعد ذلك في المكتب أو هنا وأنا أكتب، لم أنت تعيش، لم أنت، أنت تعيش ياباكو؟ هنا لكن أين، كهلا، أين وإلى متى؟

تدلي براهين في الهواء، براهينا كأكوام من الرماد، دلائل مثقوبة، كلمات تجلب ما هو أسوأ، كلمات عاجزة عن الدوران، بطاقات خاصة بالقراءة، تلك البطاقة الأخيرة. التعريف بأرض مجاورة، بقطعة جانبية، بزمن جانبي، وفي آن لا شيء من هذا القبيل. من السهل أن نلجأ إلى ما هو مزدوج، كما لو أن كل شيء يتعلق بي أو بمفتاح بسيط تمنحني إياه إيماءة أو قفزة، أعلم بأن ذلك لن يحصل، وأن حياتي تنطوي على ما هي عليه، وأنا أقف على نفس الحافة لكن أحاول أن أسرده بطريقة مغايرة وأصر عليه. من أجل الأمل، أبحث عن مختبر نصف الليل، عن كيمياء لا تتطلب التفكير فيها أي عن تغير جذري.

لا جدوى من أن اذهب بعيدًا، أحاول أيا من الطرق التي اتبعها البعض بحثا عن امواتهم، كالإيمان والفطرة أو الميتاقيزقيا. أعلم إنك لم تمت، وأن الطاولات ذوات الثلاث قوائم لا تجدي لأن أناقش أمورا بديهية، فهم لديهم دستورهم أيضا، سينظرون الي كمخبول، أستطيع أن أعبر عما أعرفه فحسب ثم أواصل طريقي مثلك أنت كما تواصل طريقك مريضًا هزيلًا هنا لكن دون أن تزعجني، دون أن تسألني شيئا سوى أنني أسندك بطريقة ما لأعلم إنك على قيد الحياة، بوساطة تلك الحلقة التي تربطك بتلك المنطقة التي لا تنتمي اليها بيد أنها ستعينك. لتعرف لماذا ولأجل من؟ ولهذا أفكر أحيانا أنني افتقدك، حينها يأتي كلاوديو أو التقى بك بغتة في المقهى حيث نلعب البليارد أو في الشقة الكائنة في الطابق الأعلى لنضع أسطوانات رافيل

ونقرأ لفدريكو وريلك، فتعلمني الفرحة المشرقة منك أنك على قيد الحياة رغما عن شحوب وجهك وضعف يدك الباردة. فأنا لا أنخدع في حالة الحلم كما أنخدع أحيانا عندما أرى الفريدو أو أخاه كارلوس، ليست الفرحة ذلك الإحباط المريع الذي يصيبك عندما تستيقظ وتعرف أنه حلم، أستيقظ معك دون أن يتغير شيء لأنني لم أعد أراك، أعلم أنك تعيش هنا حيث تكون في أرض هي هذه الأرض ولست في فضاء خارجي أو ناحية بغيضة، تستمر الفرحة ماثلة هنا في حين أكتب دون أن تتناقض مع الحزن عندما رأيتك مرة بحالة سيئة، فمازال الأمل يا باكو، أكتب لأتأمل بالرغم من أن الشيء نفسه يتكرر كل مرة كالسلم المفضي إلى شقتك، والمقهى حيث أخبرتني ما بين ضربتي بليارد بأنك مريض ولكنك تجاوزت مرضك، لتكذب علي باتسامه صغيرة. أنه الأمل الذي وجدته ذات مرة لكن بشكل مغاير، لن يصحبني كلاوديو وعانقني باكيًا يطلب مني أن أذهب لرؤيتك.

كما لو أنني كنت قريبًا منه عند النزع الأخير كما في ليلة تشرين الثاني، برفقة أصدقائه الأربعة، والمصباح البارد معلق في سماء ملساء، وحقنة التهاب الكليتين الأخيرة، كان صدره عاريًا، ثم أغلق أحدنا عينيه المفتوحتين وهو يبكي.

أنت يامن تقرأ لي تعتقد أنني أبتدع الأشياء، لا أكترث كثيرًا، غالبا ما يضع الناس في حكاية من الخيال ما عشته حقا، أو على النقيض. أتلفت حولي ولم أجد مطلقًا المدينة التي تحدثت عنها ذات مرة، مدينة ما أحلم بها كل لحظة، مثل فترة زمنية فانية متأخرة بلا نهاية، لأن البحث فيها كدر والوعد محال، لا شيء كان طبيعيًا مثل رؤيته هنا، ولكن هنا لم أجدها مطلقًا ولا

أظن أنني سأجدها هو له أرضه الخاصة به كقطة انتزعت من عالمها الرهيف من البيت الواقع في شارع ريبادابيا، من مقهى بيار، من ركن ما من حي الاونثه، لو وجدته في مدينة القناطر أو في قناة الشمال، لكنت جمعته إلى آلية البحث، وإلى غرف الفندق الكثيرة، والمصاعد التي تنتقل عامودية والكابوس المطاط الذي يعاودني كل لحظة سيكون حضوره أسهل بأن اتخيله جزءًا من الديكور الذي تآكل من جرّاءِ تلميعه لأضمه إلى العابه البليدة. لكن باكو يمكث في محله كقطعة منعزلة تطل من منطقتها الخاصة دون مزاج، والذين يأتون ليبحثوا عنه هم ليسوا فقط اتباعه، أنه كلاوديو أو والده وأحيانا أخوه الكبير، عندما أستيقظ بعد أن ألتقي به في بيته أو في المقهى أرى الموت في عينيه المائيتين والبقية تتلاشى في ضجيج السهر. هو بمفرده يبقى معي بعد أن أنظف أسناني وأستمع إلى المذياع الصاخب قبل أن أخرج، لم تعد صورته الآن تراودني كما في ذلك الحلم القاسي كدوامة (بدلة رمادية، رباط أزرق وحذاء موكاسين أسود) بل مجرد شيء طارئ ماثل وهذا ما أعاني منه.

لا أمل فيما هو محال، وهو أن أعرف أنه يعيش مرة أخرى، أراه من خلال مباريات كرة القدم، عاشقًا أولئك الفتيات اللواتي يرقصن في النادي. كيرقة رمادية صغيرة، طيبة وساحرة ورقيقة، كقرد يرتجف تحت غطائه، يمد لي يده النحيلة، من أجل ماذا ولماذا؟

لم أستطع أن أجعلك تعيش ذلك الذي أكتبه من أجلك، أنت يامن تقرأ لي، لأنها وسيلة لحرق الحصار أو لأطلب منك أن تبحث في داخلك أن كنت لا تملك احدى هذه القطط أو أولئك الأموات

الذين أحببتهم القابعين في تلك ال (هنا)، لربما مناداتهم بأسمائهم على الورق يثير سخطي. أفعل ذلك من اجل باكو، لو كان هذا أو أي شيء آخر يجدي، أساعده ليبرأ من مرضه كيلا يعود كلاوديو يبحث عني أو كيلا أشعر ببساطة أن الأشياء خدعتني، أحلم بباكو فقط وهو يعلم لم يتشبث بي حتى نخاعي أكثر من الفريدو ومن أمواتي الآخرين، هذا ما ستفكر به أو بأي شيء آخر يطرأ على بالك لكن لن يحدث لك مع شخص آخر ولم يحدثني أحد بشيء من ذلك القبيل ولا أنتظر ذلك منك، بكل بساطة يجدر بي أن أذكره وأنتظر ما سيقول ثم أنام مرة أخرى، ثم أعيش كما يعيش الآخرون، أفعل المستحيل لأنسى أن باكو موجود هنا، لا توجد نهاية ربما غدا أو في العام المقبل، سأعرف أن باكو مازال حيا وينادينى لأنه ينتظر مني شيئا، فأجد نفسي عاجزا عن مساعدته لأنه مريض ويحتضر.

جزيرة في وضح النهار

عندما رأى ماريني الجزيرة للوهلة الأولى، كان منحنيًا بأدب على مقاعد الجانب الأيسر يثبت الطاولة المتحركة قبل أن يضع عليها طبق الغداء، لقد رمقته المسافرة مرات عديدة في حين هو يمضي جيئة وذهابًا يحمل المجلات وكؤوس الويسكي، تلكأ ماريني وهو يثبت الطاولة متسائلا في سره ضجرا أن كانت نظرات المسافرة الملحة تستحق أن يستجيب لها. كانت أمريكية من أولئك الكثيرات، ولما شاهد من استدارة النافذة الزرقاء أنهم قد بلغوا ساحل الجزيرة، بحاشيتها الرملية المذهبة وتلالها المرتفعة فوق الهضبة المقفرة. أبتسم ماريني للمسافرة، معدلًا كأس البيرة المائل.

(أنها جزر اليونان) أردف قائلًا.

«آه كريس »، ردت عليه الأمريكية باهتمام مفتعل.

رن الجرس بنعومة فوثب المضيف، دون أن تمحى الابتسامة الوظيفية من على ثغره بشفتيه الدقيقتين ثم كرس اهتمامه بزوجين سوريين طلبا منه عصير طماطم، لكنه توقف للحظة في مؤخرة الطائرة لينظر إلى الأسفل كانت الجزيرة صغيرة منعزلة، تطوقها مياه بحر إيجة الداكنة الزرقة فتنم عن حاشية مزخرفة من لون أبيض وضاء ليغدو في الأسفل البعيد رغوة تتكسر على الطرق وأزهار الزنبق، شاهد مارينى سواحل مقفرة تمتد من الشمال إلى الغرب، وما تبقى بضعة جبال غمرت حتى قممها في البحر. كانت جزيرة صخرية خاوية

ولربما كانت الهضبة الرمادية القريبة من الساحل دارا، أو مجموعة مساكن بدائية. فتح علبة العصير، وعندما نهض اختفت صورة الجزيرة عن النافذة، ولم يبق سوى البحر بأفقه الأخضر اللامتناهي. نظر إلى ساعة في جيبه دونما سبب، كان النهار قد أنتصف تمامًا. ود ماريني لو أنه اتخذ خط روما – طهران، لأن المرور به أقل كآبة من الخطوط الشمالية والفتيات يسعدن بالذهاب إلى الشرق والتعرف على إيطاليا. بعد مضي أربعة أيام، حين كان يقدم المعونة لطفل فقد ملعقته وأبدى استياءه من طبق الحلوى، أكتشف للمرة الثانية حدود الجزيرة، لقد ألتبس عليه الأمر لبضعة ثماني دقائق لكن شكوكه تبددت عندما أنحنى على شباك صغير في المؤخرة، فشكل الجزيرة لا خطأ فيه، كأنها سلحفاة تخرج قوائمها بصعوبة من الماء فأطال النظر إليها حتى نادوا عليه. هذه المرة كان موقنًا إن الهضبة الرمادية مجموعة من المساكن. أستطاع أن يميز بضعة أشكال من الحقول المزروعة الممتدة حتى الساحل وأثناء فترة الاستراحة في بيروت نظر إلى أطلس الضيافة، وتساءل في سره أن كانت الجزيرة هي (هوروس) كان مراسل اللاسلكي فرنسيا لا مباليًا، بل تملكته الدهشة إزاء اهتمامه.

"جميع هذه الجزر متشابهة. فانا أعمل على هذا الخط منذ عامين ولا أكترث بها كثيرًا، حسنا دعني أراها في المرة القادمة، بيد أنها لم تكن هوروس بل سيروس، واحدة من الجزر الكثيرة على هامش الرحلات الجوية السياحية."

(لن يطول الأمر أكثر من خمسة أعوام) قال له المضيف في حين كانا يتناولان كأسًا من البيرة في روما، (أسرع أن راودتك فكرة زيارتها)، لأن جزر الهورداس ستكون هناك في أي وقت.

لكن ماريني واصل تفكيره في الجزيرة، موجهًا بصره نحوها كلما خطرت على باله أو أقترب من النافذة الصغيرة، وفي النهاية قوض كتفيه، لا شيء قبل ذلك حاز على اهتمامه، فالطيران ثلاث مرات أسبوعيًا في منتصف النهار فوق سيروس كان ضربا من الخيال أو بدا له كحلم أن يحلق ثلاث مرات أسبوعيًا في منتصف النهار فوق سيروس.

بدت له الأشياء زائفة من خلال رؤية لا مجدية تعاود ذهنه، باستثناء الرغبة في تكرارها، وعندما حان وقت استشارة ساعته قبل منتصف النهار لما حلقوا بحدة وبرقة فوق الحاشية البيضاء الوضاءة على شفق أزرق مسود تقريبًا، وفوق أشياء أخرى حيث الصيادون نادرًا ما يرفعون أبصارهم ليتابعوا ذلك الشيء الخيالي الآخر. بعد ثمانية أو سبعة أسابيع، عندما اقترحوا عليه خط نيويورك بكل امتيازاته، حدث ماريني نفسه أنها فرصته ليتخلص من ذلك الهوس البريء الحانق لكنه وضع في جيبه كتابًا ذكر فيه جغرافي مجهول من (لبانته) معلومات حول سيروس أكثر مما هو مألوف في الكتب السياحية، فأجاب بالنفي وصم أذنيه وبعد أن تجاهل مفاجأة مديره الفاضحة له مع اثنتين من سكرتيراته ذهب لتناول الطعام في مطعم الشركة حيث تنتظره كارلا.

أنتابه قلق إزاء احباط كارلا وتشتتها، فالساحل الجنوبي لسيروس غير مأهول وفي ناحيتها الغربية مازال هناك بقايا حصن قتال أو ربما وجد فيها البرفسور غولدمان حجرين منقوشين بكتابه هيروغليفية أستعملها الصيادون كرات خفيفة الوزن. أنتاب كارلا صداع فغادرت على الفور كان الأخطبوط المصدر الرئيسي لقوت السكان وكل خمسة أيام يصل إليها

زورق ليحمل الصيد ويزودهم ببعض المؤن وأصناف الطعام. أخبروه في المكتب السياحي بأنه سيضطر أن يستقل زورقًا آخر من رينوس، أو ربما بمقدوره أن يسافر بزورق صيد الأخطبوط، لكن هذا الأخير رآه ماريني في رينوس فقط والشركة ليست لديها فروع هناك. على أية حال، أن فكرة قضاء بضعة أيام في الجزيرة لم تكن إلا خطة لعطلة حزيران وفي الأسابيع اللاحقة توجب عليه أن يغير موضعه في (وايت) على خط تونس، ابتدأ بعدها أضراب عن العمل فغادرت كارلا إلى بيت أخوتها في بالميرو. قصد ماريني فندقًا لسكناه على مقربة من (بيثا نوفانا)، التي تتواجد فيها مكتبات قديمة، توقف دون رغبة كبيرة ليبحث عن كتب حول اليونان، تصفح للحظة كتب محادثة، فأعجبته كلمة (كالميرا) فجربها في ملهى مع فتاة شقراء، أضطجع معها، تعرف عليها من خلال جدها في(اودوس) بسبب التهاب حنجرة مزعج.

انهمر المطر في روما، وفي بيروت كانت كانيا في انتظاره، هنالك قصص أخرى، متماثلة دائمًا أو محزنة. ذات يوم عاد مرة أخرى إلى خط طهران، وإلى الجزيرة في منتصف النهار. مكث ماريني فترة طويلة ملتصقًا إلى جوار النافذة الصغيرة لأن المضيفة الجديدة أساءت معاملته كرفيق واستأمنته على عدد الأطباق التي قامت بخدمتها له، في تلك الليلة وجه ماريني للمضيفة دعوة لتناول الطعام في (فيروز) ولم يتردد في أن يسامحها بسبب تغافلها عنه صباحًا، نصحته لوثيا أن يصفف شعره على الطريقة الأمريكية حدثها قليلًا عن سيروس لكنه فهم منها بعدئذ أنها تؤثر الفودكا بالليمون في الهيلتون. ومضى الوقت في أشياء كهذه وأطباق من الطعام لا حصر لها، وبرفقة

ابتسامة هي حق للمسافر، وفي طريق العودة حلقت الطائرة فوق سيروس في الثامنة صباحًا، فانعكست أشعة الشمس على النوافذ التي كساها البخار فحجبت منظر السلحفاة المذهبة. كان مارينى يؤثر انتظار طيران العودة عند منتصف النهار لأنه يستطيع أن يمكث وقتا طويلًا إلى جوار النافذة بينما تنشغل لوثيا (وبعدها فليسا) بالعمل بإسراف، ذات مرة التقط صورة لسيروس لكنها بدت صورة غير واضحة، فهو الآن يعرف أشياء عن الجزيرة، مستندًا إلى الملاحظات النادرة التي وردت في الكتابين. أخبرته فليسا بأن الطيارين يطلقون عليه أسم مجنون الجزيرة. لكنه لم ينزعج. كتبت له كارلا بأنها أوشكت أن تتخلص من الطفل. أرسل لها ماريني راتب شهرين بالرغم من أنه فكر أن ما تبقى له لن يكفيه لقضاء الإجازة، قبلت كارلا النقود وأعلمته بوساطة صديقه أنها تنوي الزواج من طبيب أسنان من (تربيسو). بدت جميع القرى دون أهمية في منتصف النهار، الإثنين والخميس والسبت (ويوم الأحد مرتين في الشهر). تنبه بمرور الزمن أن فليسا هي وحدها التي فهمته قليلًا، وهنالك دليل ملموس هو اهتمامها بالرحلة في منتصف النهار طالما هو يجلس إلى جوار النافذة في المؤخرة.

تجلت الجزيرة دقائق معدودة للنظر فالنسيم منعش دوما يهب من البحر برقة فتطابقت أصغر التفاصيل مع ذكرى الرحلة السابقة: كالهضبة الخضراء والجبل الشمالي والبيوت الرمادية والشباك المجففة فوق الرمال، ولما ينقص عدد الشباك ينتاب ماريني شعور بالفقر كالأهانة، راودته فكرة تصوير الجزيرة ليستعيد صورتها في الفندق، لكنه فضل توفير نقود آلة التصوير فلم يبق سوى شهر على الإجازة. لم يعبأ كثيرًا بإحصاء الأيام،

أحيانا كانت تانيا في بيروت وأخرى فليسا في طهران، وأخوه الأصغر دوما في روما، بدت له الأشياء مضجرة قليلًا، بالرغم من أنها تمضي مسترسلة بود ومحبة كمن يستبدل شيئا بآخر، ليشغل وقته قبل الطيران وبعده، بدت الأشياء مضجرة في أثناء الطيران لأنها تمضي ببلادة ويسر حتى الساعة التي يذهب بها لينحني على النافذة في المؤخرة فيشعر ببرودة الزجاج كأنها حدود مدار الجدي حيث تتحرك السلحفاة الذهبية ببطء في اللون الأزرق الكثيف.

رُسمت الشباك في ذلك اليوم بدقة فوق الرمال، فأقسم ماريني أن النقطة السوداء إلى جانب اليسار على شفا البحر هي صياد ينظر صوب الطانرة٠(كالميرا)، ثم طرق مفكرًا بإسهاب لم يعد لانتظاره معنى، سيقرضه ماريوميرولس النقود التي تعوزه للرحلة وفي غضون أقل من ثلاثة أيام سيكون في (سيروس).

لصق شفتيه بالزجاج ثم أبتسم مفكرًا بأنه سيتسلق الهضبة الخضراء وسيدخل عاريًا إلى بحر الزنابق الشمالية ويصطاد الأخطبوط مع الرجال. ويتفاهم معهم بالإشارات والابتسامات٠ ليست الأشياء عسيرة أن تقررت، قطار ليلي، ثم القارب الأول وقارب آخر متسخ قديم، وبعدها فترة الاستراحة في (رينوس)، تفاوض طويلًا مع قبطان مركب صيد وعند هبوط الليل سيكون فوق الجسر، ملتصقًا بالنجوم، ومذاق مشروب الأنيس واللحم ثم عند الشروق سيكون في الجزيرة. حط مع أول شعاع ضوء، عرفه القبطان إلى كهل عراب، أمسك كلايوس بيده اليسرى وحدثه بتأن، محدقًا في ناظريه، قدمه لولديه ففهم ماريني أنهم أبناء كلايوس٠ تكلم قبطان مركب الصيد بلغة إنكليزيه غير متقنة: عشرون مواطنًا، أخطبوط، صيد، خمسة زوار إيطاليين

سيدفعون أجور الإقامة. ضحك الولدان من كلايوس عندما تناقش حول الدراخما، كذلك مارينى، الذي أصبح صديقًا للولدين، وجد شروق الشمس فوق البحر أقل دكنة عما بدا في الفضاء، كانت غرفته فقيرة نظيفة فيها أبريق مائه تعبق منه رائحة ميرمية وجلد مدبوغ.

تركوه ليجلب أمتعته من المركب، وبعدها خلع ملابس السفر وأرتدى بدلة السباحة ونعلا، ثم تنزه في الجزيرة لكنه لم ير أحدا فيها. استجمعت الشمس قوتها ببطء وفاحت من الأجمة رائحة عطرة، قليلة الحموضة امتزجت بمذاق الريح. كانت الساعة العاشرة عندما بلغ الجبل الشمالي وتعرف على معظم الزوارق. آثر العزلة بالرغم أنه فضل أن يستحم على الشاطئ الرملي، احتوته الجزيرة فاستمتع فيها من صميم قلبه حتى عجز عن التفكير أو الاختيار.

احترقت بشرته من جرّاءِ أشعة الشمس والريح ثم تعرى ليقذف بنفسه إلى البحر من فوق صخرة، كان الماء باردًا فأنتعش لكن الشمس جففته حالا، هبط باتجاه المساكن فرمقته النسوة مندهشات قبل أن يهرعن ليغلقن الباب على أنفسهن. ألقى تحية في الهواء وسار باتجاه الشباك. كان واحد من أبناء كلايوس بانتظاره على الساحل فأشار إليه ماريني يدعوه إلى البحر، تردد الفتى مشيرًا إلى بناطله المنسوج وقميصه الأحمر بعدها ذهب جريا إلى أحد البيوت ثم قفل عائدًا عاريًا تقريبًا، رميا بنفسيهما سويا إلى بحر دافئ يتلألأ تحت أشعة شمس الحادية عشرة.

حين كان يجفف نفسه على الرمال، أخذ اينوس يعدد الأشياء. (كالميرا) قال ماريني -ضحك الفتى حتى أنطوى على نفسه، بعدها كرر ماريني الجمل الجديدة، وعلم اينوس كلمات إيطالية. أخذ مركب الصيد يتضاءل عند الأفق شعر ماريني في تلك اللحظة أنه حقا بمفرده في الجزيرة مع كلايوس وأبنائه. أمضى بضعة أيام دفع أجر غرفته وتعلم الصيد، ذات مساء عندما تعرفوا عليه بشكل أفضل، أفصح لهم عن رغبته في أن يمكث ويعمل معهم. ولما نهض بسط يده لاينوس وشرع يسير متمهلًا تجاه التل كان المرتفع منحدرًا فتسلقه بنشوة ليوجه ناظريه بين تارة وأخرى صوب الشباك على الساحل. كانت ظلال النساء اللواتي يتكلمن مندفعات مع اينوس وكلايوس ينظرن إليه شزرا ضاحكات. عندما بلغ السهل الأخضر ولج عالما يعبق برائحة الزعتر والميرمية، كأنها وهج الشمس ونسيم البحر. نظر ماريني إلى ساعته وبعدها، بحركة من عيل صبره خلعها من معصمه وأحتفظ بها في جيب بدلة السباحة، ليس من السهولة على الأنسان التخلص مما هو قديم، لكن هنالك في الأعال متسعًا من الشمس والفضاء، فطرأ على باله بإمكانية قيامه بمشروع.

أنه في سيروس، لطالما خامره شك وهو هناك في امكانية بلوغها ذات مرة، هوى على ظهره فوق الحجارة الساخنة، نظر صوب السماء عموديًا، تناهى إليه من بعيد هدير محرك. أسبل جفنيه لأنه في سره لا يرغب في رؤية الطائرة، لن يبيح لنفسه أن يلوثها بشكل أسوأ حتى لو حلقت مرة واحدة فوق الجزيرة تخيل فليسا في ظل جفنيه، وهي توزع الأطباق في تلك اللحظة نفسها، أما بديله، ربما يكون خيورخيو أو صديق من خط آخر،

شخص ما يرسم الابتسامة كلما قام بتقديم النبيذ أو القهوة. لم يقو على مكافحة أفكار ماضيه ففتح عينيه ونهض في اللحظة نفسها فرأى الجناح الأيسر للطائرة، فوق رأسه تقريبًا، أنحنى بلا مبرر، تناهى إليه صوت هدير المحرك، حيث كانت تسقط عموديًا فوق البحر. هبط الطريق بكامله صوب التل، متعثرًا بالصخور يخبط الأشواك بساعده، لقد حجبت عنه الجزيرة مكان السقوط. لكنه عرج قبل أن يبلغ الساحل نحو ممر وأجتاز سفح التل الساحلي وخرج إلى أصغر ساحل. كانت مؤخرة الطائرة تغرق على بعد مائة متر في صمت مطبق. تحفز ماريني وقفز في الماء منتظرا إن تطفو على سطح الماء، لكنه لم ير إلا أثر الموج الأبيض في حين راح يتهادى صندوق من ورق قرب مكان السقوط، وفي النهاية لم يجد ضرورة لأن يستمر في السباحة لوحت يد خارج الماء للحظة، في نفس اللحظة التي استغرقها ماريني ليغير اتجاهه، فغاص ليجر الرجل من شعره بعد أن جاهد ليتشبث به فأبتلع الهواء بصوت أجش بعد أن ساعده ماريني ليستنشق دون أن يقترب منه كثيرًا. سحبه رويد أ رويد أ ثم جلبه إلى الساحل وأمسك بذراعي الجسد ذي الزي الأبيض ومدده على الرمل محدقًا بالوجه الملوث بالزبد وقد أرتسم الموت عليه، ينزف دما من جرج كبير في حنجرته وما جدوى التنفس الاصطناعي إذا كان الجرح ينفتح أكثر مع كل تشنج فبدا كثغر يثير الاشمئزاز يستنجد بمارينو، فأستلب منه سعادته الصغيرة في تلك الساعات المحدودة في الجزيرة، ناداه بهمس لم يقو على سماعه. جاء أبناء كلايوس على طول الطريق تتبعهم النساء، عندما وصل كلايوس، كان الأولاد يحلقون حول الجسد المسجى على الأرض دون أن يفهموا كيف أستجمع قوته وسبح حتى الساحل وسحب نفسه

وهو ينزف. (أغمض عينيه) طلبت منه إحدى النساء الباكيات، نظر كلايوس صوب البحر بحثا عن شخص أخر يصارع من أجل الحياة بيد أنهم كانوا بمفردهم في الجزيرة كالمعتاد، والجمجمة بعينيها المفتوحتين كانت الشيء الوحيد الجديد بينهم وبين البحر.

ليلة مانتيكا

إنها تلك الأفكار التي تطرأ على بيرلانا، هو لا يطيل الشرح لأحد لكنه تبسط كثيرًا هذه المرة وقال إنها كحكاية الرسالة المسروقة. لم يفهمه استبيث في بادئ الأمر وأطال النظر فيه ليسمع المزيد. أما بيرلانا فقد قوض كتفيه كأنه تنازل عن شيء ما وأعطاه بطاقة دخول لحفلة ملاكمة، فرأى بوضوح رقم ٣ باللون الأحمر رسم على قطعة صفراء، وكتب تحته رقم (235) لكن قبل هذا الرقم، وضع أسم مونثونب نابولس وما كاد رآه لشدة بروز حروفه، ستصل البطاقة إلى والتر قال بيرلانا. ستكونان هنالك قبل أن تبدأ الملاكمة (هو لا يكرر العبارات فأصغى إليه استبيث مركزا على كل جملة)، سيصل والتر في منتصف الجولة الأولى، ويتخذ المقعد الواقع إلى يمنيك، كونا حذرين من الذين يأتون في اللحظة الأخيرة ليبحثوا عن أفضل مكان، قل له شيئا باللغة الإسبانية. سيأتي يحمل تلك الحقيبة التي يستعملونها الهيبس، سيضعها بينكما إذا جلستما على مقعد خشبي أو على الأرض أن جلستم على المقاعد لا تحدثه سوى عن الملاكمة وأرصد ما يدور حولك جيدا مؤكدًا وجود مكسيكيين أو أرجنتينين، راقبهم جيدا حتى اللحظة التي تضع فيها العلبة في الحقيبة. أيدرى والتر بأن الحقيبة يجب أن تبقى مفتوحة؟ سأله استثبيث، فأجابه بيرلاتا بنعم، كمن يطرد ذبابة من طية ملابسه، وأنتظر حتى النهاية كيلا ينتبه لأن أن تصرف نظرك مع مونثون أمر صعب، قال استبيث فرد عليه بيرلاتا، كذلك مع مانتكيا وتذكر بأن الثرثرة ممنوعة. سيذهب والتر أولا، دع الناس تخرج ثم أذهب من باب آخر.

طرق مفكرًا بالأمر كأنه يراجعه بصيغته النهائية في حين أرغمه المترو على التدافع مع المسافرين الذين تدلل هيأتهم أنهم قصدوا رؤية حفلة الملاكمة. مجموعة رجال مكونة من ثلاثة أو أربعة، فرنسيون تميزوا بالشجار المتبادل فيما بينهم أبتدأ من مونتون حتى بوتيور يبحثون عن انتقام كأنهم يشعرون بالإحباط في داخلهم، يا لعظمة فكرة بيرلاتا التي أوكلت إليه تلك المهمة ولأنه باشر بها فستكون حرجة وفي آن ستمكنه أن يشاهد ملاكمة من مقعد مخصص لأصحاب الملايين. لقد أدرك الغرض من التلميح إلى الرسالة المسروقة، من سيخطر على باله بأنه سيلتقي مع والتر في حلبة الملاكمة، بالرغم من أن المسألة ليست لقاء لأن هذا يمكن أن يحدث في ألف ركن في باريس بل لأن بيرلاتا يتمعن بعمق في كل أمر يتولى مسؤوليته. أولئك الذين باستطاعتهم أن يتابعوا والتر أو يتبعوه، سيجدون أن السينما أو المقهى أو البيت أماكن محتملة للقاء، لكن هذه الملاكمة هي كواجب للذين يملكون نقودا كثيرة، وأن اتبعه أحد فسيخيب ظنه أمام خيمة السيرك المزينة بصور الان ديلون، هنالك لا يدخل أحد دون الوريقة الصفراء، وبطاقات الدخول نفدت قبل أسبوع هذا ما نشرته جميع الصحف، ولأجل إرضاء بيرلاتا، أن كانوا يتبعونه أو يتبعون والتر هنا، فيستحيل رؤيتهما سوية عند الدخول أو الخروج، فهم هواة بين الآلاف و الآلاف يطلون مثل نفخة الدخان المنبعث من المترو أو الحافلة يتدافعون كلما ضاق الطريق وتدنو ساعة عملهم.

يعيش آلان ديلون: كتبت على احدى خيم السيرك التي شيدت على أرض بلوغها يتطلب عبور جسر صغير ثم يسير في العديد من الطرق الممحية التي صفت عليها ألواح خشبية، لقد

مطرت الليلة الماضية فابتعد الناس عن الألواح لتسترشد بأسهم كبيرة تشير إلى الاتجاه الصحيح وبصور مونثون - نابولس الملونة. يعيش الآن ديلون الذي أستحق أن يدخل سهامه الخاصة إلى أرض المترو المقدسة بالرغْم ما كلفته من نقود. لم يرق لاستبينث ذلك فهذه طريق مفضوحة في تنظيم مباراة دولية على نفقته، فشيد سيركا ومولها من ماله الخاص لست أدرى كم كلفاه، لكن ينبغي أن نعترف بأنه يقدم شيئا بالمقابل، لن نتحدث عن مونثون ومانتكيا فالسهام الملونة في المترو التي تستقبلك كسيد، ترشدك إلى الطريق الذي أثيرت الضوضاء عند مخارجه وإلى الأرض المقفرة المليئة بأكواخ التنك.

وصل استبينث في الوقت المناسب، كانت الحلبة خالية تقريبًا، وقبل أن يخرج أتذكر أنه نظر برهة إلى سيارات الشرطة والعربات الكبيرة المضاءة من الخارج وقد اسدلت الستائر الداكنة على نوافذها، اتصلت برواق شيد فوقه سقف وكأنها متصلة بأنبوب: هنا يوجد الملاكمون، فكر استبينث، يقينا أن العربة البيضاء الجديدة تخص أنصار كارليتو، فهو لن يجلس مع البقية. أما عربة نابولس فهي في الجانب الآخر من الحلبة، بدت المسألة دقيقة ومتسارعة، وجود عدد من الغرباء فوق أرض قفر، هكذا تتآكل الحبال. أطرق استيبنث مفكرًا، يجب علينا أن نطلع على الفكرة ونهيئ البيض.

يقع صفه في المرتبة الخامسة بعد ساحة الحلبة، كان لوحا خشبيًا كتلك المؤشرة بالأرقام الكبيرة، يبدو أن ضيافة الان ديلون انتهت لأن كل ما يحيط بمقاعد ساحة الحلبة يعطي انطباعًا بأنه سيركا، بل سيرك رديء. مجرد ألواح خشبية بالرغم من أن المرشدات بتنورتهن القصيرة كن يخمدن عند

دخولك كل احتجاج. تفحص استبيث رقم (235) بنفسه، ابتسمت الفتاة لترشده إلى الرقم وكأنه لا يعرف القراءة ثم جلس يتصفح الصحيفة التي ستنفعه فيما بعد كوسادة، سيجلس والتر إلى يمينه، أحتفظ استبيث بالنقود والأوراق في الجيب الأيسر من الحقيبة ولما يحين الوقت سيتسنى له أن يخرجها بيده اليمنى، فيحملها مباشرة فوق ركبتيه ثم يدحرجه في المحفظة المفتوحة إلى جانبه.

طال انتظاره، فأتسع وقته لأن يفكر في ماريسا وبيبيا اللتين تتناولان الآن طعام العشاء في حين هو حان وقت نومه أما ماريسا فتشاهد التلفاز، لربما تشاهد الملاكمة فتراه، لكنه لن يخبرها بأنه حضرها، على الأقل لن يستطيع الآن، لربما في مرة أخرى عندما تهدأ الأمور. تصفح الصحيفة دون رغبة (ماريسا تراقب المصارعة وهو يفكر بعجزه عن البوح لها بشيء بالرغْم ما تعتريه من رغبة لأن يروي لها كل شيء بالأخص أن حدثته عن مونثون ونابولس) في حين أخذ يتصفح أخبار فيتنام وأخبار سياسية، بدأت الحلبة تغص بالناس. جلس خلفه مجموعة من الفرنسيين يتحاورون حول فرص نابولس، وجلس إلى يساره شخص عادي أمعن طويلًا بشيء من الحذر في اللوح الخشبي الذي قد يحط من قدر بناطله الازرق الأنيق، أما في المدرج الأسفل جلس مجاميع من المتزوجين والأصدقاء، من بينهم ثلاثة يتحدثون بلهجة قد تكون مكسيكية بالرغْم أن استبيث لم يكن حاذقًا باللهجات لأن مشجعي مانتكيا هم كثيرون هذه الليلة حيث المتحدي لا يتطلع فيها سوى إلى تاج مونثون، مازال بعض المقاعد التي تلت مقعد والتر شاغرة، لكن الناس احتشدت على مدخل الخيمة وكذلك الفتيات اللواتي

يعملن بتفان لكي يرشدن جميع الناس. أمعن استبينث بضياء الحلبة الساطع وأصغى إلى موسيقى البوب، لكن في الساعة التي ابتدأ فيها الشوط الأول لم يهدر الجمهور الوقت في النقد بل تابع برغبة ملاكمة رديئة في تسديد اللكمات والركلات في اللحظة التي جلس فيها والتر إلى جانب استبينث قاده استنتاجه بأن المتفرجين ليسوا متمرسين أصيلين في الملاكمة أو على الأقل الذين يحيطون به، فهم يستقبلون كل حركة بالأعجاب أو لمشاهدة مونثون ونابولس.

-المعذرة -قال والتر وقد جلس مسترخيا ما بين استبينث وسيده بدينة تتابع الملاكمة وقد عقدت ذراعها بذراع زوجها البدين أيضا الذي بدت عليه إمارات الإلمام بالملاكمة.

-أسترح -قال استبينث فالأمر ليس يسيرا، هؤلاء الفرنسيون يظنون دوما أن الجميع نحيفون، ضحك والتر في حين أندفع استبينث بلطف نحو اليسار كيلا يزعج ذا السروال الأزرق، في النهاية فسحوا مجالًا لأن ينقل والتر حقيبته من ركبته إلى اللوح الخشبي، أبتدأ الشوط الثاني وقد كان رديئًا أيضا، كانت الناس تجد متعتها بما يحدث خارج الحلبة، حينما وصلت مجموعة مكسيكيين يرتدون قبعات سوقية قادرة على أن تجعل طائرة تحلق، نماذج سوقية وبدينة، نماذج تقليدية يلوحون بقبعاتهم في الهواء كان نابولس يقف على الحلبة، لقد هيأ الان ديلون كل شيء فمكبرات الصوت بثت نوعا من أنغام السباق لم يألفها المكسيكيون، نظرا استبينث و والتر باستهزاء، وفي تلك اللحظة أندفع حشد من الناس من مدخلين متباعدين، يترأسهم خمس أو ست نساء كن عريضات أكثر مما كن طويلات، يرتدين بلوزات بيضاء ويصرخن (الأرجنتين، الأرجنتين)

واللواتي تبعهن كن يرفعن علم الوطن الكبير واقتحمت المجموعة الطريق ما بين المرشدات والمقاعد. وأصررن على أن يتقدمن حتى حافة الحلبة بالرغْم أن بطاقاتهن لم تكن محجوزة لتلك للمقاعد. وفي غمرة صرخات مجلجلة انتظمن في صف بتوجيه من المرشدات الباسمات وأصغين لشرح مطول عن لوحين كانا خاليين، لمح استبينث أن النسوة يستعرضن صورة سوداء لمونثون طبعت على الجهة الخلفية للبلوزة.

كل ذلك كان ترحيبًا بجمهور لا ينتمي إلى جنسية اللاعبين لإنهما ليسا فرنسين. وعند الشوط الثالث للملاكمة وقد كان قاسيا ومتكافئًا إلا أن الان ديلون لم ينفق الكثير من النقود للابتهاج عندما يتأهب كلا القرشين كل في عربته فهما لوحدهما يجتذبان اهتمام الناس. وكما يتغير تيار الهواء بغتة أبتلع استبينث ريقه بعد أن أنبعث من مكبرات الصوت لحن تانغو تعزفه اوركسترا فرقة ما، آنذاك فقط نظر والتر بإمعان واستحسان في حين تساءل استبيث أن كان العازف من بلده. لم يتبادلوا كلمة واحدة بعد محادثة محبطة عن حدث في الحلبة لعله من اورغواي أو شيلي لكنهما لم يطرحا الأسئلة، كان بيرلاتا واضحًا. فهما مجرد شخصين يلتقيان في الملاكمة وحدث أن كليهما يتحدث بالإسبانية باستمرار.

-حسنا، الآن نعم-قال استبينث. نهض الجميع بالرغْم الاحتجاجات والصافرات، حدثت في الجانب الآخر ضوضاء عالية وحلقت القبعات السوقية في وسط ذلك الاحتفاء، تسلق مانتكيا الحلبة فبدا مشعا أكثر، الآن حدقت الناس صوب الجانب الأيمن الذي يسوده الهدوء وتحول التصفيق إلى همس توقعي لكن والتر واستبينث لم يتمكنا من أن يشقا طريقهما من مقعديها

إلى مخرج الحلبة الآخر، ران صمت وانبثقت بغتة حرارة كانت الإشارة الوحيدة. رمى المعطف الأبيض على الحبال بخشونة، ثم تبادلا تحية عابرة تحت الأضواء في حين أنتظر الجمهور أن يخفت صوت المكبرات، جلس الناس في مقاعدهم تدريجيًا، ولاحت عن بعد آخر قبعة سوقية فانحرفت وبدت بهيئة مشينة، في حين تأخرت آلة بمرنغ غير مبالية بسبب التحية والاستقبال لجورج كاربنتير، نينو بنبيتي، البطل الفرنسي. وجين كلود بوتيو، تناثرت الصور وتعالى التصفيق ولم تخل الحلبة إلا من القليل، صدح النشيد المكسيكي فرافقته القبعات وفي النهاية طوي العلم الأرجنتيني بانتظار النشيد لم يقف استبينث ووالتر مع أنّ استبينث تألم لكن الموقف لم يكن رديئًا لهذا الحد، على أية حال كان يعرف بأن من يحملون جنسيته ليسوا اقرباءه، غنت المجموعة التي تحمل العلم عندما أنتهى النشيد وتمايلت الخرقة الزرقاء والبيضاء بطريقة أرغمت المرشدات لأن يهرعن إلى تلك الناحية في حين أعلن صوت المكبر الأسماء والأوزان، مضت ثوان ضائعة.

- كيف كان مظهرهم؟ سأل استبينث٠ كان متشنجًا ومنفعلًا ببراءة، في اللحظة التي لوحت بها الكفوف كتحية استهلال، وقف مونثون بمواجهتهم رافعا كفه دون أن يبدي استعداده للدفاع، ذراعان طويلتان مخيفتان تكشفان عن هيئته الهشة أما مانتكيا فهو أقصر قامة وطويل الأنف، قفز مرتين ليعلن عن مجيئه.

-طالما أعجبني التحدي -قال والتر. ومن خلفه أخذ متفرج فرنسي يوضح بأن قامة مونثون ستساعده كذلك لكماته السديدة لقد أبتدأ مونثون وانسحب دون أن يفصح عن قوته، كانت جولة

متساوية تقريبًا رغما عنهما، لقد أبدى إعجابه بالمتنافسين، لم يكن أرجنتينيا. لكن لهجته تشير إلى أنه من اورغواي، فسأل بيرلاتا بالرغم من أنه لم يجب. على أية حال يجب ألا تطول اقامته في فرنسا فالرجل البدين الذي يحتضن زوجته حدثه لكن والتر أجابه بإيجاز فبدى الرجل البدين مستاء منه وأخذ يتحدث مع شخص آخر في المقعد الأسفل. أقلقت لكمات نابولس القاسية، تفكير استبينث، لقد رأى مونثون ينسحب مرتين إلى الوراء في حين رد فعله يأتي متأخرًا، لعل اللكمات أثرت به، كان مانتكيا يدرك بأن فرصته الوحيدة هي تسديد اللكمات، فلكمات مونثون لن تجديه في كل مرة لقدا مست سرعته الرائعة خرقاء، مجرد جذع يتململ يتدرب به الملاكمون في حين البطل سدد لكمة واثنتين إلى وجهه ومن خلفه الفرنسي يكرر متحمسًا: الآن سترى، الآن سترى كيف ستعينه ساعداه، وكلما انطلقت صرخة على حدة لقيت نفورًا، وفي الجولة الثالثة فاز مانتكيا وهذا ما كان منتظرا، فكر استيبنث الآن سيشاهدون ما هو قادم، أستند مونثون إلى الحبال كشجرة صفصاف تهتز، وشبك يديه حتى نهاية الجولة... صعد المكسيكيون على المقاعد فأطلق من جلس خلفهم احتجاجات أو وقفوا ليتمكنوا من المشاهدة.

- ملاكمة جميلة -قال استيبنث -أنها تستحق الاهتمام.

- لا، ليس كذلك.

أخرجا سيجارتين في آن، وتبادلاها وهما يبتسمان، أوقد والتر ولاعته أولا، نظر استبينث برهة لصورة وجهه الجانبي ثم نظر إليه من الأمام بيد أن الأمر لا يتعلق بإمعان النظر، شعر والتر أشيب، لكنه يراه شابا، بناطله جينز وبلوزته بنية اللون. لعله

طالب أو مهندس؟ قصد المكان مثل بقية الناس ودخل الملاكمة برفقة أصدقاء قضوا نحبهم في مونتييدو أو بوينس ايرس، وأحدهم يقول في سانتياغو، يجب أن تسائل بيرونا بالرغم من أنه لم يعد يرى والتر، كل واحد يتذكر على حدة بأنهما التقيا في ليلة ملاكمة مانتكيا الذي كان يلعب بتفان الشوط الخامس، بالرغم من أنه الآن يرافق جمهورًا هائجًا ومتسيبا، لقد محقت الأرجنتين والمكسيك موجة فرنسية كبيرة تقصد الملاكمة أكثر من الملاكمين، كان يتدخل في كل رد فعل، وفي لعبة تشابك السيقان، وفي النهاية انتبه استبينث بأن الجميع يفهم ما يدور جيدا، لعل شخصا أو آخر تسلى ببلاهة بكلمة لا تأثير لها في حين أهمل ما كان يحدث حقا على تلك الحلبة حيث مونثون يتقدم وينسحب مستثمرًا سرعة أبعدت فيما بعد مانتيكا المتعب المتهالك، بالرغم من أنه ضرب بأقسى قوته شجرة السرو بذراعيه الطويلتين وفي مرة أخرى أخذ يتأرجح مستندًا إلى الحبال ليباغته من الأعلى أو من الأسفل بطريقة رائعة قاسية، ولما رن الجرس، نظر استبينث إلى والتر الذي التقط سجائره مرة أخرى.

-نعم أنه هكذا -قال والتر وقدم إليه علبة السجائر -لم يستطع أن يغلبه. يصعب الحديث في غمرة هذا الضجيج، إلا أن الجمهور يعلم بأن هذه هي الجولة الحازمة، أما أنصار نابولس كانوا يشجعونه وكأنهم يلقون عليه تحية الوداع، قرر استبينث ألا يعارض رغبته ففي هذه اللحظة كان مونثون يبحث عن الملاكمة وقد عثر عليها.

فأمعن النطر في وجهه وجسده على مدى عشرين دقيقة متواصلة في حين مانتكيا يسوطه بلكماته كمن يرشه مطبقًا

عينيه. لن يتحمل أكثر من ذلك، أطرق استبينث مفكرًا، فأجهد نفسه ليبعد ناظريه عن الحلبة ويحدق بالحقيبة القطنية المثبتة على اللوح الخشبي يجب أنجاز الأمر بإحكام خلال فترة الاستراحة عندما يجلس الجميع، وفي تلك اللحظة بالتحديد عندما يقفان ستمكث الحقيبة لوحدها على اللوح الخشبي، تلقى نابولس لكمتين على وجهه أرغمته أن يبحث عن الحبل، وقف على مبعدة منهم منتظرا أن يعاوده بلكمة يسددها إلى وجهه. أستخدم الآن ساقيه، يجب مراقبة الساقين، فاستبينث ضليع بذلك، بدا له مانتكيا مثقلًا، يميل إلى الأمام دون أن تستدعي الحاجة لذلك، في حين قدم مونثون انزلقت جانبا نحو الخلف في حلقة محكمة ليتسنى لقدمه اليمنى أن تركل معدته. لم تسمع أغلب الناس رنين الجرس في غمرة هذا الضجيج الهستيري باستثناء والتر واستبينث، جلس والتر أولا ثم رفع المحفظة دون أن ينظر إليها فيما استبينث يتبعه ببطء، دحرج العلبة في ومضة عين ثم رفع يده الخالية ليعبر عن حماسه في وجه الرجل الذي أرتدى سروالا أزرق دون أن يبالي بما يحدث.

-أنه بطل -قال له استبينث دون أن يرفع صوته بالرغم من أنه لن يسمعه وسط هذا الضجيج.

نظر الرجل إلى والتر الذي كان يدخن بهدوء. بدأ يتذمر، وما بوسعه أن يقدم له، أن لم يستطع فلن يتسنى له، وقف الجميع في انتظار جرس الجولة السابعة، وران صمت مهيب صارم فبدا منظر المنشفة على المقعد كالمنبه الوحيد، كان نابولس ينزوي في ركنه دوما في حين مونثون يتقدم وكفاه مرفوعتان نحو الأعلى، واثق من بطولته ليلقي التحية قبل أن يختفي بين زوبعة السواعد والأضواء. كانت خاتمة باهتة بلا جدل، لقد حاول

مانتكيا ألا يكون كرة مطاطية لمونثون، ودنا كل أمل مفقود من المنتصر فرفع كفيه نحو وجهه، كمن يلاعبه في حين مونثون يضرب كتفه بكفيه ثم ينفصلان مرة أخرى، وكانت النهاية الفاصلة، فكر استبينث بأنه لن يطأ الحلبة ابدأ.

- كانت ملاكمة جميلة -قال لوالتر وهو يضع الحقيبة على كتفه ويحرك قدميه لأنهما تشنجتا.

-كانت ملاكمة جميلة-قال له والتر – يقينا أن ما تبقى من الثواني لن يسمح لنابولس أن يخرج

- لماذا؟ ألم تلاحظ ما بدت عليه من مشاعر فتمكنه من الملاكمة جعلته يغض نظره.

-نعم، ولأنه أضطر أن يلعب حتى النهاية، فالنتيجة ليست معروفة.

-مونثون، نعم -قال استيبنث، وتذكر أوامر بيرلاتا، ثم بسط يده بحرارة -حسنا لقد أستمتعنا.

-وأنا كذلك إلى اللقاء.

- وداعا.

رآه يخرج من الجانب الآخر، يتبع الرجل البدين وهو يجادل زوجته بصوت عال، في حين مكث هو خلف الذي يرتدي سروالا أزرق غير مبال بشيء، انحرفا نحو الجانب الأيسر بتؤدة ليتسنى لهما أن يخرجا من بين الألواح الخشبية، أما الفرنسيون الذين كانوا خلفهم فقد تحاوروا فيما بينهم عن مستوى التدريب، لكن استبينث أستمتع برؤية احدى النساء

تحتضن صديقها أو زوجها، تصرخ به لعله يعرف عن طريق السمع فنحتضنه وتقبل فمه ورقبته. قد يكون شخصا أبله، فكر استبينث، لكنه تنبه بأنها كانت تقبل مونثون٠ لم تثقل العلبة جيب الحقيبة، فتنفس الصعداء، مستمتعًا بما يراه، وبالفتاة التي تحتضن الرجل النموذجي، خرج المكسيكيون مع قبعاتهم فبدوا كالأولاد، مازال العلم الأرجنتيني المغضن يرفرف، والإيطاليان البدينان ينظران كأنهما على علم بالأمر، يرد أحدهم على انفراد في حين يؤيده الآخر مؤكدًا. كانت الأبواب موصده، أمسى الخروج بطيئًا متعبًا وامتدت الطرق من الألواح الخشبية حتى جسر العبور في ليلة باردة ممطرة، وفي النهاية أخذ الجسر يهتز تحت وطأة الثقل الباهظ، كان بيرلاتا وجابيس يدخنان متكئين إلى الدرابزين، ولم تبدر عنهما أية أشاره لأنهما على يقين بأن استبينث سيراهما ويتظاهر بالفرحة أقترب منهما كما فعل سابقا، وأخرج سيجارة.

- لقد أهانه-قال له استيبنث.

– لقد علمت -قال بيرلاتا-كنت هناك

نطر إليه استيبنث مندهشا، لكنهما تقدما في آن وهبطا من جسر العبور ليشقا طريقهما بين حشد الناس. أدرك بأنه ملزم أن يتبعهما فرآهما يخرجان من الشارع المفضي إلى المترو وقصدا شارعًا معتما، أستدار جابيس ودخلا دون عجلة أو اهدار للوقت. وقف استبينث خلف بيرلاتا أقلعت السيارة باتجاه الجنوب.

-كنت هناك -قال استبينث -لم أكن أعلم بأن الملاكمة تعجبك.

- لا يهمني الأمر-قال بيرلاتا-بالرغم من أن مونثون يستحق النقود التي كلفتنا. ذهبت لأراك من بعيد تجنبا للشكوك، وليس لأنك بمفردك في مواجهة هذا الأمر.

- حسنا، وقد رأيت، أتعلم أن والتر المسكين كان متحمسًا لنابولس

- لم يكن والتر -قال بيرلاتا.

واصلت السيارة طريقها صوب الجنوب. جلس استبينث حائرًا لأن هذا الطريق لن يقودهم إلى منطقة باسيتا، انتابه إحساس بأنه تجاوزها لأن ما تبقى كان كالانفجار في وجهه، كأن مونثون يسدد لكماته له وليس لمانتكيا.

لم يستطع أن يتفوه بكلمة، مكث برفقة بيرلاتا ينتظره.

- لقد فات أوان التحذير -قال بيرلاتا – من المؤسف أن تذهب إلى بيتك مبكرًا عندما اتصلنا بماريسا أخبرتنا بأنها ذهبت ولن تعود إليه.

- اعترتني رغبة في التنزه قليلًا قبل أن استقل المترو –أجابه استيبنث -لكن أخبرني ....

-ذهب كل شيء إلى الجحيم -قال بيرلاتا -أتصل والتر عندما وصل اورلي هذا الصباح، أخبرنا بما يجب عمله، فأكد لنا بأنه استلم بطاقة ملاكمة وكان ضجرا. اتفقنا لن يناديني من مكانه قبل أن يخرج لمجرد التأكيد. لكنه لم يتصل بي في الساعة السادسة والنصف، فاتصلنا بجنيف لكنها اتصلت بي مرة أخرى لتخبرني أن والتر لم يصل إلى مكان لوجو.

-كانوا ينتظرون عند مخرج اورلى – قال جابيس

- لكن من هو الذي...؟ -قال استبينث لكنه لم يكمل الجملة وبغتة أدرك الأمر وتصبب عرقا باردًا نضح من رقبته، وتصبب من تحت قميصه، وامتعضت امعاؤه.

- أمامهم ست ساعات ليحصلوا على المعلومات -قال بيرلاتا – أنها التجربة، فالرجل ملم بالتفاصيل التي ترغمه أن يعمل معكم، أعلمت الآن كيف يعملون، والتر نفسه لم يطق ذلك.

-غدا أو بعده سنجدهم في أرض مهجورة-قال جابيس بصوت ضجر.

- وما يهمك الآن -قال بيرلاتا -قبل أن يقصد الملاكمة هيأت كل شيء كيلا يسببوا لنا أذى. أتدري، كان لدي أمل بالرغم من أن دخولي ذلك المكان الفاسد لكنه وصل ولم يعد هنالك شيء يمكن عمله.

-حينذاك -قال استبينث -عندما ذهبت وأخذ معه النقود...

-تبعته طبعا.

-وقبل ذلك، لو علمت...

- لم يعد هنالك شينا يمكن عمله -كرر بيرلاتا -ذلك الشخص لم يعر أي اهتمام للأمر وهو شارد الفكر فأوشك أن يودي بنا، كما تدري كانوا عمالا مفتولي العضلات.

-وماذا حدث؟

-كان في انتظاره ثلاثة آخرين. أحدهم يملك بطاقة أو شيئا مشابهًا ولن أطيل عليك كانوا في حافلة تقف في موقف السيارات بسبب حواجز الان ديلون والناس الموجودة خلف الحبال، شعرهم أشيب وهناك حدث ما حدث لاحظت رقم الحافلة لكنه لن يجدي لشيء.

-كنا قد خرجنا من باريس-قال استبينث٠

-نعم قصدنا مكانا هادنا، ومشكلتنا الآن هي أنتم، هل انتبهت؟

-لم أنا؟

-لأن ذلك الشخص تعرف عليك وسيجدونك٠ لم تعد هنالك مشكلة بعد والتر.

-إذن يجب أن أذهب -قال استبينث. فكر في ماريسا وبيبا، كيف سيصحبهما معه وكيف سيتركهما بمفردهما. أشتبك عليه الأمر كأنه في غابة ورن في أذنيه طنين كأنه صراخ الناس تهتف باسم مونثون، خيم هدوء مريب في تلك اللحظة وسقطت المنشقة على أرض الحلبة أنها ليلة مانتكيا، الكهل المسكين ٠كان الشخص من أنصار مانتكيا، الآن لاحظ غرابة ما يجول بخاطره لأنه كان من أنصار الخاسر في حين توجب عليه أن يؤيد مونثون، ويجمع النقود كما مونثون، كأي شخص يولي ظهره للجميع ويحمل معه كل شيء، بل أسوء من ذلك أن يهزأ من الفائز، أو بالشخص المسكين بوجهه الجريح أو ساعده المنبسط متوسلًا، أنها لمتعة٠ وقفت الحافلة بين الأشجار فأطفأ جابيس المحرك. ألتمع في العتمة ضوء سيجارة أخرى كانت لبيرلاتا.

- يجدر بي أن اذهب-قال استبينث -إلى بلجيكا. كيف يحدث ذلك. هنالك ستجد من تعرفه.

- ستشعر بالطمأنينة أن سافرت -قال بيرلاتا -لكن كيف ستدبر أمرك مع والتر، لديه عملاء في كل مكان وهم نشيطون.

- لن يمسكوا بي -كرر استبينث -أصغ إلي، كل ما يجب ان أفكر به هو ماريسا وبيبا، ليذهب، كل شيء إلى الجحيم فأنا لا أستطيع تركهما، سينتقمون منهما. سأتدبر الأمر يومًا ما وأبعث بهما إلى بلجيكا وأقابل الذي تعرفه وأمضى بمفردي إلى جهة أخرى.

- يومًا ما أنه لوقت طويل -قال جابيس وأستلقى في مقعده. اعتادت عينيه على الظلمة، رأى استبينث خياله، ووجه بيرلاتا عندما دنا بالسيجارة من فمه ورشف منها ٠

-حسنا سأذهب في أقرب وقت -قال استبينث – بل الآن قال بيرلاتا وقد شهر بندقيته.

حماقات الشيطان

لست أدرى بأية طريقة أسرد ما حدث، هل ابتدأ بالشخص المتكلم الأول أم الثاني، أم استعمل المتكلم الثالث الجمع أو ابتكر سلسلة صيغ لا تجدي لشيء لو بمستطاعي القول: رايتهم يصعدون إلى القمر، أو: يؤلمني محجر عينيي وبخاصة قول: أنت المرأة الشقراء كانت الغيوم التي تتبعكم جريا أمام ناظريكم ناظرينا وجوهكم يا للحماقة.

كنا متهيئين للسرد، لو بمقدوري تناول مشروب في مكان ما قريب في حين تواصل الآلة الكاتبة عملها بمفردها (لأنني أكتب على الآلة الكاتبة) لصار الأمر متكاملا٠ ليست مجرد كلمة. نعم: التكامل، فالثقب الذي سأروي من خلاله هو أيضا آلة. لكن من نوع آخر. أنها كاميرا كونتاكس(٢ر١ر١)، ولعلها آلة مطلعة أكثر من الأخرى ومني ومنه ومنها -المرأة الشقراء- ومن الغمام. لكنني محظوظ بالرغم من غبائي، وأعلم أنني لو ذهبت ستمكث هذه الآلة الكاتبة متحجرة فوق الطاولة يشوبها قلق مزدوج فتبدو من خلالها الأشياء متحركة في حين هي ساكنة. يجدر بي أن أكتب، أحدنا يجدر به أن يكتب أن قررنا سرد ذلك، لعلى أفارق الحياة، أو أكون أقل التزامًا من البقية، أنا الذي لا أرى أكثر من الغمام بالرغم من قدرتي على التفكير بلا شرود، أكتب بلا شرود (تمر من هنا واحدة أخرى، حافاتها رمادية) وأتذكر بلا شرود أنا الذي فارقت الحياة (وأحيا دون نية في خداع أحد، سترى عندما تحين اللحظة، سأقلع بأية

وسيلة، ابتدأت من هذه النقطة، من خلفها، من أمامها، في نهاية الأمر، تُفضل البداية حين سرد حدث ما).

بغتة طرأ على خاطري أن أسرد ذلك لكن أن سأل أحد ما لماذا أقوم بذلك. أن استفهم أحدهم لماذا أقبل دعوة للعشاء (الآن مرت حمامة خلتها عصفور) أو حينما يقص أحدهم لنا حكاية جميلة لماذا نشعر فورًا بدغدغة في امعائنا ولا تهدأ إلا بعد دخولنا المكتب الكائن في الجانب الأخر ليسرد أحدهم بدوره القصة، حينذاك تهدأ النفوس وتعم الغبطة فتقوى على ممارسة عملك، بالرغم من أنني لا أعرف قص ذلك. أما يستحسن بي أن أنبذ عنى الحياء وأسرد، على أية حال ليس هنالك أحد سيتورد خجلا حينما يتنفس أو يرتدي حذاءه٠ أنها أشياء تمارس، وحين وقوع حدث غريب، أي أن نعثر على عنكبوت داخل الحذاء أو نحس بأنفاسنا كزجاج مهشم، فالأمر يقتضي سرد ما حدث سرده لفتيان المكتب أو الطبيب. آه، الطبيب. كلما تنفست أتذكره دوما لأتخلص من تلك الدغدغة المزعجة في الأمعاء. ولأننا نوينا سرده سننتظم قليلًا، وسنهبط سلم هذا البيت لنبلغ يوم الأحد في السادس من تشرين الثاني أي سنشاهد ما جرى في الشهر المنصرم. أحدهم هبط خمسة طوابق ثم بلغ يوم الأحد، تغمره شمس تشرين الثاني الباريسية فتعتريه رغبة عارمة لان يسير من هنا، ينظر للأشياء بإمعان ويلتقط الصور (لأننا مصورون، أنا مصور) أعلم أن أصعب ما في الأمر هو ابتكار طريقة سرده دون أن أخشى تكراره، سيبدو الأمر عسيرًا إذ لا أحد يدري تمامًا من هو الذي يسرد حقا، نعم أنه أنا وذلك ما حدث. أو هذا ما أراه (غمام، وأحيانا حمامة) أن سردت الحقيقة ببساطة فهي ستكون حقيقتي، وحينذاك لن تكون الحقيقة بالنسبة

لها معنى ولتلك الرغبات التي تحدوني لأن أخرج مهرولًا إلى هنا بطريقة ما، وليكن ما يكون٠

سنسرده بتمهل، سنرى ما يحدث كلما كتبت. لو كنتم مكاني أو لم أعد أعرف ما أقول، أن أنتهى الغمام أو أبتدئ شيء آخر (يستحيل أن يكون ذلك غماما يمر باستمرار وأحيانا حمامة) نعم أنه شيء له علاقة بذلك٠٠ وبعد تساؤلي ماذا سأقول؟ كيف أختتم الجملة؟ لكن لو أبتدأ بطرح الأسئلة لن أسرد شيئا، يستحسن أن اسرد. لربما يكون السرد إجابة على الأقل لمن يقرأ.

روبرتو ميجل فونسي – من تشيلي، مترجم ومصور هاو في ساعات فراغه، خرج من بناية رقم (11) الواقعة في شارع مونسير لبرنس في السادس من يوم الأحد من تشرين الثاني في السنة الحالية (الآن مرت اثنتان صغيرتان، حافتاهما فضيتان)٠ منذ ثلاثة أسابيع وأنا منهمك بترجمة فرنسية تخص اتفاقية موضوعها أنكار تجريح الشهود وموارد خوسيه فوربيرتو اليندي، أستاذ في جامعة سانتياغو. يبدو أمرا غريبًا أن تهب الريح في باريس لكنها انحصرت في الأركان وسببت اعصارا ثم اشتدت لتجلد الستائر الخشبية فجلست خلفها سيدات يسردن مندهشات وبأساليب متباينة تغيير الطقس في تلك الأعوام الأخيرة.

لكن الشمس كانت حاضرة أيضا، تمتطي الريح وتصادق القطط ولأنها مشرقة لم أجد مانعا يحول بيني وبين نزهة على رصيف ميناء سينا وألتقط الصور لمسكن البواب وسان جابي، قاربت الساعة العاشرة، وأظن أن نور الشمس سيسطع في الساعة

الحادية عشرة، أنه أفضل احتمال في فصل الخريف. ولقضاء الوقت اتجهت صوب جزيرة سان لويس وسرت في كيد انجو، نظرت برهة إلى فندق لازون، قرأت بضعة مقاطع شعرية لابوليز الذي يرد على خاطري دوما عندما أخطر من أمام فندق لازون (وذلك ما يذكرني بشاعر آخر لكن ميجل شخص عنيد)، بغتة سكنت الريح وأصبحت الشمس أكبر حجما بمرتين على الأقل (أعنى أكثر دفئا بالرغم من أنها في الواقع بالحجم نفسه) جلست على السور فانتابتني غبطة عارمة في صباح يوم الأحد.

أن أفضل الوسائل المتنوعة لمكافحة الفراغ هي التقاط الصور، نشاط يجب تعلمه منذ الطفولة باكرا لما يتطلب من نظام، وتذوق جمالي، وعين راصدة، وأصابع ثابتة. فالأمر لا يتعلق برصد أكذوبة كما في تحقيق صحفي أو مباغتة خيال بليد لشخص يخرج من رقم عشرة في شارع دويننغ، على أية حال حامل آلة التصوير يجب عليه أن يكون متيقظًا، دون أن يفقد ذلك التوثب الحاد اللذيذ لأشعة الشمس المنسابة على حجارة قديمة، أو ضفائر صبية يعبث بها النسيم تعود بالخبز أو بزجاجة حليب. ميجل يعرف أن عمل المصور هو استبدال رؤية العالم بأسلوب فردي لأن آلة التصوير تفرض عليه المخادعة (الآن تمر غمامة سوداء تقريبًا)، لكنه لم يستعد لأنه ملم بطريقة استعمال آلة كونتاكس فيردد نغما تائهًا، رؤية بلا إطار ضوء بلا حجاب وزاوية قدرها (1.225)، الآن (أية كلمة الآن، هي كذبة غبية) بوسعي أن أمكث جالسا على حافة الجسر إلى جانب النهر، أراقب مرور القوارب السود والحمر، دون أن يطرأ على بالي أن أمعن النظر من خلال عدسة آلة

التصوير أو أبوح لنفسي أن تسترسل في سيرها برفقة مسير الأشياء، فأهرول جامدًا مع الزمن لم تعد الريح تشتد.

بعدئذ واصلت مسيري في كيد بوربون حتى بلغت أقصى الجزيرة حيث يسود هدوء لطيف (لطيف لصغر حجمها وليس لحيائها، فهي تطل بواجهتها على النهر والسماء) تعجبني وتثير أستيائي. كانا مجرد زوجين، كذلك حمامتين، لربما إحدى اللواتي مررن الآن من خلال ما أراه، وثبت لأجلس على السور واسترخيت اتحسس الشمس، أكشف لها عن وجهي، وأذني، ويدي (احتفظت بالكفوف في جيبي) لم تكن لدي رغبة بالتقاط الصور. فأشعلت سيجارة لمجرد عمل شيء ما. أظن أنني لمحت الفتى في اللحظة التي أقترب ضياء النار من السيجارة. المرأة التي أتخذها حبيبته تبدو لفتى وكأنها أمه لكنني انتبهت في اللحظة ذاتها بأنه لم يكن فتى برفقة أمه بل حبيبين بالمعنى الذي نعطيه دوما للمحبين عندما نراهم مستندين إلى السور أو متعانقين على مقاعد الساحات. ولأنني كنت أتنزه ووقتي يسمح لي أن أسأل لم بدت الفتاة عصبية، كمهر أو أرنب بري أدخلت يديها في جيبها، ثم أخرجتها في الحال ثم تلتها اليد الأخرى ومسحت شعرها، وغيرت وضعها وما يجذبني إليها هو سبب خوفها. ذلك ما تنم عنه كل حركة خوف يصفعها الحياء، ترتد إلى الوراء بقوة وكأن جسدها على وشك الفرار، تحتويه بأمان لعين.

توضح لي ذلك كله هنا على مبعدة خمسة أمتار (كنا وحيدين مستندين إلى السور، في طرف الجزيرة) منعني خوف الفتى إن ألمح جيدا المرأة الشقراء، لكنني أخذت أفكر فيها الآن، أراها أفضل مما كانت عليه في اللحظة الأولى التي قرأت فيها وجهها

(بغتة، استدارت كدورة مروحة نحاسيه، وأمست عيناها واضحتين أيضا) حينئذ فهمت من بعيد ما قد حدث للفتى فارتأيت أن الأمر لا يستحق أن أمكث وأراقب (تحمل الريح الكلمات فتبدو همسا) أظن إنني أجيد النظر، أعلم بأنني أطلعت على شيء، والمنظر مجرد استنتاج مزيف. لأنه يجرفنا بعيدًا عن ذاتنا بلا ضمان، ثم أن حاسة الشم (لكن ميجل تشتت تفكيره بوضوح فلا ينبغي أن نتركه يقول ما يهواه) على اية حال، إذا توقعنا مقدمًا أن الأمر قد يكون أكذوبة، فالنظر يصبح محتملًا، لربما يكفي أن أختار بين النظر وما هو منظور، أعري الأشياء من ملابسها الغريبة وطبيعيًا ذلك أصعب بكثير.

أتذكر صورة الفتى قبل جسده الحقيقي (هذا سيتجلى فيما بعد)، لكنني موقن الآن بأنني أتذكر جسد المرأة أفضل بكثير من جسده، كانت نحيلة رفيعة، بالرغْم أنهما كلمتان غير عادلتين لوصف هيئتها، ترتدي معطفًا جلديًا أسود طويلًا وجميلًا. لاعبت ريح الصباح (هدأت الآن وذهب البرد) شعرها الأشقر الذي يذكرني بوجهها الأبيض المعتم –كلمتان غير عادلتين- فجعلت العالم متوثبًا مروعًا أمام عينيه السوداوين، عينيه اللتين تحملقان في الأشياء كعيون النسر، تنظران صوب الفضاء، كقطعتين من الوحل الأخضر.

ولنكن عادلين، كان الفتى أنيق الملبس يحمل قفازين صفراوين. أقسم بأنهما لأخيه الأكبر، طالب حقوق أو علم اجتماع، استمتعت برؤية منظر أصابع القفاز تتدلى من جيب السترة. لم أر وجهه لفترة طويلة عدا صورته الجانبية وهي لا تفصح عن غباء –طير طائر، ملاك فراغيليبور، رز بالحليب-وخلفية مراهق يريد أن يكون لاعب جودو وتشاجر العديد من المرات

لفكرة ما أو للدفاع عن أخته. لربما بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، أظن أنه كان يرتدي ملابسه ويعيش على نفقة أبويه ولا يملك قرشا واحدًا في جيبه وأن قرر طلب قهوة أو كونياك أو علبة سجائر يضطر أن يقوم بمناورة مع النادل. أما إذا تنزه في الشارع فسيفكر في رفاق الدراسة أو الذهاب إلى السينما لرؤية فيلم أو شراء روايات أو ربطة عنق أو مشروب مع تذاكر خضر أو بيض في بيته (وبيته محترم، موعد الغداء في الساعة الثانية عشرة، علقت على جدرانه لوحات رومانسية وإلى جانب الباب مسند للمظلات غامق اللون من خشب الماهون) وتطيب له الدراسة في أثناء هطول المطر، هو أمل أمه وعليه أن يمتثل لطاعة والده، ويكتب رسائل للعمة آبكنون. لذلك فهو ينظر للطرقات المتعددة والنهر (دون أن يملك قرشا) والمدينة الغامضة نظرة فتى في الخامسة عشر من عمره مع إشارات أبوابها، وقططها المرتجفة، وقمع البطاطا المقلية بثلاثين فرنكا والمجلة الجنسية التي طواها أربع مرات، الوحدة كما هو حال فراغ الجيب واللقاءات السعيدة، والطيش دون سبب لكنه يواصل بحب غامر، و اندفاعه الواضح للريح والطرقات.

هذه هي صورة الفتى أو أي فتى، لكنني أجده الآن منعزلًا ثم عاد وحيدا بسبب غياب المرأة الشقراء التي تتبعه وتكلمه (عنادي أتعبني، مرت غمامتان كبيرتان متناثرتان تذكرت أنني لم أر السماء في ذلك الصباح لأنني توجست بما حدث للفتى في حين المرأة أنظر اليها وأنتظر فحسب)، كنت أراهم وخلاصة القول بدا الفتى قلقا وما حدث منذ بضع لحظات لن يكلف جهدا للتكهن به، لم تمض نصف ساعة حتى بلغ الفتى طرف

الجزيرة، رأى المرأة والتقى بها متعجبًا. كانت المرأة تنتظر لأنها وقفت هنالك لتنتظر، لربما وصل الفتى قبلها وهي رأته من الشرفة أو من السيارة، ثم خرجت للقائه لتثير معه حوارًا عن أي شيء، وهي موقنة منذ البداية بأنه سيصاب بالذعر ويلوذ بالفرار وطبيعيًا سيتملكه الغضب والنكد، فيتظاهر بالمغامرة وبمتعته بها. ما تبقى أمر يسير لأنه حدث على مبعدة خمسة أمتار وباستطاعة أي كان أن يقيس خطوات اللعبة، والعذر الذي يثير السخرية، لم يكن حاضره هو متعته بل توقع النتائج. تعذر الفتى بموعد، بالتزام ما، ثم أبتعد متعثرًا مقهورا، تتملكه الرغبة لأن يسير بثقة، تحت سيطرة نظرة ساخرة تعتريه حتى النهاية. بالأحرى مندهشا أو ببساطة لا يقوى على اتخاذ المبادرة. فابتدأت المرأة مداعبة وجهه وتسرح شعره، تحدثه همسا وبغتة تشبك ساعده فتجعله يشمئز بالرغم من أنه لا يشعر بالراحة لربما لتلون رغباته، ومجازفة المغامرة، تحفزه لأن يمرر ساعده فوق خصرها ثم يقبلها. كل ذلك يمكن أن يحدث لكن لم يحدث لحد الآن وميجل ينتظر ساهما، متكئًا إلى حافة الجسر غافلًا دون أن يتنبه إلى آلة التصوير التي تلتقط الصور الطريفة في ركن من الجزيرة مع حبيبين غير متفقين سواء في الحديث أو تبادل النظرات .

مما يثير الفضول بأن المنظر بدا (أنعدم تقريبًا: اثنان هناك، غير متساويين في أعمارهما) كهالة شعاع مقلقة. فكرت بأن هذا من صنعي أنا، وبأن صورتي أن التقطتها سترد الأشياء لحقيقتها الغبية. وددت أن أعرف ما يفكر به الرجل ذو القبعة الرمادية وهو جالس إلى مقود حافلة توقفت على رصيف الميناء الذي يرتكز عليه جسر المرور، يقرأ صحيفة أو لربما نائم. لقد

لمحته لتوي، فالناس تتلاشى تقريبًا داخل الحافلة. تختفي وتتيه في ذلك القفص البائس محرومة من الجمال المنبثق من الحركة والخطورة، كانت الحافلة موجودة طوال الوقت تشكل جزءًا من الجزيرة (أو تشوه ذلك الجزء من الجزيرة) حافلة: كأنها قنديل للإضاءة، أو مقعد في ساحة. أما الريح، والضياء، والشمس، فهي ليست دوما عناصر مجددة للبشرة والعينين، كذلك للفتى والمرأة، جاؤوا إلى هنا بمفردهما لتغيير الجزيرة، ولكي يرغمونني أن أراها بطريقة مغايرة وأخيرًا، لربما الرجل الذي يقرأ الصحيفة كان متنبهًا أيضا لما يجري وتنتابه مشاعري نفسها من استياء وتوقعات تشوبها سوء النية. انحنت المرأة بلطف وحصرت الفتى ما بين السور وبينها، رأيت صورتهما الجانبية هو أطول منها، لكن ليس كثيرًا، بالرغم من ذلك هي أضخم منه، كأنها تنحني فوقه (بغتة أطلقت ضحكة كسوط من ريش) فتسحقه لمجرد رفقتها له ثم تبتسم، وتلوح بيدها في الهواء، لم أنتظر أكثر؟ فالتصوير بعدسة حجم 16، برفقة موقف سيارات لا يسمح للحافلة المروعة السوداء أن تنضم للمشهد، باستثناء هذه الشجرة. فهي ضرورية لتلهب فضاء رماديًا داكنًا.

رفعت آلة التصوير تظاهرت بتفحص منظر لا يشملهم وتوقفت عند تقاطع الطريق، وأخيرًا باغتهم بالنور الكاشف. بالتعبير الذي يوجز كل شيء، فحركة الحياة ينظمها توزيع إيقاعي لكن صورة جامدة قد تتهشم أن تجزئ الزمن، أن لم نختر الجزء الأساسي الذي لا غنى عنه. لم يتطلب مني الأمر أن انتظر كثيرًا. تقدمت المرأة في مهمتها وهي تقييد الفتى برقة، تنزع عنه رويدا آخر بقايا حريته في غمرة عذاب وئيد لذيذ، تخيلت

النهاية المحتملة (طلت الآن غمامة زبدية بدت بمفردها في السماء). أسرعت في الوصول إلى البيت (شقة في الطابق الأسفل قد تكون مليئة بالأوساخ والقطط) ساورني شك بارتباك الفتى وقراره غير المتوقع في أن يتغاضى عنه متظاهرًا بأن الأمر لا يبدو جديدًا له.

أغمضت عيني، نعم أغمضتها ونظمت منظر القبلات الساخرة. ورفض المرأة العذب لليدين التي تحاول تعريتها كما في الروايات. على سرير من أوراق زهر البنفسج. بالمقابل ترغمها على أن تتعرى من ثيابها. كانا كأم وأبنها، تحت نور أصفر يشوبه أزرق فاتح، وتنتهي الأشياء كما هي عليه دوما، لربما، لكن لربما حدث كل شيء بطريقة مغايرة، له مقدمة طويلة هي تعثر الحركة والمداعبات الساخطة، وحركة اليدين اللتين تنحلان من يديه لتغرق لا أعرف أين، في متعة منفصلة وحيدة، في مشاكسة سلبية تمتزج مع فن الأعياء والشرود وبراءة لعينة. قد يكون الأمر هكذا، قد يكون هكذا حقا، تلك المرأة لم تشأ أن تبحث عن عشيق في الفتى. في الوقت نفسه تمتلكه لغاية عسيرة الفهم أن لم تكن تتصوره لعبة قاسية، أتمنى لكن دون أن اقتنع أن يكون لثورتي سبب مغاير، لشخص يستحيل أن يكون هذا الفتى أبدا. يشحذ ميجل خياله بالأدب بقصة غير واقعية، لا شيء يعجبه سوى تخيل الاستثناءات أو أفراد من خارج فضائنًا أو أشباح عاديين. لكن تلك المرأة تدعو إلى اكتشاف ما، لربما تقدم له المفاتيح التي تتطابق مع الحقيقة. قبل أن يحدث ذلك، امتلأت ذاكرتي في غضون أيام، لأنني قصدت التأمل. فاضطررت أن أضيع دقيقة أكثر. جعلت ثقب العدسة يحتوي كل شيء (الشجرة، السور، شمس الحادية عشرة) والتقطت

الصورة، ولما أدركت أنهما انتبها إلي ونظرا نحوي، بدا الفتى مأخوذا ومستفسرًا، أما هي بدت غاضبة، لان جسدها ووجهها العدائي قد سرقا، وأمسيا سجينين بشكل فاضح في صورة كيمائية صغيرة. باستطاعتي أن أسرد ذلك بالتفصيل لكن الأمر ليس جديرًا بذلك.

قالت لي المرأة بأن ما من أحد يملك الحق لان يلتقط صورة دون ترخيص، وشرطت علي أن أعطيها الفيلم، بصوت جاف واضح ولهجة باريسية متقنة، في حين لونها ونغمتها تغيرتا في كل جملة، لم أبال لمطالبتها بالفيلم أو أن أمتنع عن ذلك، لكن كل من يعرفني سيعرف أن طلب الأشياء يجب أن يتم بلطافة مني، اقتصرت النتيجة على تكوين فكرة أن التصوير ليس ممنوعًا في الأماكن العامة حسب بل يعتمد أيضا على قرار ترخيص عام أوشخصي٠

كنت مستمتعًا لأن في حين هي تتكلم ذلك الفتى أستجمع قواه، ووقف خلفها -دون حراك – بغتة أنطلق مهرولًا والمسكين يظن أنه يسير في حين في الحقيقة كان يهرب نحو الطريق، مر بجانب الحافلة، حتى تلاشى مثل خيط العذراء في نسيم الصباح. لكن خيوط العذراء تسمى أيضا حماقات الشيطان، فأضطر ميجل لأن يتحمل الشتائم المنبوذة، كأن يسع تسميته فضوليًا وأبله، لكنه تقبلها بابتسامة واهنة وبانحناءة رأس بسيطة وتأثير خفيف، كان الرجل ذو القبعة الرمادية يرمقنا حينها أدركت أنه أدّى دورا في الكوميديا.

أبتدأ يسير نحونا يحمل بيده الصحيفة التي كان يزعم قراءتها. ما زلت أذكر السخرية التي ارتسمت على جانبي فمه، فغطت

وجهه بالتجاعيد، لكن تغييرًا ما طرأ على المكان والشكل لأن فمه أرتجف وتنقلت السخرية ما بين جانبي شفتيه كإيماءة منفصلة عن فمه، لا تخضع للسيطرة٠ وما تبقى كان واضحًا لأنه بدا كمهرج ملوث بالطين أو رجل بلا دم، جلده مكتوم جاف، عيناه غائرتان وفتحتا منخريه السوداوين الواضحتين أصبحتا أشد سوادًا من الحاجبين أو الشعر أو ربطة العنق السوداء. كان يسير حذرا، كأن الرصيف يؤذى قدميه. رأيته يرتدى حذاء من جلد، كعبه في غابة الدقة كأنه لا يحتمل خشونة الشارع٠ لست أدري لم هبط إلي من السور، لست موقنًا لم قررت ألّا أعطيه الصور، لربما لأنني رفضت ذلك الشرط الذي كنت أراه خوفا وجبنا. تشاور المهرج والمرأة بصمت: لقد كونا مثلثا متكاملًا لا يطاق، شيء يجب تحطيمه بالمفرقعات ابتسمت لهم ومضيت في طريقي، وعلى ما أظن كنت أقل سرعة من الفتى عندما تراءت لي البيوت، الممتدة على جاني المعبر الحديدي، نظرت صوبهما، لم يبرحا مكانهما لكن الرجل أسقط الصحيفة من يده ورأيت المرأة، مستندة إلى السور تمرر يدها فوق حجارته بإيماءة تقليدية غير متوقعة كمن يبحث عن مخرج.

والبقية حدثت هنا في اللحظة نفسها، في غرفة في الطابق الخامس. مرت عدة أيام قبل أن يطبع ميجل صور يوم الأحد، ويفترض أن تكون نماذج عن مسكن البواب وسان جابيه، عثر على صورتين أو ثلاث تجريبية كان قد نسيها، كانت محاولة فاشلة لمباغتة قطة تتسلق مندهشة سقفا متهدمًا، وكذلك صورة المرأة الشقراء والمراهق. كان نيجاتيف الفيلم جيدا فتمكن من تكبير الصورة. ولأن تكبير الصورة أنجز بإتقان، كأنه ملصق

جداري، لم يخطر بباله (أسأل عنه الآن، أسأل عنه) بأن الصور التي تخص مسكن البواب كانت الوحيدة التي تستحق الاهتمام. ومن كل مجموعة الصور كانت تلك الصور التلقائية في أقصى الجزيرة هي الوحيدة التي أعجبته، ثبت الصورة المكبرة على جدار الغرفة في اليوم الأول كان ينظر إليها ويتذكرها في كل لحظة ليعقد مقارنة كئيبة للذاكرة إزاء ضياع الحقيقة، ذكرى متحجرة، كبقية الصور لا يعوزها شيء، وبخاصة عدميتها، أنها تجميد حقيقي للمنظر. ثمة شجرة صلبة تضلل رأس المرأة والفتى، وسماء ثابتة كحجارة السور، لقد أمتزج الغمام والحجارة في مادة واحدة لا تنفصل عن بعضهما. (تمر غمامة أخرى حوافها مسننة كأنها تتصدر عاصفة). تقبلت في اليومين الأولين ما حدث، أبتدئ من الصورة نفسها حتى تكبيرها على الجدار. ولم أبال لتوقفي كل لحظة عن ترجمة لاتفاقية خوسيه نوربيرتو الييندي لكي أستعيد تفاصيل وجه المرأة، ويديها الداكنتين على السور، كانت المفاجأة الأولى غبية، لأن رؤية صورة بشكل مباشر لم تدفعني أبدا للتفكير، فالعينان تكرران تمامًا الشكل والرؤيا، أنها تملك الأشياء التي... لكن لم يأخذها أحد بنظر الاعتبار. رمقت الصورة من على بعد ثلاثة أمتار، وأنا جالس على مقعدي أمام الآلة الكاتبة فتنبهت حينها أنني ثبتها في مركز النظر إلى الهدف. كانت تبدو جيدة على هذه الشاكلة ومما لا ريب فيه أنها الطريقة السليمة لتقييم صورة، بالرغم أن النظر من خلال قطر العدسة له متعته ومذاق المغامرة.

عندما لا نجد في لحظة ما، وسيلة تعبير كلامية بلغة فرنسية سليمة عما يريد قوله خوسيه نوربيرتو الييندي في لغة إسبانية

سليمة، أو عن الفتى، وأحيانا عن الرصيف الذي افترشته الأوراق الجافة فشكلت طريقًا ممتدًا كالساحل ۰ كنت أستريح من عملي فدفعتني الرغبة في ذلك الصباح لأضع الصور في الماء، تذكرت بسخرية منظر المرأة الغاضبة وهي تطالب بالصور وهروب الفتى المضحك واحتواء الصورة لوجه الرجل الأبيض. كنت مقتنعًا من صميم ذاتي، بأن جولتي لم تكن موفقة كثيرًا بالرغم من أن الفرنسيين يتمتعون بموهبة الجواب السريع، لست أدرى تمامًا لم فضلت الذهاب دون شرح واف عن امتيازات حقوق المواطنين.

أهم ما في الأمر، هي مساعدة الفتى على الفرار في الوقت المناسب (أن كانت افتراضاتي صحيحة بالرغْم عدم ثباتها، لكن فرار الفتى أشار إليها) وتدخلي التام منحه فرصة لان يحول ذعره إلى عمل جدي، قد يتأسف الآن لخسارته وإحساسه بخدش رجولته. لكن ذلك أفضل من رفقة امرأة قوية الملاحظة كما كان يراها في الجزيرة. كان ميجل رجل ملتزمًا دينيًا. ويمقت الفساد عنوة، كان يحس في صميم ذاته أن الصورة عمل جيد.

كنت أنظر اليها ما بين سطر وآخر في اثناء عملي ليس لأنني أجدت تصويرها. لست أدرى في تلك اللحظة لم كنت أرمقها، ولما ثبت الصورة المكبرة على الجدار، لربما الشيء ذاته يحدث مع كل الأعمال القاتلة، وكذلك هي حالة إنجازها. أظن أن تمايد أوراق الشجر الحاد لم يثر اهتمامي فواصلت كتابة جملة كنت ابتدأتها ثم ختمتها بإتقان۰ العادات كالأعشاب الكبيرة. لكن توسيع عدسة بحجم ثمانين في ستين كأنها شاشة سينمائية، فبدت المرأة تحدث فتى في طرف الجزيرة وأوراق الشجر اليابسة تتأرجح فوق رأسيهما. لكن اليدين بدتا كبيرتين،

فرغت من كتابة: هكذا، فالمخرج الثاني يكمن في الطبيعة الداخلية لصعوبات المجتمعات.

لمحت يد المرأة تنطوي بطيئًا، إصبعا تلو الآخر، لم يتبق الكثير لأنجز عملي، سوى جملة فرنسية لن انجزها أبدا، سقطت الآلة الكاتبة على الأرض، أز المقعد وأرتجف مرت غمامة، طأطأ الفتى رأسه كالملاكمين حين يعجزون وينتظرون الضربة القاضية. لقد رفع ياقة معطفه، فبدا كالسجين، ضحية حقيقية تعين على وقوع الكارثة.

همست المرأة في مسمعيه، انبسطت يدها مرة أخرى وانزلقت مرة أخرى فوق خديه، لتداعبه وتلاطفه، تثيره بتؤدة. بدا الفتى مرتبكًا أكثر مما كان خائفًا، مرة أو اثنتين أستطلع بناظريه خفية من فوق كتف المرأة في حين هي واصلت حديثها. لتوضح أمرا ما. فتنظر كل لحظة صوب المنطقة حيث ميجل يعلم بوجود الحافلة وفي داخلها الرجل ذو القبعة الرمادية تجلت له الصورة بحذر وانعكست في عيني الفتى (كما أظن الآن) وفي كلمات المرأة، وفي حضور المرأة المهين. عندما لمحت قدوم الرجل الذي وقف على مقربة منهما يرمقهما بنظراته، يداه في جيبه منهك الهيئة وعصبي المزاج، بدا كسيد يصفر لكلبه بعد مرح في الساحة، ففهمت ما حدث، وما يجب أن يحدث، وما قد حدث، وما كان قد حدث في تلك اللحظة لأولئك الناس، هنا، لأنني قمت بتشويه النظام. ليندمج ببراءة في ذلك الذي لم يحدث لكنه سينتهي الآن، وما رسمه خيالي فيما بعد أن كان أقل رعبا من الواقع، لأن تلك المرأة لم تكن موجودة بذاتها. لم تكن تداعب أو تثير الرغبة، بل لتثير الملاك الشعث وتتلاعب بخوفه وبرغباته.

كان السيد الحقيقي ينتظر ويضحك بحدة، واثقا من عمله، لم يكن أول شخص يأمر امرأة بأن تعمل ضد الجيل القادم فيجلب لها الأسرى مكبلين بالزهور. ما تبقى أمر يسير، أي الحافلة، والبيت، والمشروبات واللوحة المثيرة والدموع المتأخرة واليقظة في غمرة الجحيم، لا أقوى على عمل شيء، هذه المرة لن أستطيع عمل أي شيء.

تكمن قوتي فقط في التقاط الصور، أنها هنا، تثأر مني لتفصح لي عن الأمر بلا تكلفة. التقطت لصورة، أنصرم والزمن كنا بعيدين عن بعضنا، لكن السلوك كان مبتذلًا بالتأكيد، وانهمرت الدموع، وما تبقى مجرد حزن وتكهن٠بغتة انعكس النظام. أصبحا أحياء ويتحركان، بل قررا أن يتخذا قرارهما وتوجها صوب مستقبلهما، وأنا في هذه الناحية، سجين زمن آخر، في غرفة في الطابق الخامس، أجهل من تكون تلك المرأة وذلك الرجل والفتى، لا أملك سوى عدسة آلة التصوير، آلة ضعيفة عاجزة عن التدخل، لقد قذفوا في وجهي سخرية مروعة قرروها إزاء عجزي، تجلت في نظرات الفتى للمهرج المسحوق فأدركت أنه سيوافق، لأن العرض يتضمن نقودا وخديعة، لا أستطيع أن أصرخ به ليهرب، وببساطة أمهد له الطريق بصورة جديدة، ومجرد تدخل بسيط متواضع سيفسد تلك الحماقات والعطر. كادت كل الأمور أن تهدأ هنالك، وفي تلك اللحظة، ران صمت عميق لا يمت بصلة للصمت الفيزيائي٠

بيد أن ذلك الأمر قد أستفحل. فأطلق صرخة مرعبة وفي تلك الدقيقة ذاتها ايقنت أنه شرع يدنو منى، عشرة سنتمترات، خطوة، خطوة أخرى. اهتزت الشجرة ومالت اغصانها،

وخرجت قطعة من السور خارج الصورة، أما وجه المرأة أستدار نحوي وقد ارتسمت عليه ملامح الدهشة أخذت تداعبني، حينها انحرفت قليلًا، أقصد أن آلة تصويري انحرفت دون أن أحيد نظري عن المرأة التي أخذت تدنو من الرجل الذي ينظر إلى من الثقوب السود التي حلت مكان عينيه، كنت أراها بدهشة وغضب، تمكنت في اللحظة ذاتها من رؤية طائر كبير يخرج من العدسة ويمر محلقًا أمام صورتي، استندت إلى جدار غرفتي وكنت مغتبطًا بفرار الفتى، رأيته يركض، مرة أخرى من خلال العدسة، هاربًا بأقصى سرعته بعد أن تعلم أن يحلق فوق الجزيرة، ويصل إلى جسر العبور ثم يعود إلى المدينة. للمرة الثانية ساعدته على الفرار وأرجعته إلى جنته القلقة. مكثت أمامهم ألهث وبالكاد أرى كتف المرأة وخصلات شعرها، لأن إطار الصور قد بتر وأمامها وقف الرجل مشدوه الفم ولسانه الأسود يرتجف بوضوح يرفع يديه ببطء، بعد أن قربت العدسة من رقم الدرجة الأولى، وفجأة ركزت العدسة بصورة جيدة، فتحول إلى شيء ككيس منتفخ ليسحق الجزيرة والشجرة، أغمضت عيني ولم أشأ أن أرى الكثير، غطيت وجهي وانفجرت أبكي كالأبله.

مرت الآن غمامة بيضاء كبيرة. كما في تلك الأيام، وفي ذلك الزمن غير المحسوب، أما ما تبقى قوله هو دوما غمامة، غمامتان، ساعات طوال تحت سماء صافية تمامًا، ومستطيل واضح مثبت على جدار غرفتي بالمسامير وما رأيته عندما فتحت عيني ولمسته بأصابعي: سماء صافية. تشوبها غمامة من الجانب الأيسر تنساب مبتهجة ببطء لتضيع في الجانب الأيمن بعدها مرت أخرى، أحيانا تمسي رمادية، أصبح كل شيء

غمامة كبيرة، وبغتة رأيت المطر ينهمر فوق الصورة لأمد طويل، صرخة بكاء ارتددت إلى الوراء وعاجلا ما توضحت الصورة، لربما أشرقت الشمس، لكن الغمام داهمها مرة أخرى، غمامتان أو ثلاث، إضافة إلى الحمام، أحيانا يمر عصفور ويليه آخر.

الأسلحة السرية

ما يثير الفضول، هو ظن الناس أن ترتيب السرير هو مثلما أن ترتب سريرًا. وأن تمد يدك هو دائمًا مثلما أن تمد يدك، وأن تفتح علبة سردين هو أن تفتح علبة السردين نفسها إلى مالانهاية.

(لكن كل شيء استثنائي) طرق بيير مفكرًا، مستندًا ببلادة إلى غطائه الأزرق المتهرئ أمس أمطرت واليوم مشمس، أمس كنت حزينا في حين اليوم ستأتي ميجلة. الشيء الوحيد الثابت، الذي لن يحدث مطلقًا هو أن يتحسن شكل هذا السرير. فالنساء تعجبهن فوضى غرفة العازب، قد يضحكن (تطل الأم بأسنانها) ويرتبن الستائر، يغيرن مكان مزهرية أو مقعدًا، تطلب منك أن كان بمقدورك أن تضع هذه الطاولة في مكان لا ضياء فيه، قد تقول ميجله أشياء كهذه.

ستتصفح الكتاب وتغيير الضوء، وهو سيتركها تفعل ذلك ليرمقها طيلة الوقت، مرتميا على السرير أو غائرًا في الأريكة القديمة لينظر إليها من خلال دخان سجائر غاليوس، وتعتريه رغبة نحوها. السادسة هي الساعة الخطرة، فكر بيير، الساعة الذهبية التي يبدأ فيها حي سان سوبليثه بالتغيير ويتهيأ لليل، عاجلا ما تخرج الفتيات من مكتب كاتب العدل. ويسحل زوج مدام لونتر ساقيه على السلم، وتتناهى أصوات الأخوات في الطابق السادس، متآلفات ساعة شراء الخبز والصحيفة اليومية. لن تتأخر ميجله لربما ضلت الطريق أو سارت متمهلة في الشارع مع رغبتها الخاصة لأن تتوقف أمام كل مكان وتلقي

نظرة عليه ثم ترحل في عوالم الواجهات الصغيرة الخاصة، وبعدها ستقص عليه: دب من حبال، أسطوانة لكويرين، سلسلة برونزية مع حجر أزرق، الأعمال الكاملة لستندال، موضة الصيف، أسباب مفهومة لوصولها متأخرة. سيجارة غاليوس أخرى وبعدئذ جرعة أخرى من الكونياك. أخذ يصغي إلى بعض أغاني ماك اورلان، فيبحث دون طائل جهد بين أكداس من الورق والدفاتر وهو على يقين أن رولاند أو باييت حملا معهما الأسطوانة، لو أخبروه كلما أخذا شيئا من أغراضه لماذا لم تصل ميجله؟ أستوى جالسا على حافة السرير يغضن اللحاف، أنها هي، ينبغي عليها الساعة أن تسير من جانب إلى آخر، عاد إلى حافة الوسادة اللعينة وقد فاحت منها رائحة التبغ المروعة، لقد دخن مئات ومئات من سجائر الغاليوس في مئات ومئات من الأيام بسبب: انشغاله بنظرية ما، أو بضع صديقات، وأزمتين لمرض الكبد، وروايات، وضجر، ومئات ومئات من سجائر غاليوس٠

مما يثير العجب دوما أن تلقي نفسك منكبًا فوق زخرفة ما مكرسًا اهتمامك للتفاصيل ٠ تَذكر الأربطة القديمة التي رمى بها إلى النفايات منذ عشرة أعوام ولون مجموعة الطوابع وافتخاره بهواية تجميعها في طفولته كأنه يعرف في عمق ذاكرته كمية السجائر التي دخنها في حياته ومدى متعته بكل واحدة منها ومن أوقدها له وأين رمى بأعقابها٠ يستحسن أن تبقي الأرقام مجردة لتراوده في أحلامه أحيانا، فيتعجب من تلك الكمية التي أوقدها.

طرق ببير مفكرًا، وحينما تنعكس ابتسامته في مرآة الصوان تجبره دوما على أن يفرج أساريره ويرد إلى الوراء خصلة

شعره الأسود التي هددته ميجله بقصها. لماذا لم تصل ميجله؟ لم لا تريد أن تدخل غرفتي؟ طرق بيير مفكرًا.

يجدر بها أن تدخل غرفته كي تقص خصلة شعره المتدلية على جبهته وتستلقي في سريره. لأن {دليله) تطلب أجرا مرتفعًا لا يتناسب وشعر الرجل. أعترف بيير في سره بغبائه لأنه طالما فكر أن ميجله ترفض أن تصعد إلى غرفته، فكر بذلك صامتا، فكرة تنبثق من بعيد. قد يفسح التفكير أحيانا طريقًا لعوائق لا تحصى حتى يفرض نفسه ويمسي مسموعًا. أنه أبله حينما فكر بأن ميجله لا تريد أن تصعد إلى غرفته، وإذا لم تأت ميجله فلأنها تقف ساهمة أمام مخزن أدوات منزلية أو ملابس لتمتع ناظريها بفقمة من البورسلين أو بمنظر الطباعة الحجرية فتراءى له أنه رآها، وفي الوقت نفسه تصور بندقية مزدوجة الفوهة ذلك عندما أبتلع دخان السجائر وسامح نفسه على حماقته• لا يوجد شيء يثير الاستغراب في تصور بندقية مزدوجة الفوهة لكن ما الذي أوحى إليه بهذه الفكرة في هذه الساعة في شقته، فإضافة إلى ما ينتابه من إحساس بالاستغراب، لا تعجبه تلك الساعة التي تبدو بها الأشياء بلون البنفسج ولون الرماد. بسط ساعده متأرجحًا ليطفئ النور فوق الطاولة.

لماذا لم تصل ميجله؟ أنها لن تأتي ولن يجدي طول انتظاري لها، فاضطر أن يفكر بواقعية أنها لا ترغب أن تأتي إلى غرفته. وأخيرًا لا يوجد شيء يستحق أن يجعل منه حدثا مأساويًا، تناول كونياك آخر. ابتدأ بقراءة رواية، ثم قصد حانة ليون ليأكل شيئا • النساء دوما متشابهات، في انجين أو في باريس، سواء كن شابات أو سيدات. بدأت نظريته للحالات

الاستثنائية تفقد فعاليتها، فالفأرة الصغيرة تتراجع قبل أن تدخل المصيدة، لماذا المصيدة؟ يوم قبل وآخر بعد... انتظرها منذ الساعة الخامسة بالرغم من أنها ستأتي في الساعة السادسة لقد رتب لها اللحاف الأزرق بشكل خاص، وأزال بمنظفة الريش نسيج عنكبوت قديم من على المقعد بالرغْم أنه أمر غير ذي أهمية ولن يؤذي أحدا. أما هي فستترجل في تلك اللحظة من حافلة سان سوبليته أمام بيته لتتريث أمام الواجهات وتجيل بناظريها إلى الحمام في الساحة. لا يوجد سبب لترفض الصعود إلى غرفته، ولا يوجد سبب لأن يفكر ببندقية مزدوجة الفوهة، أو أن يخطر على باله في تلك الساعة أن ميجاوكس أفضل ما كتبه غراهام غرين، لكن الاختيارات التلقائية تقلق بيير دوما. لا يمكن أن تسير الأشياء بصورة اعتباطية، ولمجرد مصادفة محضة يناقض غرين ميجاوكس، أو ميجاوكس يناقض انجين، أي يناقض غرين، أو أن يخطئ بمكان مثل انجين وكاتب مثل غرين.

(لا يمكن أن تكون الأشياء محالة)، فكر بيير بعد أن رمى بسيجارته، (وعدم مجيئها سببه حدوث شيء لا علاقة له بكلينا). يهبط إلى الشارع وينتظر لحظة على الباب، يرى أنوار الساحة مضاءة لكنه لم يجد أحدا في حانة ليون لما قصدها. فجلس إلى طاولة تطل على الشارع وطلب كأس بيرة ليتسنى له أن يرى مدخل بيته، فإذا ما...

تحدث ليون عن عودته إلى فرنسا. يصل نيكول برفقة صديقته. بائعة الزهور ذات الصوت الأجش. كانت البيرة مثلجة ود لو طلب مقانق لكن الثمن سيرتفع، كان أبن البواب يلعب على

مدخل الباب، فيقفز على قدم واحدة، وعندما ينتابه التعب ينتقل إلى القدم الأخرى دون أن يغادر الباب.

-يا للحماقة-قالت ميجله -لماذا لا تريد أن تذهب إلى بيتك، ما دمنا سنمكث على هذه الحالة.

يجلب ادموند قهوة الساعة الحادية عشرة صباحًا لا يوجد أحد في تلك الساعة تقريبًا، تأخر ادموند وهو إلى جانب الطاولة يسرد قصة عودته إلى فرنسا. بعد ذلك تشرح ميجله أمرا مسلمًا به أي ما طرأ على ذهن بيير. كأغماء والدتها المألوفة، وخوف والدها الذي يتصل بالمكتب ثم يهرول لسيارة الأجرة وبعدها مجرد دوار بسيط لا أهمية له. وكل هذا لم يحدث للمرة الأولى، لكن بيير....

يسعدني أنها تحسنت-يقول بيير بغباء، يضع يده على يد ميجله، فتضع ميجله يدها الأخرى على يد بيير ثم يضع بيير يده الأخرى فوق يد ميجله تسحب يدها من الأسفل لتضعها في الأعلى. يسحب بيير يده من الأسفل ليضعها في الأعلى. تسحب ميجله يدها من الأسفل لتسند براحة يدها أنف بيير.

-أنه بارد كيد كلب صغير. أعترف بيير بأن درجة حرارة أنفه هي لغز مبهم

-أحمق-تقول له ميجله اختصارًا للموقف.

يطبع بيير قبلة على جبينها من فوق شعرها. تحني رأسها لتتناول شراب النعناع فيجبرها لأن تنظر إليه، فيقبلها مرة أخرى، وقبل أن يطبع قبلة على شفتيها، يفوح منها عبق منعش

كأفياء الأشجار. يتناهى إلى مسمعيه من بعيد اللحن الحزين (في شهر نيسان الجميل)، فيعجب به ويتذكر كلماته ساهما، وقد فهمه بعد أن عرف ترجمته، لكنه يحب الموسيقى الهادئة، تناغم إيقاع اللحن مع شعر ميجله وثغرها الرقيق. (في شهر نيسان الجميل)، فتبسط ميجله يدها على كتفيه وتنشب به أظافرها.

- إنك تؤلمني -تقول له ميجله بعد أن أبعدته وهي تلمس شفتيها بأصابعها.

يرى بيير آثار اسنانه على طرف شفتيها. يداعب خديها ويقبلها مرة أخرى بهدوء.

ميجله هل تشعرين باستياء؟ لا، لا أشعر. متى، متى، متى سنختلي لوحدنا؟ يتعذر عليه فهمها. وكأن استفسار ميجله يخص شيئا آخر. لم تبرحه فكرة دخولها بيته يومًا ما، لتصعد الطوابق الخمس وتدخل إلى غرفته، لكنه لم يكن يعلم أن الأمر سينجلي بغتة، لأن والدي ميجله سيذهبان لمدة خمسة عشر يومًا إلى الريف، ليذهبا فهذا أفضل لأن ميجله ستكون ذلك الحين.... نظر إليها في حين ميجله ابتسمت.

-هل ستمكثين بمفردك في البيت لمدة خمسة عشر يومًا؟

- يا لك من أحمق – تجيبه ميجله. ترفع أصبعها وترسم نجوما لا مرئية وأشكالا معينة، كدوامات خفيفة، أما والدتها فهي تريد أن يرافقها صديقها الوفي بابيت طوال هذين الأسبوعين، لقد وقعت حوادث سرقة وسطو في الضواحي. ثم أن بابيت سيمكث في باريس قدر ما يشاؤن٠

لا يعرف بيير الدار بالرغم من أنه تصورها مرات عديدة، ولطالما هيأ له أنه سيدخلها برفقة ميجله إلى صالون صغير مجهز بأثاث قديم ثم يصعد سلما وبعدها سيمسك بأصابعه بكرة زجاجية عند بداية السلم. لا يدري لم لا يعجبه البيت اعترته رغبة في الخروج إلى الحديقة بالرغْم أنه لم يكن يصدق بأن دارًا صغيرة قد تشمل على حديقة. حاول أن يحرر نفسه من خياله ليكتشف بأنه سعيد، وأنه في المقهى برفقة ميجله، ولربما سيكون البيت مختلفًا عن الذي تخيله، بأثاثه وسجاد محيت ألوانه.

(يجب أن اطلب الدراجة النارية من خابير) قال بيير-ثم آتي لأنتظر ميجله وخلال نصف ساعة سنكون في (كلامارت)، لنستمتع بعطلة نهاية أسبوعين وسنقوم برحلات، يجب عليه أن يحصل على ترمس ويشتري قهوة٠

-هل توجد كرة زجاجية على سلم بيتك؟

-لا تجيب ميجله -أنت مخطئ في ..... يلتزم الصمت كمن يضايقه شيء في حنجرته، فيغرق في مقعده. وقد أسند رأسه إلى مرآة عالية يحاول بها ادموند صاحب المقهى أن يضاعف عدد الطاولات. يتعجب بيير من ميجله ساهما فهي تبدو له قطة أو صورة مجهولة. لقد تعرف عليها منذ فترة وجيزة، لربما هي أيضا يصعب عليها أن تفهمه٠ ليس للحب تأويل ٠ كذلك هو لا يعني أن يكون لك أصدقاء مشتركون أو أن تشارك بأفكارك السياسية، فهو يبتدئ دوما وكأن الأشياء واضحة، فيسهل عليك تكديس الملاحظات. ميجله دى فرنسيس. في الرابعة والعشرين من العمر شعرها كستنائي، عيناها رماديتان تعمل موظفة في

مكتب. وهي كذلك تعرف أن بيير خوليت، في الثالثة والعشرين من العمر أشقر الشعر بيد أنه سيرافقها صباحًا إلى بيتها، وخلال نصف ساعة من السفر سيكونان في انجين (لنذهب إلى انجين) يفكر بيير، رافضًا الاسم وكأنه ذبابة. سيمكثان خمسة عشر يومًا سوية، توجد حديقة في البيت. تختلف عما تخيلها، سيسأل ميجله عن شكل الحديقة، لكن ميجله الآن تنادى على ادموند لقد تجاوزت الساعة الحادية عشر والنصف، سيتذمر المدير لو رآها تصل متأخرة.

أمكثي قليلًا-قال لها بيير -سيأتي رولاند وبابيت، أنه أمر لا يصدق ألا نملك فرصة لبقائنا لمفردنا في هذا المقهى.

-بمفردنا؟ -تجيب ميجله -ولكننا أتينا لنلتقي بهما.

-نعم أعلم ذلك، لكن الأمر سيان.

تحني ميجله كتفيها. فيفهم بيير ما تضمره ويتأسف في قرارة نفسه على اصدقائه الملتزمين بمواعيدهم٠ يأتي رولاند وبابيت بمظهرهما المعتاد ليزفا له أخبارا سعيدة تثير قلقه أكثر هذه المرة. أنهما على الجانب الآخر، غير مبالين بالزمن، غضبهما ونفورهما ينبثقان من العالم والسياسة والفن، وليس من حياتهما الشخصية، أو من علاقة وطيدة. لأنهما متحرران من التقاليد والسلوك الآلي.

بدت له الأشياء ملساء مسطحة متحفظة متعددة. كانوا كخنازير صغيرة فرحة، وفتيان بائسين لكنهم أصدقاء أوفياء. كاد ألا يصافح رولاند فسحب يده، ثم أبتلع ريقه، ثم رمقه بناظريه، فضغط على أصابعه حتى كاد يكسرها ضحك رولاند وجلس بمواجهته، ليقص لهما أخبار نادي السينما، قد يذهبون سويا

كيلا يفوتهم يوم الإثنين –خنازير فرحة-قال ببير. أنه فيلم تافه لكنه لبودكين لكنهم سيذهبون ليبحثوا عن شيء جديد.

-عن شيء جديد -قال بابيت باستهزاء -فالجديد هو إنك اكتهلت يابيير.

لا يوجد سبب يمنعه من أن يمد يده لرولان.

- لقد أرتدى بلوزة برتقالية اللون تناسبه تمامًا -قالت ميجله، يقدم رولاند سيجارة غاليوس ويطلب قهوة.

-نعم أنها فتاة ذكية -يقول بابيت.

يرمق رولاند بابيت بطرف عينيه بهدوء من دون مشاكل، تمامًا بلا مشاكل، كخنزير هادئ. أشمئز بيير من هذا الهدوء، فميجله باستطاعتها أن تتحدث عن البلوزة البرتقالية اللون، في حين هي بعيدة عنه كالمعتاد، هي لا تنسجم معهم لأنها انضمت مؤخرًا إلى المجموعة ونادرًا ما تتسامح معهم.

بينما هو يتحدث (ويتحدث الآن عن زوج حذاء) تلمس أطراف شفتيها بأصابعها لقد سبب له أذى، فهو لا يقوى حتى على تقبيلها وميجله تتذكر ذلك. فالناس جميعهم يسببون له الأذى، ينظرون إليه بطرف عيونهم ثم يضحكون له ويحبونه كثيرا. شعر بحاجة لأن ينفرد بغرفته كأن ثقلا أبهظ صدره، متسائلا في سره لماذا لم تأت ميجله؟ ولماذا أخذ رولاند وبابيت الأسطوانة دون أن يخبروه. وثبت ميجله من مكانها وهي تنظر إلى ساعتها، بعد أن حددوا موعد نادي السينما، ودفع بيير ثمن القهوة، شعر بارتياح فرغب بالتحدث مع رونالد وبابيت، بعدها ودعهما بحرارة. كانوا كخنازير جيدة وأصدقاء مخلصين

لميجله، أخذوا يبتعدون عن نظر رولاند فخرج إلى الشارع ليحتسي قهوته تحت الشمس.

-أنا أتساءل -يقول رولاند

-أنا أيضا، يقول بابيت.

-لم لا، فنهاية الآمر؟

- لم لا فالأمر واضح، وهذا يحدث من أول مرة

- لقد حان الوقت لتكون ميجله جزءًا من حياته-يقول رولاند - وإذا رغبت أن تعرف رأى فهي هانمه بحبه.

- هما عاشقان.

بينما يطرق رولاند مفكرًا.

لقد تواعد مع خابيير في ساحة سان ميغل، لكنه وصلها مبكرا طلب كأس بيرة وأخذ يتصفح صحيفة يومية. لم يعد يتذكر ما فعله عندما أنفصل عن ميجله عند باب المكتب أما هي أصبحت في الأشهر الأخيرة غامضة كالغد الذي لم يأت بعد، أنه مزيج من ذكريات زائفة وأخطاء. طوال حياته التي عاشها، لم يربكه شيء كما علاقته مع ميجله، من أجل أن ينتظرها وينبهها أنه لا يكتفي بهذا القدر، فالأشياء بدت له غريبة حد الذهول، لأنه لا يعرف شيئا عن ميجله على الإطلاق.

(عيناها رماديتان، عدد أصابعها خمسة، عازبة، تسرح شعرها كأية فتاة). وأي شخص لا يعرف شيئا عن ميجله يكفيه أن يتحاشى النظر إليها للحظة كي تصبح الثغرة بينهما مثل غابة كثيفة مريرة، تخشاك وتنفر منك لقد رفضتك حينما قبلتها

بحرارة، فهي تأبى أن تضاجعك، لأنها تخشى شيئا ما لقد رفضتك بفظاظة في ذلك الصباح (كانت في غاية الجمال. لكنها التصقت بك ساعة الوداع، في حين هيأت كل شيء لترافقك صباحًا وتذهبا سويا إلى بيتها في انجين)، بعد أن تركت آثار اسنانك على شفتيها، لأنك عضضتها لحظة تقبيلها فتذمرت، ولمست شفتيها بأصابعها واشتكت دون تبرم مندهشة قليلًا في حين أنت تدندن في سرك لحن لشومان (تتفتح البراعم)

يرمق رولاند بابيت بطرف عينيه بهدوء من دون مشاكل، تمامًا بلا مشاكل، كخنزير هادئ. أشمئز بيير من هذا الهدوء، فميجله باستطاعتها أن تتحدث عن البلوزة البرتقالية اللون، في حين هي بعيدة عنه كالمعتاد، هي لا تنسجم معهم لأنها انضمت مؤخرًا إلى المجموعة ونادرًا ما تتسامح معهم.

بينما هو يتحدث (ويتحدث الآن عن زوج حذاء) تلمس أطراف شفتيها بأصابعها لقد سبب له أذى، فهو لا يقوى حتى على تقبيلها وميجله تتذكر ذلك . فالناس جميعهم يسببون له الأذى، ينظرون إليه بطرف عيونهم ثم يضحكون له ويحبونه كثيرا. شعر بحاجة لأن ينفرد بغرفته كأن ثقلا أبهظ صدره، متسائلا في سره لماذا لم تأت ميجله؟ ولماذا أخذ رولاند وبابيت الأسطوانة دون أن يخبروه. وثبت ميجله من مكانها وهي تنظر إلى ساعتها، بعد أن حددوا موعد نادي السينما، ودفع بيير ثمن القهوة، شعر بارتياح فرغب بالتحدث مع رونالد وبابيت، بعدها ودعهما بحرارة. كانوا كخنازير جيدة وأصدقاء مخلصين لميجله، أخذوا يبتعدون عن نظر رولاند فخرج إلى الشارع ليحتسي قهوته تحت الشمس.

-أنا أتساءل -يقول رولاند

-أنا أيضا، يقول بابيت.

-لم لا، فنهاية الآمر؟

- لم لا فالأمر واضح، وهذا يحدث من أول مرة

- لقد حان الوقت لتكون ميجله جزءًا من حياته-يقول رولاند - وإذا رغبت أن تعرف رأى فهي هانمه بحبه.

- هما عاشقان.

بينما يطرق رولاند مفكرًا.

لقد تواعد مع خابيير في ساحة سان ميغل، لكنه وصلها مبكرا طلب كأس بيرة وأخذ يتصفح صحيفة يومية. لم يعد يتذكر ما فعله عندما أنفصل عن ميجله عند باب المكتب أما هي أصبحت في الأشهر الأخيرة غامضة كالغد الذي لم يأت بعد، أنه مزيج من ذكريات زائفة وأخطاء. طوال حياته التي عاشها، لم يربكه شيء كما علاقته مع ميجله، من أجل أن ينتظرها وينبهها أنه لا يكتفي بهذا القدر، فالأشياء بدت له غريبة حد الذهول، لأنه لا يعرف شيئا عن ميجله على الإطلاق.

(عيناها رماديتان، عدد أصابعها خمسة، عازبة، تسرح شعرها كأية فتاة). وأي شخص لا يعرف شيئا عن ميجله يكفيه أن يتحاشى النظر إليها للحظة كي تصبح الثغرة بينهما مثل غابة كثيفة مريرة، تخشاك وتنفر منك لقد رفضتك حينما قبلتها بحرارة، فهي تأبى أن تضاجعك، لأنها تخشى شيئا ما لقد رفضتك بفظاظة في ذلك الصباح (كانت في غاية الجمال. لكنها

التصقت بك ساعة الوداع، في حين هيأت كل شيء لترافقك صباحًا وتذهبا سويا إلى بيتها في انجين)، بعد أن تركت آثار اسنانك على شفتيها، لأنك عضضتها لحظة تقبيلها فتذمرت، ولمست شفتيها بأصابعها واشتكت دون تبرم مندهشة قليلًا في حين أنت تدندن في سرك لحن لشومان (تتفتح البراعم)

- حدث لي هذا وتحديدًا بالأمس...

يسمع كلامًا فيرى خابيير الذي أمامه، ويرى خيال خابير في المرآة، قفا رقبة خابيير، ثم يجد نفسه يتحدث مع خابيير (لكن لا توجد كرة زجاجية مثبتة في بداية السلم) فيحرك خابيير رأسه من حين لآخر، حركته التقليدية الهزلية عندما يكون خارج المصح وليس كطبيب يرتدي زيه الأبيض الذي يمنحه سلطة أخرى.

- انجين -يقول خابيير -لا تقلق بشأن ذلك غالبا ما أخطأ بين لربما يعود السبب إلى ذكرى ملحة تراودني منذ مرحلة الطفولة البعيدة.

(في شهر نيسان الجميل عندما...) أخذت ترددها ذاكرة بيير.

- إذا لم تنم جيدا فأخبرني لأعطيك شيئا، قال خابيير – على أية حال، أنا متأكد أن خمسة عشر يومًا في الجنة كافية، لا يوجد شيء أمتع من مشاركة في الوسادة، لأنها تجلي الأفكار، بل تقضي عليها أحيانا، وهذا يبعث في النفس الراحة.

تمنى لو أنه عمل أكثر، أو أجهد نفسه أكثر أو صبغ بيته أو سار حتى الكلية بدل أن يصعد الحافلة، لو أنه تمكن أن يربح الألف فرنك الذي يبعثه له والديه. أستند إلى سور جسر نوف ينظر

إلى البواخر ويتحسس شمس الصيف على رقبته وكتفيه. مرت به مجموعة فتيات يضحكن ويتمازحن، في حين قام راكب دراجة أحمر الشعر يطلق صفيرًا، متصنعًا خبب الجواد كلما مر بالفتيات، اللواتي يضحكن بشدة أكثر وكأن الأوراق اليابسة هبت لتلتهم وجهه بقضمه واحدة سوداء مريعة.

نهض ببير متمهلًا يفرك عينيه. ما رآه لم يكن كلمات ولا رؤيا بل: شيء توسطهما، خيال مركب بشكل كلمات كثيرة كأوراق يابسة على الأرض -هبت لتلفح وجهه -رأى يده اليمنى ترتعش وهي تمسك بالسور، فضغط على راحة يده بقوة ليسيطر على رعشتها. لقد أبتعد خابيير ولن يجدي أن يركض في أثره، لأنه سيبدو كالذي يجعل من نموذج مخبول أضحوكة (أوراق يابسة) يقول خابيير :(ولكن لا توجد أوراق يابسة على جسر نوف) وكأنه لا يدري بأن جسر نوف خال من الأوراق اليابسة. لأن الأوراق اليابسة موجودة في انجي.

سأفكر بك الآن يا حبيبتي، بك وحدك طوال الليل، سأفكر بك وحدك، لأنها الطريقة الوحيدة التي تجعلني أشعر بنفسي، لأحتويك في داخلي كشجرة، وأتخلص قليلًا من الجسد الذي يحتويني ويرشدني. أحوم حولك حذرا وأزفر الهواء مع كل ورقة (خضراء، خضراء أنا وأنت، كغصن من نبات الميرمية. أوراقه خضر... خضر... خضر) دون أن أبتعد عنك أو أترك الأخر يتدخل بيني وبينك أو يمنعني عنك، يمنعني أن أعرف بأن هذه الليلة ستتحول فجرا، وهنالك في الجانب الآخر حيث تعيشين وترقدين، سيخيم الليل مجددًا عندما نصل إلى بيتك معا وندخله ثم نصعد درجات السلم في باحة بيتك، ونضيء الأنوار، نداعب كلبك، ونشرب القهوة، نطيل النظر لبعضنا قبل أن

أحتضنك واحتويك في داخلي كشجرة، أحملك حتى السلم لكن لا توجد كرة زجاجية. بدأنا نصعد ثم نصعد. كان الباب موصدًا، لكنني احتفظت بالمفتاح في جيبي.

يثب بيير من سريره، ليضع رأسه تحت حنفية ماء المغسلة، أفكر بك وحدك، لكن هل ما أفكر به مجرد رغبة غامضة صماء لأن ميجله ليست كما هي الآن – أحتويك في داخلي كشجرة -ولم يعد يشعر بها بين ذراعيه وهو يصعد السلم، وما كاد يطأ الدرجة الأولى رأى كرة الزجاج بمفردها، صعد السلم بمفرده حيث تنتظره ميجله، منطوية على نفسها خلف الباب لأنها لا تدري بأن لديه مفتاحًا آخر في جيبه وهو يصعد إليها.

ينشف وجهه ويفتح الشباك على مصراعيه ليستقبل رطوبة الفجر يصدح رجل ثمل في الشارع بموال مضجر، وهو يتأرجح كمن يطفو فوق مياه لزجة يدندن وهو يخطو مترنحًا ليرقص رقصة احتفال قديمة كصدأ بعض أحجار الرصيف في حين كانت الأبواب موصده.

ترتسم كلمات (تتفتح البراعم) على شفتي بيير الجافة لتندمج بالدندنة المنبعثة من الأسفل دون أن يكون لها أية علاقة باللحن الحزين. كذلك الكلمات لا علاقة لها بشيء، تأتي كما بقية الأشياء، لتلتصق بالحياة وبعد ذلك تتولد منها أصداء أشواق، كثغرات بركانية تبتدئ مزقا وتتعلق بأي شيء، ببندقية مزدوجة الفوهة، فراش من أوراق يابسة، والثمل الذي يرقص على إيقاع موسيقى البافانا، ملوحًا بإشارات تتناثر كخرق بالية وكلمات بليدة متعثرة.

أخذ هدير الدراجة النارية يدوي على طول شارع دألسيا، شعر بيير بأصابع ميجله تضغط على خصره بقوة وهما متعانقان في الحافلة أو يسيران بمحاذاة أحد الأركان وكلما توقفا عند الضوء الأحمر يرمي بشعره إلى الوراء منتظرا مداعبة أو قبلة على شعره.

- لم أعد اشعر بالخوف الآن -تقول ميجله -فقيادتك للدراجة أصبحت جيدة يجدر بك أن تتخذ الجانب الأيمن.

ضاع بيتهم بين مئات البيوت الظاهرة في مجمع كلامارت البعيد. كان وقع كلمة بيت على بيير ملاذًا وطمأنينة لأن كل شيء سيبدو هادئًا منعزلًا، كما ستوجد مقاعد من الخيزران، وحشرة سراج الليل ليلا.

-هل توجد حشرة سراج الليل في حديقتك ليلا؟

-لا أظن -تقول ميجله -أن أفكارك سخيفة.

يصعب التحاور عند امتطاء الدراجة النارية، فحركة السير تتطلب التركيز وبيير متعبًا لأنه لم ينم إلا بضع ساعات في الصباح. تذكر الوعود التي أعطاها لخابيير، لكنه لم يتذكر تنفيذها وكذلك لن يحتاج إليها. رمى برأسه إلى الوراء ونظر لميجله لأنها تأخرت في تقبيله أو مداعبة شعره بيدها. الضوء الأخضر. (دعك من الحماقة) قال له خابيير ساهما. لكن ما الذي سيحدث لو تناولت قرصين قبل النوم وجرعة ماء. كيف تنام ميجله؟

- ميجله كيف تنامين؟

-بهدوء -تجيب ميجله -أحيانا تثقلني الكوابيس كبقية الناس.

وهذا أمر طبيعي كبقية الناس وعندما تنهض تعلم أنه حلم، دون أن تمزج الحلم بغباء الشارع ووجوه الأصدقاء، وذلك الشيء الذي يتغلغل بمشاعر غاية في البراءة -لكن خابير قال بأن بعد تناول قرصين سيكون كل شيء على ما يرام-تنام وجهها غائر في الوسادة وساقاها منكمشتان قليلًا، تتنفس بتؤدة سأرى كيف تنام الآن، سيضمها إليه وهي نائمة، ويسمع زفيرها، عارية عاجزة، فيرفع شعرها بيده، أنه الضوء الأصفر ثم الضوء الأحمر، توقف. يتوقف فجأة فتصرخ ميجله فجأة ثم تهدأ كما لو أنها خجلت من صراخها. يضع بيير قدمه على الأرض ويلوي رأسه إلى الوراء ليضحك على شيء لكن ليس على ميجله، يبقى ساهما مبتسمًا دوما. يعلم أنه الضوء الأخضر، توقفت خلف الدراجة النارية شاحنة وحافلة وشيء آخر فانطلقت أصوات المزامير، مرتين وثلاث.

-ما الذي جرى لك؟ -تقول ميجله٠

يشتم سائق الحافلة بيير عندما يمر به في حين يقلع متمهلًا، وصل إلى حيث سيراها كما هي، وحيدة وعارية، لقد وصلنا إلى هنا، تمامًا إلى اللحظة التي سيراها تنام فيها وحيدة وعارية، ليس هنالك سبب لنفترض ولو للحظة ما هو ضرورة... نعم، لقد سمعت، أولا أنعطف إلى اليسار وبعدها أنعطف مرة أخرى إلى جهة اليسار.

أهو ذلك السقف من القرميد؟ توجد فيه شجرة صنوبر، أنه جميل، بيتك جميل وفي حديقته أشجار صنوبر، وذهب والداك إلى المزرعة أكاد لا أصدق ياميجله، شيئا كهذا لا يصدق. أستقبلهم بوبي بعواء صاخب ثم راح يشم بدقة بنطلون بيير

الذي دفع الدراجة النارية حتى المدخل. دخلت ميجله البيت وفتحت الستائر، ثم عادت لتستقبل بيير الذي كان ينظر إلى الجدران لأن ما من شيء من هذا القبيل طرأ على مخيلته.

-هنا، ينبغي أن توجد ثلاث درجات -قال بيير -وهذه هي الصالة ... لا تهتمي بي، فكل شخص يتصور أشياء أخرى عن الأثاث وبقية التفاصيل، ألم يحدث لك هذا؟

-أحيانا -قالت ميجله -بيير أشعر بالجوع، أصغ الي يا بيير، كن طيبا وساعدني يجب أن أطهي شيئا.

-حبيبتي – يقول بيير

- أفتح تلك النافذة ليدخل نور الشمس حافظ على هدوئك لأن بوبي سيظن...

- ميجله -يقول بيير.

- لا، أتركني لأصعد وأبدل ملابسي، أفتح الكيس إذا شئت ستجد في هذا الصوان المشروبات أذ لا علم لي بها.

رآها وهي تصعد السلم ثم تتوارى في الممر كانت الصالة واسعة كئيبة في حين راحت يد بيير تلمس السلالم، ما قالته له ميجله كان أشبه بخيبة أمل بائسة، أذن لا توجد كرة زجاجية، تعود ميجله وهي ترتدي سروالًا قديمًا وبلوزة.

- يبدو شكلك مثل الفطر -يقول بيير بحنان كل رجل صوب امرأة ترتدي ملابس فضفاضة -هل ستصاحبينني لألقي نظرة على البيت؟

-نعم إذا شئت ذلك -تقول ميجله-ألا توجد مشروبات؟ أنظر، أنت لا تجدي لأي عمل. يحملان الأقداح ويذهبان إلى الصالة ليجلسا على الأريكة بمواجهة نافذة مفتوحة، يعوي بوبي ثم يرتمي على السجادة ويحدق بها.

-لقد أعتاد عليك فورًا-قالت ميجله-وهي تلحس حافة كأسها – هل أعجبك بيتي؟

- لا -أجابها بيير -أنه كئيب وبرجوازي حتى الموت مليء بأثاث مقيت، ولكن أهذه أنت بهذا البنطلون المتهرئ؟

يداعب حنجرتها فتقف بمواجهته فيطبع على ثغرها قبلة. يقبلان بعضهما من الفم فترتسم على بيير حرارة يد ميجلة٠ يقبلان بعضهما من فمهما وينزلقان قليلًا وتصدر ميجله أنينا وتجاهد لتحرر نفسها ثم تدمدم شيئا لا يفهمه هو. فكر ساهما في صعوبة تغطية فمها، بعدها سمع عواء بوبي الخافت مرتميا على السجادة. لأنه لا يريد أن يغمى عليها، تركها على مضض ونظر إلى يديها وكأنهما لا ينتميان إلى جسده

-ستجعلينني أصاب بالجنون -قال بيير

كانت سخرية الجملة اقل ألما من الذي حدث٠وأستجابة لرغبة جامحة، يغطي فمها عسى ألا يغمي عليها. يبسط ذراعه ويداعب وجنات ميجله دون أن يقترب منها، أنهما متفقان على جميع الأشياء، كأكل طعام غير مألوف، واختيارها النبيذ أو الإحساس بارتفاع درجة الحرارة قرب النافذة٠ أخذت ميجله تأكل على طريقتها الخاصة، فتخلط الجبن مع السمك بالزيت، والسلطة مع قطع من جراد البحر. بينما يحتسي بيير النبيذ الأبيض ويرمقها مبتسمًا، ينظر إليها ويبتسم لها. لو تزوجها

فسيشرب طيلة أيام الأسبوع من هذا النبيذ الأبيض وسيراها ويبتسم لها.

- أنه أمر يبعث على الفضول -قال بيير -لأننا لم نتطرق في حديثنا إلى سنوات الحرب ٠

-يستحسن بنا أن نهمل هذا الموضوع... -أجابت ميجله وهي تلحس الصحن

- أعلم ذلك، لكن الذكريات تعاودني. لم تكن تلك الفترة شديدة التعاسة بالنسبة لي، على أية حال كنا أطفالا حينذاك كأنها عطلة بلا نهاية، طويلة ومسلية تقريبا٠

- لم تكن عطلة بالنسبة لي-قالت ميجلة -كان المطر يهطل طيلة الوقت.

- هل كانت تمطر؟

- هنا -قالت وهي تتلمس جبينها -أمام عيني وخلفهما، ترطبت الأشياء، كل الأشياء بدت متعرقه رطبة.

-هل كنت تعيشين في هذا البيت؟

-نعم في بادئ الأمر. وبعد الاحتلال حملوني إلى بيت أحد الأعمام في انجين.

لم ير بيير وهج نار الولاعة بين أصابعه، فيفتح ثغره ثم يهز يده لاعنا. تضحك ميجلة بسعادة، لأنها تمكنت أن تغيير الموضوع. وعندما نهضت لتجلب الفاكهة أشعل بيير سيجارة وأبتلع دخانها فكاد يختنق، لكنه تجاوز ذلك. لكل أمر تفسير لو بحثت عنه، وكم من مرة ذكرت ميجله انجين أثناء حديثهم في المقهى، تلك

الجمل التي تبدو غير مجدية ومنسية، حتى تصبح فيما بعد الموضوع الرئيس لحلم أو خيال. خوخ (سألته)، نعم، لكن أنزعي قشرتها، فعلقت على طلبه لكن النساء دوما يقشرن له الخوخ وليس هنالك سبب ليستثني ميجله.

- أن قشرت لك النساء الخوخ مثلي فهن غبيات٠ يستحسن أن تطحن القهوة.

- أذن كنت تعيشين في انجين-قال بيير، محدقًا صوب يدي ميجله وهو مشمئز كلما نظر إليها وهي تنزع عن الفاكهة قشورها -هل كان والدك يزاول عملا؟

- لم يكن يفعل شيئا مهمًا٠ كنا نعيش ونحن ننتظر أن تنتهي الحرب.

-ألم يسبب الألمان لكم المشاكلات؟

-لا -قالت ميجله وهي تلعب بالخوخة بأصابعها الندية.

-أنها المرة الأولى تذكرين فيها أنكم كنتم تعيشون في انجين.

-لا أحب الحديث عن تلك الفترة-قالت ميجله٠

-ولكنك تحدثت عنها ذات مرة-قال بيير وقد ناقض كلامها-لا أدرى متى، لكنني أعلم أنكم كنتم تعيشون في انجين.

سقطت الثمرة في الصحن فالتصقت القشور بالثمرة نظفت ميجله الخوخة بالسكين فاشمأز بيير مجددًا، وأخذ يسحن بطاحونه القهوة بأقصى جهده.

لم لا تقول له شيئا؟ بدأت معاناته من جرّاءِ تنظيف الخوخة بسبب تساقط عصيرها، لم لا تتكلم؟ أنها مشحونة بالكلمات. وهو لم ير إلا حركة يديها وطرف جفنيها العابسين وهما يرمشان بحدة، كلما أرتسم على تقاطيع وجهها تعبير ما سرعان ما تعود إلى حالتها، لقد لاحظ رمش عينيها وهما في أحد مصارف لكسمبورغ، لاحظ أنها ترمش كثيرًا(تيك) حينما تكون في حالة من الضيق أو الصمت. حضرت ميجلة القهوة وقد استدارت بظهرها إلى بيير، الذي كان يوقد سيجارة بعد الأخرى، عادا إلى الصالة يحملان أقداح من البورسلين مزينة برسوم زرقاء، انعشتهما رائحة القهوة، فنظرا مندهشين إلى تلك الهدنة بينهما وإلى ما سبقها، تبادلا كلمات مشتتة، وهما ينظران لبعضهما ويبتسمان، يحتسيان القهوة وهما ساهمان، ويدخنان السجائر التي تربطهما إلى الأبد. فتحت ميجله الستائر، فدخل من الحديقة وميض ضياء أخضر دافئ خيم عليهما كدخان السجائر والكونياك الذي يرشفه بيير متمهلا٠ رقد بوبي فوق السجادة، وهو يتمطى ويتنفس.

- أنه يحلم طيلة الوقت-قالت ميجله -يبكي أحيانا فينهض بغتة ثم يوجه بصره نحونا وكأنه يعاني من ألم حاد. أنه جرو صغير.

وجوده هنا يبعث المتعة في نفسه فيختلج صدره بمشاعر جميلة في هذه اللحظة، يغمض عينيه. ويتنفس مثل بوبي، يمسح شعره بيده، مرة تلو الأخرى، حتى أنه شعر أن اليد التي تمسح شعره ليست يده، ولما يمس حنجرته تنتابه نوبة ضحكه فتغمره الراحة وعندما يفتح عينيه يجد ميجله قد فغرت فاهها، وأرتسم على وجهها تعبير جمد حركة الدم في شرايينها. نظر إليها دون أن يفهم ما حدث لها، تدحرج كأس الكونياك على السجادة. وقف

بيير أمام المرآة فأرتاح لشكل تصفيف شعره إلى الجانب كأبطال السينما الصامتة. لماذا تبكي ميجلة؟ أنها لا تبكي، لكن عندما يتكئ الوجه على اليدين هذا يعني أن ذلك الشخص يبكي. يفترقان عن بعضهما على مضض بعد أن يطبع قبلة على رقبتها، ليبحث عن ثغرها. تنطلق منهما كلمات مثل رقصة يستثويثلا، تنشد لقاء بينهما تؤخره المداعبات، وعبق وقت الغروب. وبيت منعزل، وانتظار على سلم عند بدايته توجد كرة زجاجية.
ود بيير أن يحمل ميجله، يصعد السلم والمفتاح في جيبه، دخل غرفة النوم فشعر بها يتثاءب، أخذت تبحث عن شريط تسجيل متعثرة، وعن بضعة أزرار، لكن لا توجد كرة زجاجية عند بداية السلم، بدت الأشياء بعيدة عنه ومخيفة. فميجله إلى جانبه بالرغْم أنها بدت بعيدة عنه تبكي، وقد وضعت وجهها الباكي بين أصابعه الندية، في حين جسدها تعلو أنفاسه خوفا ويرفضه.

يجثو ليسند رأسه بين أحضان ميجله. تمضي ساعات، تمضي دقيقة أو دقيقتان، فالزمن مثل ضرب السياط أو شيء مليء باللعاب. تداعب أصابع ميجله شعر بيير فينظر مرة أخرى إلى وجهها الذي أطل عليه بابتسامة، تسرح ميجله شعره إلى الوراء، فيلعنها لأنها فعلت ذلك ثم ينحني عليها ويقبلها فتبتسم له.

- لقد أفزعتني، لما ظهرت لي في تلك اللحظة... كم أنا غبية فأنت مختلف جدا.

-كيف تخيلتني؟

-لا شيء-تجيبه ميجله

ينحني بيير منتظرا، سيحدث شيء الآن، كباب يهتز ثم ينفتح. تلتقط ميجله أنفاسها بتثاقل كسباح ينتظر ساعة انطلاق الصافرة.

- أنك تفزعني لأن... لا أدرى جعلتني أفكر في... بدأت تهتز والباب يهتز، كسباح ينتظر لحظة الانطلاق ليغطس، في حين الوقت يتمطى كقطعة من مطاط، بسط بيير ساعده وأمسك بميجله ثم أندفع نحوها وقبلها ثم بحث عن صدرها من تحت ردائها سمعها تقاوم وهي تتأوه أيضا عندما قبلها، أنظروا... أنظروا الآن، حاول أن يحملها (توجد خمس عشرة درجة وباب على جهة اليمين) سمعها تتذمر، لكن احتجاجها غير مجد ثم توقف ليحتضنها بين ذراعيه. لم يعد يقوى على الانتظار، ما الذي سيجديه في هذه اللحظة، لو أنه تعلق بالكرة الزجاجية عند بداية السلم (لكن لا توجد كرة زجاجية عند بداية السلم) وأن صعد فوق سيتطلب ذلك أن يحملها كالكلب، سيستجمع كل قوة عضلاته، وهي مثل كلبة، آه يا ميجله، آه يا حبيبتي، لا تبكي هكذا، لا تحزني يا حبيبتي، لا تجعليني أسقط ثانية في هذا البئر السوداء، لو أنني لم أفكر بهذه الطريقة، لا تبكي يا مجيله.

- أتركني -تجيبه ميجله بصوت منخفض، وتحاول أن تتخلص منه ولما رفضته حدقة به لحظة وكأنه ليس هو ثم ركضت خارج الصالة أغلقت باب المطبخ وقفلته بالمفتاح، نبح بوبي في الحديقة. عكست المرآة وجه بيير، كان أملس بلا تعابير، وبدت ساعداه كالأسمال، وتدلت حاشية قميصه من بناطله. رتب ملابسه بصورة آلية محدقًا في صورته المنعكسة في المرآة. التهبت حنجرته فالكونياك يحرق الفم ومذاقه حارق، لكنه أجبر نفسه على شرب القنينة متناولًا جرعات كبيرة. كف بوبي عن

النباح، ساد صمت الغروب. وأخضر الضياء الذي ينور الدار. خرج إلى الباحة والسيجارة بين شفتيه الجافتين، ذهب إلى الحديقة مر من جانب الدراجة النارية ثم سار بعيدًا. فاح عبق كأزيز النحل وفراش من أشواك الصنوبر في حين بوبي ينبح بين الأشجار ينبح عليهما وبغته أخذ يزمجر وينبح دون أن يدنو منه، أتجه بيير صوبه متمهلًا، رفسه على قوائمه الخلفية أختبأ بوبي بين الأشجار.

(يستحسن بي أن اختلي بنفسي في مكان ما) قال بيير في سره، (يجب أن أجد مكانا ما لأختبئ به في هذه اللحظة).

أسند كتفيه إلى جذع شجرة صنوبر وأخذ ينزلق رويدا. كانت ميجله تنظر إليه من نافذة المطبخ. هل رأتني عندما ضربت الكلب. أنها تتجاهلني لكنها تنظر إلي وهي تبكي، لا تقول شيئا تطل من النافذة وكأنها تشعر بالوحدة يجب أن أتودد إليها وأحسن سلوكي معها، أريد أن أكون طيبا معها، أود أن أطبع قبلة على يدها، على كل أصبع منها، وعلى جلدها الناعم.

-كنت ألعب معه ياميجله، ألا يبدو لك ذلك؟

-أتمنى بانك لم تصب لعناتك عليه.

-القمته حجرا لأفزعه، هو لا يعرفني مثلك أنت.

-لا تتفوه بحماقات

- وأنت لا تغلقي الباب بالمفتاح٠

تركته ميجله يدخل، وأباحت لذراعه أن تطوق خصرها دون مقاومة. كانت الصالة مظلمة، وبالكاد ترى بداية السلم.

- أصفحي عني -قال بير -لا أقوى أن أفسر لك الأمر لأنه في غاية الحساسية.

تلتقط ميجله الكأس الذي سقط ثم تغطي فوهة قنينة الكونياك. بدأت درجة الحرارة بالارتفاع، وكأنهما يتنفسان بصعوبة من افواههما داخل البيت. مسحت جبين بيير المتعرق بمنديل يعبق برائحة الطحالب. آه منك ياميجله، كيف سنواصل هكذا دون أن نتحادث، ودون أن تفهمي أن الذي يباعدنا عن بعضنا هو... نعم حبيبتي، سأجلس إلى جانبك دون حماقة، سأقبلك وأهيم بشعرك وحنجرتك، وستدركين بأنه لا يوجد سبب... نعم... ستدركين ذلك عندما أحتضنك وأحملك معي، أصعد إلى غرفتك دون أن اسبب لك ألما، مسندًا رأسك على كتفي....

-لا يابيير، لا، اليوم لا، رجاء.

-ميجله أرجوك.

-أرجوك

- لما ذا؟ أخبريني لماذا؟

-لا أدري يجب أن تعذرني... لا تلم نفسك، فالذنب يعود علي. لدينا متسعًا من الوقت، كثير من الوقت...

-لن ننتظر كثيرًا يا ميجله،

- الآن... لا يا بيير، اليوم لا...

-ميجله، ميجله...

-أرجوك.

-لماذا؟ اذكري لي السبب؟

-لا أعرف، أعذرني أنا لا ألومك لأن الذنب ذنبي، لكن لدينا متسع من الوقت. -لن ننتظر أكثر يا ميجله بل الآن-لا بيير، اليوم لا.

-لكنك قطعت لي عهدا-قال بيير بغباء -لقد جئنا بعد وقت طويل وانتظار كثير ولم تبدي تجاهي إلا القليل من الحب... لا أدرى بماذا أحدثك، تبدو الأشياء متسخة عندما أقول ...

-لو أنك اصفحت عني، أن...

- كيف أصفح عنك وأنت لم تتفوهي بكلمة؟ وأنا حديث العهد بمعرفتك؟ ما الذي أغفره لك؟

أخذ بوبي ينبح في الساحة. التصقت الثياب على جسديهما بسبب الحرارة، كما التصقت بهما دقات الساعة، فأمسى شعر ميجله نديا وهي مرتمية على الأريكة ترمق بيير.

-أنا أيضا ما زلت أجهل الكثير عنك لكن ليس الأمر... ستظن أنني مجنونة.

ينبح بوبي مجددًا. والتصقت ثيابهم على جسديهما من جرّاءِ حرارة الجو، ودقات الساعة تلح على مسمعيهما، تهدل شعرهما على جبينهما.

- منذ أعوام -قالت ميجله مطبقة عينيها-أنا أعيش في انجين، لقد حدثتك عن هذا، أظن أنني أخبرتك أننا نعيش في انجين. لا تنظر الي هكذا ...

-لم أنظر إليك-قال بيير.

-نعم، لأنك تسبب لي ألما.

وهذا أمر مرفوض، بل مستحيل أن يسبب انتظاره لكلماتها ألما، فينتظرها وهو ساكن ثم ينظر إليها تحرك شفتيها بصعوبة، سيحدث الآن شيء ما الآن، ستعقد يديها وتتضرع له فتورق زهرة من اللذة حينما تتوسل إليه، فتشهق وتبكي بين ذراعيه، ستورق زهرة ندية، هي متعة رؤيتها تبكي... يدخل بوبي متململًا ويتمدد في ركن من الغرفة.

- لا تنظر إلي هكذا -قالت ميجله، فأجابها بير (لم أنظر إليك) فأجابته بإيجاب. إذا كان النظر إليها بهذه الطريقة يؤلمها، لكنها لم تواصل حديثها مع ببير لأنه نهض ونظر صوب بوبي، ثم حدق في نفسه بالمرآة، مر بيديه على وجهه، بث نفسا عميقًا كأنه يشتكي، كان أقرب إلى الصفير وفجأة هوى على ركبتيه أمام الأريكة ودفن وجهه بين أصابعه، أرتجف لاهثًا، حاول انتزاع الصور التي تراوده مثل نسيج عنكبوت التصق بوجهه، أو أوراق يابسة التصقت بوجه مبلل.

- آه يا ببير -تقول ميجله بصوت رفيع.

تجري دموعها بين أصابعها فيصعب عليها كبحها. فيسود الغرفة جو كئيب، تنهمر دموعها بعناد دون توقف.

- ببير، ببير - قالت ميجله - ما السبب يا حبيبي، ما السبب؟

يداعب شعرها برقة ويمد لها منديلًا يعبق برائحة الطحالب.

-أنا مسكين شقي، أصفحي عني، أنا... لقد كنت...

يتعانقان، فتسقط من على طرف الأريكة لم يتنبه بأن مبجله انطوت على نفسها بقوة، فينظر إليها قبل أن يهم بالهروب مكررًا (أنا، لقد قلت لي...) لكنه يطبق على فمها بقوة، ما هذا الذي حدث؟ أخذ بوبي ينبح مجددًا. وقفت ميجله ثم تراجعت خطوة إلى الوراء دون أن تبدي التفاتة ثم نظرت إليه وتراجعت. ما هذا؟ لماذا يحدث هذا الآن، لم يحدث، لماذا؟ كلما أنغلق الباب تشعر أنها في متاهة، تبتسم فترى ابتسامتها في المرآة، تترنم بأغنية (تتفتح البراعم) بشفتين مطبقتين يسود صمت ويسمع صوت الهاتف بعد أن أستعمله شخص ما وصوت تزويل الأرقام، رقم، رقم آخر، الرقم الأول ثم الثاني يترنح بير ويفكر بضرورة اعتذاره من ميجله، لكنه الآن قد ركب دراجته النارية خارج الدار، ينبح بوبي في الباحة يرجع صدى دراجته النارية في البيت بقوة، يتخذ الشارع الأول، ثم يتجه إلى الأمام وبعدها يتخذ الشارع الثاني، وها هو تحت الشمس.

-كان الصوت نفسه يابيبت، فتنبهت في حينها بأن...

-هذا هراء -يجيب بابيت -لو كنت هنالك لسددت له لكمة

-لقد ذهب ببير -قالت ميجله.

-لقد فعل حسنا.

-أتمنى أن تأتي فورًا.

-لماذا؟ لقد ذهب، أنه أبله.

- لقد تلعثم يا بابيت، أقسم لك، لم يكن هذيانا، لقد ذكرت لك ذلك سابقا... كأنه مرة أخرى... تعال بسرعة، لا أستطيع أن

أوضح لك الأمر عبر الهاتف سمعت الآن هدير المحرك. لقد ذهب وهذا يحز في نفسي، لا أستطيع أن أفهم ما يدور حولي. أنه مسكين كان كالمجنون يا يابيت، وغريب الأطوار.

- ظننت أنه بريء من مرضه -قالت بابيت بصوت منخفض مختنق – لكن بيير ليس غبيا وسيدرك الأمر. أظن أنه أدركه منذ لحظات مضت.

-كدت أقول ذلك، تمنيت أن أفعل ذلك... بابيت، أقسم لك أنه تعثر في الكلام معي. وقبل ذلك...

-لقد ذكرت لي ذلك، أنت تبالغين، رولاند أيضا يسرح شعره أحيانا كما يطيب له، فلا تخطئي الفهم، عجبا!

- لقد ذهب الآن -كررت ميجله برتابة.

-سيعود -قال بابيت - حسنا جهزي طعامًا لذيذًا لرولاند الذي يزداد نهما للطعام كل يوم.

-أنها شتيمة بحقي -قال رولاند من الباب –ما الذي حدث لميجله.

-هيا بنا-قالت بابيت-لنذهب فورًا.

يمكن التعامل مع العالم كأسطوانة مطاطية تملا اليد، يمضي بصعوبة صوب اليمين، فيبدو جميع الأشجار كشجرة واحدة انبسطت على حافة الطريق ولم يبق أمامه شيء ليمضي صوب اليسار، فالعملاق الأخضر أنقسم إلى مئات من أشجار الحور تجري إلى الوراء، وتتقدم الأبراج ذوات الضغط العالي بإيقاعها المتتالي.

كانت المسيرة كسلسلة سعيدة تتخللها الكلمات. وكمزق من الخيال لم تأت من الطريق، تمضي الأسطوانة المطاطية يمينا، فيرتفع صوت حاد ورنين الصوت لا يطاق، لكنه عاجز عن التفكير فيتحول إلى آلة، جسد ملتصق بآلة ووجه تعصف به الريح كالنسيان، كأزهار غوبريل وآرياخون، وليناس مونتلري، يلتقي بأشجار الحور مرة أخرى، ثم يصادف مظلة شرطي المرور، فيشع ضياء ساطع وينعش الهواء ثغره المفتوح، يتمهل أكثر في مسيرة ويتجه يمينا عند المنعطف أصبحت باريس على مسافة ثمانية عشر كيلو مترا، لوح إعلان من «زيبزانو»، أصبحت باريس على مسافة سبعة عشر كيلومترا، (لن أقتل نفسي) فكر بيير وقد أتخذ جهة اليسار متمهلًا .

(أنه أمر لا يصدق لن أقتل نفسي). أنهكه التعب كمسافر يحمل زاده على ظهره، بالرغْم لذته والحاجة إليه. (أظن أنها ستصفح عني)، فكر بير (كلانا عنيدين)، يجب أن تفهم ألا أحد بمقدوره أن يعرف الحقيقة أن لم يعشق، أريد شعرها وجسدها بين يدي، أحبها، أحبها. امتدت الغابة على جانبي الطريق، فتناثرت الأوراق اليابسة التي تجلبها الريح، نظر بيير إلى الأوراق التي تلتهمها الدراجة النارية ثم تقذف بها، تمضي الأسطوانة المطاطية نحو اليمين بانحدار شديد. وبغتة تلمع الكرة الزجاجية عند بداية السلم، لم يضطر أن يترك الدراجة النارية بعيدًا عن الدار لكن بوبي سينبح فيستحسن أن يترك الدراجة النارية خلف الأشجار ويصل راجلًا عند آخر وميض ضياء، ثم يدخل الصالة ليبحث عن ميجله حيث تجلس، لكن ميجله لم تكن تجلس على الأريكة لا توجد سوى زجاجة الكونياك والكؤوس المستعملة، كان الباب المفضي إلى المطبخ مفتوحًا يدخل منها

ضياء أحمر غابت الشمس في قعر الحديقة فارتأى أن يذهب نحو السلم ليسترشد بالكرة الزجاجية اللامعة، أو لربما هما عينا بوبي الذي تمدد عند أول درجة بشعره المجعد، يزمجر قليلًا، لن يجد مشقة أن يعبر بوبي، ثم يصعد السلالم دون أن يحدث صوتا يفزع مبجله، كان الباب مفتوحًا، لكن من المستحيل أن يكون الباب مفتوحًا وهولا يملك مفتاحًا، لكن الباب مفتوح ولن يحتاج للمفتاح، غمرته نشوة وهو يمسح شعره بيده متجهًا صوب الباب، دخل متمهلًا مستندًا على قدمه اليمنى وما أن دفع الباب فانفتح دون ضجيج كانت ميجلة تجلس على حافة السرير فرفعت ناظريها إليه ورأته، فوضعت يديها على فمها، لأنها أوشكت أن تصرخ، لم تكن تسرح شعرها، ولا ترتدي القميص الأزرق. كانت ترتدي سروالا فبدت أكبر عمرا، لكن ميجله ابتسمت وتنهدت ثم نهضت وبسطت له ذراعيها وقالت:

«ببير، ببير» وبدلا من تشبك يديها وتتضرع له، أو تبدي له مقاومة ذكرت أسمه وكأنها تنتظره، نظرت إليه ترتجف من فرط سعادتها أو من حيائها، كأنها كلب بوليسي رآها مرة أخرى وكأن فراشا من الأوراق اليابسة يغطي وجهها فينتزعها بيديه في حين ميجله تتراجع فتعثرت بحافة السرير قفزت يائسة خلفها، نظرت خلفها يائسة، فصرخت، بأقصى متعتها لأن يأتي إليها ويطوقها، صرخت، هكذا وشعرها بين أصابعه، هكذا، وتوسلت إليه، وحينذاك بدت كالكلب، هكذا.

-يا إلهي، هذا الأمر أصبح في طي النسيان -قال رولاند

- ذلك ما ظننت منذ سبعة أعوام تقريبًا لكنه برز فجأة وفي هذه اللحظة بالتحديد...

أنت مخطئ-قال رولاند-لو طرأ على بالك فموعده هذه اللحظة لأنه يبدو منطقيًا ضمن ما هو محال، وأنا نفسي أحلم أحيانا بهذا، فالطريقة التي قتلنا بها الشخص لا تنس، على أية حال لن يستطيع أيا كان أن ينجز هذه الأشياء بشكل أفضل في هذا الزمان –قال رولاند بصوت مختنق.

-هي لا تعرف شيئا -قالت بابيت – كل ما تعرفه أنهم قتلوه بعد وقت قصير، ويستحسن أن يقال لها هذا.

-هذا صحيح، أما هو لم ير الأمر مناسبًا أتذكر وجهه عندما أخرجناه من السيارة إلى الغابة لقد تنبه فورًا بأن أجله قد أقترب لكنه كان شجاعًا، وهذا شيء أكيد.

- وأن يكون المرء شجاعًا هي حالة أصعب من أن يكون رجلا – قالت بابيت -فالإساءة لشخص... كلما فكرت بالجهد الذي بذلته كي نحافظ على ميجله. في تلك الليالي الأولى... لن أستغرب أن تنتابني أحاسيسي السابقة نفسها أنه أمر طبيعي. تتقدم السيارة بأقصى سرعتها في الشارع الذي يفضي إلى دارها.

- نعم، كان قذرا -قال رولان-وهما لوحدهما يدركان مغزى ذلك الحبل حينها طلب سيجارة وهذا أمر طبيعي.

كذلك أراد أن يعرف لم نريد قتله، وأن نشرح له، يا لفظاعة الأمر لو شرحنا له. عندما أحلم به ولا سيما في تلك اللحظة، كانت ملامحه التي تنم عن دهشة وأباء وتلعثم كلماته المكابرة. أتذكر لحظة انهياره. وقد تحول وجهه إلى قطع بين الأوراق اليابسة.

-لا تواصل رجاء-قالت بابيت

- أنه يستحق ذلك، كما أننا لا نملك سلاحًا آخر سوى بندقية صيد أجيد استعمالها ... أما زالت في الجانب الأيسر هنالك تحت؟

-نعم، أنها في الجانب الأيسر.

-عسى أن يكون لدينا كونياك -قال رولاند، ثم شغل محرك السيارة.

المطارد

لذكرى جي

كن وفيا حتى مماتك (الإنجيل 10،2)

أو أرتد قناعًا (ديلان توماس)

اتصلت بي ديدي مساء لتخبرني أن جوني ليس على ما يرام فذهبت على عجل إلى الفندق الذي يقيمان فيه ديدي وجوني منذ بضعة أيام والواقع في شارع لاكرنجه، في غرفة تقع في الطابق الرابع. لما رأيت باب الغرفة أدركت أن جوني يمر بأزمة عسيرة، فالنافذة تطل على باحة معتمة بالرغم من أنها الساعة الواحدة ظهرا لكن لابد لك من أن تفتح الضياء إذا أردت أن تقرأ الصحيفة أو ترى وجه المقابل، لم يكن الطقس باردًا لكن جوني كان يتلفع ببطانية منكمشًا على نفسه وهو يجلس على مقعد بالٍ تتدلى من كل جوانبه رقع صفر. بدت على ديدي علامات الشيخوخة ولم يعد الفستان الأحمر يناسبها، فستانها التي صممته للعمل والأضواء والمسرح، إلا أنه في هذه الغرفة من الفندق يتحول شكل الأشياء إلى منظر مقرف.

-زميلي الوفي برونو يلازمني كما النفس السيئ، قال جوني كترحيب بي ثم ثنى ركبتيه حتى لامست ذقنه، ناولتني ديدي مقعدًا فأخرجت علبة السجائر. كنت قد جلبت في جيبي مشروب الرون، لكنني لم أشأ أن اخرجه حتى تتوضح لي الأمور. أشد ما يزعجني هو المصباح المعلق بنوره الأحمر يتدلى من سلك وسخ تكتل عليه الذباب. بعد أن نظرت إلى ديدي أكثر من مرة فتحت لها قلبي ثم نظرت إليها أكثر من مرة فطلبت منها أن تطفأ الضياء ونكتفي بنور النافذة، في حين جوني يتتبع كلامي وحركاتي بلا تركيز كقطة تحدق لكنها في عالم آخر: شيء آخر. وأخيرًا نهضت ديدي وأطفأت الضياء، فخيم على الغرفة لون كمزيج من الأسود والرمادي، كنا نرى بعضنا بشكل أفضل. مد جوني إحدى يديه من تحت البطانية فشعرت بدفء جسده الهزيل. بادرت ديدي لتحضير القهوة، فعلمت أنهم على الأقل يمتلكون علبة قهوة، طالما أن أحدهم يمتلك علبة قهوة فهو لم يبلغ بعد أقصى التعاسة، مازال لديه شيء من المقاومة.

-لم نر بعضنا منذ فترة-قلت لجوني-ربما منذ شهر على الأقل

-أنت لا تفعل شيئا سوى حساب الزمن-أجاب جوني مستاء - الأول، الثاني، الثالث، العشرون، أنت تضع لكل شيء رقما. لكن الأمور متشابهة.

-هل تعلم لما هو عصبي المزاج؟ لأنه ضيع آلة الساكسفون، وبعد كل شيء هو على حق.

-لكن كيف فقده؟ -سألتها لكنني في الوقت نفسه لا أستطيع أن أسأل جوني.

- في المترو-أجاب جوني-لكي احافظ عليه وضعته تحت المقعد، كنت مستمتعًا في سفري وأنا على يقين أنه في مأمن تحت قدمي.

- أنتبه عندما كان يصعد سلالم الفندق – قالت ديدي بصوت مبحوح-خرجت مهرولة كالمجنونة لأبحث عنه في المترو ولأخبر الشرطة.

ساد صمت وجيز وانصرمت بضع دقائق، بيد أن جوني أخذ يبتسم كما هي عادته ابتسامة تخرج من بين شفتيه واسنانه.

- لرب شخص تعيس يحاول الآن أن يصدر منه ألحانا –قال-لقد كانت أسوأ آلة ساكسفون امتلكتها في حياتي، يبدو أن الدوق رودريكث عزف عليها وهو مصاب بانهيار نفسي، كآلة موسيقية لم تكن سيئة، ولكن رودريكث بوسعه أن يتفوق على العازف ستراديباري بمجرد توزيعه للألحان.

-هل يمكنك أن تحصل على آلة أخرى؟

- هذا ما نحاول أن نفعله – قالت ديدي-يبدو ان روري فريند لديه آلة أخرى، ولكن المشكلة أن عقد عمل جوني...

- العقد – كرر جوني متهكما-ماذا بشأن العقد، كل ما هنالك أعزف وانتهى الأمر لكن ليس لدي نقود لأشتري آلة ساكسفون أخرى والفتيان وضعهم كما وضعي.

والسبب الأخير هو الأكيد ونحن ثلاثتنا نعلم ذلك، لأن لا أحد يجرؤ أن يعير جوني آلة ساكسفون لئلا يضيعها أو يقضي عليها في الحال، لقد ضيع ساكسفون لويس رولنغ في بوردو ثم هشم آلة الساكسفون التي اشترتها له ديدي بعد أن وقع عقدا للقيام

بجولة في بريطانيا إلى ثلاث قطع قام بركلة ودعس عليه بقدميه. لا أحد يعرف كم من الآلات التي ضيعها أو ركلها أو كسرها، حين كان يعزف على كل آلة منها بطريقة لا يمتلكها إلا من امتلك موهبة إلهية، إذا استثنينا آلتي القيثارة والناي.

- متى ستبدأ يا جوني؟
- لا أعرف، أظن اليوم ما قولك يا ديدي؟
- لا بل بعد غد.
- كل الناس تعرف تاريخ الموعد إلا أنا -وقد غطى نفسه بالبطانية حتى أذنيه-لقد اقسمت أن أذهب هذه الليلة ومساء سنبدأ التدريب.
- لا فرق-قالت ديدي-المشكلة أنه لا يملك الساكسفون.
- كيف لا فرق؟ فالأمر مختلف لان بعد غد هو يلي الغد وغدا يلي اليوم بمسافة. واليوم هو ابتداء من هذه الساعة دعيني أتحدث إلى صديقنا بورنو لأنني اشعر بتحسن، لننسَ الزمن ونشرب شيئا ساخنا.
- سأذهب لأغلي بعض الماء أنتظر لحظة.

- لا اقصد الحرارة التي تنبعث من الغليان قال جوني.

فأخرجت مشروب الرون كما لو أننا أوقدنا الضياء، ففتح جوني فمه مندهشا، والتمعت أسنانه، فابتسمت ديدي لما رأته مندهشا وسعيدًا. فمشروب الرون مع القهوة لم يكن شيئا سيئا. فشعرنا ثلاثتنا بتحسن بعد أن رشفنا جرعة منه مع السجائر. بعد ذلك انتبهت إلى أن جوني أخذ يتدهور رويدا رويدا لكنه مازال يلمح للزمن، موضوع طالما شغله منذ أن عرفته.

قليل من الناس يهتمون بالزمن، وهذه أسوأ صفاته التي هي كثيرة. لكنه يعرف كيف يعبر عنها ويشرحها بمهارة ولا يستطيع مقاومتها إلا القليل من الناس، ذكرني بمقالة قبل أن تطبع في جنجناتي، وذلك قبل فترة طويلة من مجيئي إلى باريس، عندما كان جوني يبلغ التاسعة والأربعين أو قد بلغ الخمسين. كان جوني في أحسن أحواله حينذاك، وذهبت إلى محاضرته فقط لأستمع إليه وإلى ميلس دفيس.

كلاهما لديه شغف بعزف الموسيقى يرتديان بدلات فاخرة (على نقيض ما يرتديه الآن جوني من ملابس رثة متسخة)، يعزفان بمتعة، بلا كلل، في حين مهندس الصوت يومئ بإشارات تنم عن فرحة من خلال نافذته كقرد واثق من نفسه. وفي تلك اللحظة تحديدًا، بدى جوني هائمًا من جرّاءِ فرحته بغتة توقف عن العزف وضرب بقبضته ولا أدري من قال:" هذا ما أعزفه غدا"، ولم يستطع أحد أن يقنعه لأن يبدل رأيه. منذ ذلك الحين بدأت الأمور تتدهور. كان جوني يعزف بلا رغبة ويريد أن يغادر (ليتناول المخدرات مرة أخرى، هذا ما قاله مهندس الصوت وهو يتميز غيظا)، ولما رأيته يخرج مرتجفًا، ووجهه ممتقع اللون، سألت أن كان هذا الأمر سيدوم طويلًا.

-أظن أن من الأفضل أن أتصل بالدكتور برنارد-قالت ديدي، وهي تنظر بطرف عينيها إلى جوني، الذي كان يرتشف شراب الرون-حرارتك مرتفعة وبالكاد تأكل شيئا.

- الدكتور برنارد أحمق كئيب -أجابها جوني، وهو يلعق الكأس – سيعطيني حبة أسبرين وبعدها سيقول لي أنه معجب كثيرًا بموسيقى الجاز، على سبيل المثال رأي نوبل. هل تعرف ذلك يا

برونو. لو كنت أملك الساكسفون لاستقبلته بموسيقى تجعله يهبط الأربعة طوابق وينزل السلالم وهو جالس على مقعده.

- تناول الأسبرين فهو لن يضرك-قلت وأنا أنظر بطرف عيني إلى ديدي – إذا وافقت سأتصل به عندما أذهب دون أن تضطر ديدي لأن تهبط. ولكن ما الذي يضر في الأمر... إذا ابتدأت بعد غد لربما تستطيع عمل شيء ما. وأنا بوسعي أن أجهز روري فريند بآلة ساكسفون. وفي أسوأ الأحوال... لكن الأمر هو أن تأخذ الحيطة يا جوني.

-- اليوم لا أريد – قال جوني وهو ينظر إلى مشروب الرون- غدا عندما أحصل على الساكسفون. لذلك لا داعي لأن نتكلم بهذا الأمر يا برونو، كل مرة انتبه بأن الوقت ... أظن أن الموسيقى تساعدنا على أن نفهم هذا الأمر قليلًا، لكنني لا أفهم الحقيقة فأنا لا أفهم شيئا، وكل ما افهمه أنني انتبهت إلى وجود أشياء كتلك الأحلام، لكنني لست على يقين منها لأن كل الأشياء ستتبدد، وتخشى ما هو قادم، لكن في الوقت نفسه لا يوجد شيء مؤكد، فالأشياء تتقلب كالفطيرة لتجد نفسك فجأة مضطجعًا مع أمرأه جميلة وكل الأشياء تتحلى بصفات إلهية.

كانت ديدي تغسل الأكواب والكؤوس في زاوية من الغرفة فانتبهت أنه لا يوجد ماء جارٍ في الحوض بل مجرد أصيص أزهار في داخل المغسلة كأن فيها حيوانًا محنطا، في حين واصل جوني كلامه وقد غطى فمه بالبطانية، وهو أيضا بدا لي محنطا وقد طوى ركبتيه حتى ذقنه فبدى وجهه أسود مسترخيا بسبب الرون ويتصبب عرقا من الحمى.

- لقد قرات أشياء حول هذا الموضوع يا برونو. انه لأمر غريب، وفي الوقت نفسه عسير.... أظن أن الموسيقى لن

تساعدك على أن تفهمه، لأنني في الوقع لا أفهم شيئا. فضرب رأسه بقبضة يده فرّن كجوزة الهند.

- لا يوجد شيء هنا يا برونو، لكي يبوح بشيء. أنه لا يفكر ولا يفهم. ولا يعوزني شيء لأخبرك بالحقيقة. ابتدأت أفهم من العيون ونازلا وكلما هبطت فهمت أكثر، ولكنه ليس فهما حقيقيًا وأنا متفق معك في ذلك.

- سترتفع حرارتك – صاحت ديدي من ركن الغرفة-.

- هس، أسكتي. حقا يا برونو. لم أفكر بأي شيء لكنني فجأة انتبهت أن ما أفكر به هو أمر غير مجدٍ، أليس كذلك؟ أي متعة تجنيها حينما تعلم أن شخصا ما يفكر بشيء ما؟ فالأمر سيان أن فكرت أنت أو شخص آخر. لست أنا، أنا ببساطة أنتفع بما أفكر به، لكن فيما بعد، وهذا ما لا أطيقه. أنه أمر صعب، صعب جدا لم يبق ولا قطرة؟

أعطيته آخر قطرات من مشروب الرون في حين شعلت ديدي الضياء مرة أخرى، تكاد الأشياء لا ترى في الغرفة. كان جوني يتصبب عرقا، متلفعًا ببطانيته، ومن حين لأخر يرتجف ويشحط الكرسي.

- بدا لي كفتى صغير بدأ يتعلم لتوه عزف الساكسفون. لطالما ضج بيتي بضوضاء شيطانية، يدور به الحديث فقط عن الشكوك، والنفاق. أنت تعلم ما يعني النفاق؟ أنه أمر مرعب، لأن المرأة العجوز تكاد تخرج عن طورها كلما تحدث الرجل العجوز عن النفاق، وينتهي بهما الأمر إلى الشجار. كان عمري ثلاث عشرة سنة.... لكنني سمعت حينها كل شيء وتعجبت مما سمعته، لو حاولت أن أكتبه بصدق في مذكراتي عن جوني.

- فالوقت في ذلك البيت لم يكن يمضي أبدا ولا حتى ينقضي، هل تعلم ذلك. من شجار لأخر دون أن نتناول الطعام. وبعدها نبدأ بالحوار الديني، أمر لا يمكنك أن تتخيله حينما جلب لي المايسترو ساكسفونا لو رأيته لانفجرت ضاحكا، حينذاك انتبهت إلى أن الموسيقى لا تلتزم بالزمن، أمر لا أعرف كيف أشرحه لك. أن كنت تريد أن تعرف مشاعري، أظن أن الموسيقى تجعلني أخشى الزمن، وهذا ما جعلني أؤمن بأن ذلك الزمن لا علاقة له بما هو .... جيد، أو بنا، هذا ما أستطيع أن أعبر عنه.

بدأت أتعرف للتو على هذيان جوني، وكل ما يمت بصلة لحياته، أصغيت اليه بإمعان لكن دون أن أهتم كثيرًا لما يقوله، لكنني تساءلت من أين حصل على المخدرات في باريس. توجب عليّ أن أستجوب ديدي وعن تواطؤها في هذا الموضوع لأن جوني لن يقاوم كثيرًا وهو في هذه الحالة. فالمخدرات والفقر لا يسيران سويا. فكرت بالموسيقى التي بدأ يفقدها، وبمئات التسجيلات التي تمنح الفرصة لجوني لكي يحافظ على كيانه، تلك المهارة المدهشة التي تميزه عن كل الموسيقيين. "هذا ما كنت اعزفه صباحًا" سألني على حين غرة بأحاسيس نقية، لأن جوني يبدأ عزفه دوما في الصباح وما تبقى وما عداه يأتي فيما بعد، اليوم حاول جاهدا أن يقفز بنوتاته الموسيقية.

أنا ناقد لموسيقى الجاز وحساس جدا لما يخص الضوابط، انتبهت حسبما فكرت به أنه دون المستوى لأن المسكين جوني يحاول أن يتقدم لكن بجمل موسيقية مبتورة، بسبب أنفاسه وغضبه المفاجئ ودموعه. كان يهمه أن يريني ولو النزر اليسير من عبقريته، في حين أنه لم يكن مغرورًا ذات يوم لأن الموسيقى التي يعزفها تتقدم على موسيقى أقرانه. تذكرت بحزن

حينما ابتدأ حياته كعازف ساكسفون وأنا رافقته حتى النهاية، هو الفم وأنا الأذن، لكن لن أقول إنه الفم وأنا ... أنه مجرد نقد. ايه، أنها النهاية المحزنة لشيء ابتدأ بمذاق خاص، كلذة من يعض ويمضغ، يتحرك الفم مرة أخرى بشراهة، ويرشف فم جوني جرعة من الميرمية بشفتيه، في حين ترسم يديه شكلا في الهواء.

- برونو لو استطعت يومًا ما أن تكتب ... عني، أقصد، الأمر لا يهمني. لكن ينبغي أن يكون شيئا رائعًا. لما بدأت أعزف وأنا صبي صغير انتبهت إلى أن الزمن يتغير. ذات مرة أخبرت جيم بهذا فأجابني أن الجميع ينتابه هذا الإحساس، حينما يطلق العنان لمخيلته.... هذا ما قاله، حينما يطلق العنان لمخيلته، لكن لا، أنا لا أسرح حينما أعزف، أغير مكاني فقط، كما لو أنني في مصعد كهربائي، أنت في مصعد وتتحدث مع الناس، ولا ينتابك أي شعور غريب، ولما تجتاز الشقة الأولى ثم العاشرة وبعدها الواحدة والعشرين، تمتد المدينة تحت ناظريك، في حين أنت بالكاد تنهي الجملة التي ابتدأت بها حينما صعدت، أي بين الكلمة الأولى والأخيرة توجد اثنتان وخمسون شقة. عندما بدأت أعزف انتبهت كما لو أنني في المصعد، لكنه كان مصعد الزمن، أن كان بوسعك أن تطلق عليه مثل هذه التسمية. لا تظن أنني نسيت القرض العقاري أو الدَين. لكن كلاهما في تلك اللحظة كان كبدلة لم أرتدها: أعلم أن البدلة موجودة في خزان الملابس لكن هل كانت تلك البدلة موجودة. البدلة موجودة حينما أرتديها، والنفاق والدين أجدهما حينما أنتهي من العزف فتدخل المرأة العجوز وقد عقدت شعرها بالمشبك وتشتكي بأنني ثقبت اذنها بتلك الموسيقى الشيطانية.

جلبت ديدي فنجان قهوة آخر، لكن جوني كان يحدق بكأسه الفارغ وهو حزين.

-أن موضوع الزمن أمر معقد، أنه يحاصرني من جميع الجهات. بدأت أنتبه رويدا رويدا أنه لا يشبه حقيبة ممتلئة. أريد أن أقول حتى لو بدأت تحشو الحقيبة فالكمية تبقى كما هي ولا تتغير. هل ترى حقيبة سفري يا برونو؟ تستوعب بدلتين وزوجي حذاء. برونو، تصور الآن لو فرغتها ثم تعود لتضع بها مرة أخرى البدلتين وزوجي الحذاء، لكنك بغتة تكتشف أنها تسع بدلة واحدة فقط وزوج حذاء فقط. لكن قد لا يكون الأمر كذلك. ولما لربما تستطيع أن تدخل خيمة بكاملها في الحقيبة، ومئات ومئات من البدلات، كما أدخل أنا الموسيقى في الزمن حينما أعزف أحيانا. الموسيقى هي ما أفكر به عندما أسافر في المترو.

- نعم هنا يمكن الموضوع-قلت لجوني لأنقذه مما هو فيه-

- المترو اختراع عظيم يا برونو –قال جوني متسائلا-إن سافرت بالمترو ستنتبه إلى كل ما تستوعبه حقيبة السفر. على الأقل لما فقدت الساكسفون في المترو، أو على الأقل ...

طفق ضاحكا، ثم عطس، في حين ديدي تنظر إليه بقلق، أما هو فكان يقوم بإيماءة، ثم يبتسم ويعطس في آن، ويرتجف تحت البطانية كالقرد في حين تتساقط دموعه فيبتلعها وهو يضحك.

- من الأفضل ألا ندمج الأشياء ببعضها -قال بعد برهة-لقد فقدته وانتهى الأمر. لكن المترو ساعدني لأن أكتشف خدعة حقيبة السفر. لو تأملت موضوع الأشياء المطاطة لوجدته أمر غريب.

أشعر به في كل مكان، كل ما هو مطاط وصغير، فالأشياء التي تبدو كبيرة تمتاز بالمرونة.... فكر بالأمر وركز به.

- مرونة متأخرة-أضاف متعجبًا. بينما أنا قمت بحركة أعجاب عابرة، برافو جوني. الرجل الذي يدعي أنه لا يقوى على التفكير، يا لجوني. بدأت أهتم حقا بما يقوله، وهو أنتبه للأمر وأخذ يرمقني أكثر من قبل.

- هل تظن أنني أستطيع أن أحصل على ساكسفون آخر غدا أو بعد غد يا برونو؟

- نعم ولكن عليك أن تكون حذرا.

- طبعا، يجب أن أكون حذرا.

-عقد لمدة شهر-قالت ديدي المسكينة-خمسة عشر يومًا في بويت رمي وحفلتان إضافة للأسطوانات

- عقد لمدة شهر-يؤشر جوني مقلدًا-. بويت ريمي وحفلتان إضافة للأسطوانات. بي-باتا-بوب بوب بوب جر. أنا أشعر بالعطش، العطش، العطش. لدي رغبة في التدخين، التدخين، ولا سيما الرغبة في التدخين.

قدمت له علبة سجائر غاليوس، بالرغم من أنني أعرف أنه يفكر بالمخدرات. خيم الليل وبدأ دبيب الأقدام رواحًا ومجيئًا في الممرات يتناهى لمسمعنا، وحوار باللغة العربية وأغنية، ذهبت ديدي لتشتري طعام العشاء. شعرت بيد جوني على ركبتي.

-إنها فتاة طيبة هل تعلم ذلك. لكن طفح بي الكيل. منذ لحظة رفضتها، لأنني لا أريدها أن تعاني. أحيانا تثيرني، أنها تجيد

ممارسة الحب كما ... – يجمع أصابعه على الطريقة الإيطالية- لكن يجب أن أنفصل عنها وأعود إلى نيويورك، لأنني يجب أن أعود إلى نيويورك يا برونو.

-لماذا؟ حالك هناك أسوأ مما هنا، لا أقصد العمل بل حياتك الشخصية، أظن أن هنا لديك الكثير من الأصدقاء.

-نعم أنت موجود هنا والماركيزه وفتيان النادي... هل مارست الجنس مع الماركيزه يا برونو؟

-لا.

-حسنا أنه أمر ... لكنني اتحدث عن المترو، ولا أعرف كيف تغيير الحديث. المترو اختراع عظيم. ذات يوم بدأت اشعر بشيء ما في المترو، لكنني نسيته... لكنه تكرر مرتين أو ثلاث مرات، انتبهت اليه مؤخرًا، من السهل أن أشرحه لك، الشرح الحقيقي هو ببساطة أنني لا أستطيع أن أشرحه.

يجب أن تستقل المترو وتنتظر حتى يحصل لك ذلك، بالرغم من أنني أظن أن ذلك يحصل لي فقط. تقريبًا هو كذلك، أنظر. لكن هل حقا لم تمارس الجنس مع الماركيزه؟ تطلب منها أن تستلقي على المقعد المذهب في إحدى زوايا غرفة النوم، إلى جانبه ضياء جميل وبعدها... باه ثم تعود.

تعود ديدي وهي تحمل بيدها كيسا.

- ارتفعت حرارتك، سأتصل بالطبيب، سيأتي الساعة العاشرة، قال لي بأنه يجب أن تمكث هادئًا.

- حسنا، سأفعل، لكنني سأواصل سرد قصة المترو لبرونو. في اليوم التالي انتبهت لما يحدث. طرقت مفكرًا بتلك العجوز، بعدها فكرت بلان والفتيان، ثم هيأ لي للحظة أنه يسير في الحي الذي أقطنه، فرأيت وجوه الفتيان، في ذلك الوقت لم أكن أفكر، لكنه يحدث معي كما قلت لك وأنا لا أفكر: كأنني أقف في ركن وأنظر للأحداث التي تطرأ على بالي، لكنني لا أفكر بما أفكر، أو بما أرى. هل فهمت؟ يقول جيم أن الجميع متشابهون، (هذا ما يقوله) ولا أحد يفكر لنفسه. لنضع كل الاحتمالات، فالموضوع هو أنني ركبت المترو من محطة سان ميشيل ثم فكرت على التو بلان والفتيان، ورغبتي في رؤية الحي. ولما انتفضت أحاسيسي أخذت أفكر بهم، لكنني انتبهت في آن أنني كنت في المترو، ثم انتبهت أنني في غضون دقيقة أو أكثر وصلت اوديون، وبدأت الناس تنزل وتصعد. بعد ذلك مكثت أفكر بلان ورأيت العجوز عندما عدت لأتبضع، بدأت أرى كل شيء، وأنا أرافقهم بطريقة رائعة. أنه أمر لم أشعر به منذ زمن. فالذكريات أمر مقرف على الدوام، لكن هذه المرة كنت أريد أن أفكر بالفتيان واراهم، وأمر كهذا يتطلب توفير الكثير من التفاصيل. سأخبرك مثالًا على ذلك، كنت أنظر إلى لان وهي ترتدي فستانا أخضر اللون، كانت ترتديه كلما ذهبت إلى نادي 33 حيث كنت أعزف برفقة هامب. رأيت الفستان تزينه الكثير من الشرائط، ورفعت شعرها في حين زينت جيدها بعقد... لكن ليس في الوقت نفسه، لأنني في الواقع كنت أنظر إلى فستان لان وأمعن النظر فيه بهدوء، وبعدها نظرت إلى وجه لان والفتيان، وبعدها تذكرت مايك الذي كان يعيش بجانبنا، وروايته عن الخيل البرية في كولورادو، حيث كان

يعمل في مزرعة خيول كان يتكلم وقد كشف عن صدره كما هو حال مروضي الخيول...

- جوني-قالت ديدي بدورها.

- أنظر فأنا أقص عليك مقطعًا مما حدث ومما رأيت. لكن ما الذي جرى لي لأقص عليك هذا المقطع؟

- ألا نستريح لمدة دقيقتين.

- نستريح لمدة دقيقتين-يقلدها جوني-في خلال دقيقتين رويت لك مقطعًا واحدًا فقط، لو أنني رويت لك كل ما عمله الفتيان وعزف هامب لمقطوعة (أحتفظ بها)، أو (ماما الجميلة) في حين أنا كنت أصغي إلى الألحان الموسيقية، وهامب ليس من النوع الذي يشعر بالتعب كما أنني تليت على عجوزتي ابتهالًا طويلًا يتحدث عن شجر السنديان، كمن يطلب المغفرة للعجوز ولنفسي ويتحدث أيضا عن السنديان.... لو كلمتك عن كل ذلك لأنقضت أكثر من دقيقتين، حقا يابرونو؟

- لو كنت حقا قد استمعت لكل ذلك ورايته، لقضيت ربع ساعة مستمتعًا؟ قلت له وأنا أضحك.

- ستمضي ربع ساعة من المتعة يا برونو، ستسألني كيف شعرت بغتة بأن المترو توقف وغادرت عجوزتي القديمة ولان وكل ما جرى، لأرى أننا بلغنا سان جيرمان ديبريه، ثم مكثنا تمامًا دقيقة ونصف لنبلغ اوديون.

لم أكترث مطلقًا للأشياء التي يتحدث عنها جوني لكن الآن شعرت بالقشعريرة من جرّاءِ الطريقة التي يرمقني بها.

- بالكاد دقيقة ونصف من زمنك، وزمن تلك-قال جوني ساخطًا-وكذلك زمن المترو والساعة، اللعنة. ربع ساعة وأنا أفكر يا برونو؟ كيف لي أن أفكر بربع ساعة ما أفكر به في دقيقة ونصف؟ أقسم لك أنني لم أدخن ولو سيجارة صغيرة أو حتى لفة حشيش-قال كفتى صغير يقدم اعتذاره-لقد حدث لي ذلك مرارا، والآن يحدث لي في كل مكان. لكنني-أضاف قائلًا ببراعة-بالمترو فقط أستطيع أن أنتبه وكأنني محشور في ساعة، فالمحطات هي الدقائق، هل فهمتني، أنه زمنك، والزمن الحالي، لكنني أعلم أنه يوجد زمن آخر، لقد مكثت مفكرًا ومفكرًا.

غطى وجهه بيديه وهو يرتجف. وددت لو أنني ذهبت لكنني لا أعرف كيف أودعه دون أن يعترض جوني، لأنه حساس جدا مع الأصدقاء. لا أستطيع أن أطيقه أن أستمر على هذه الحال ولربما سأكلم ديدي لكي نترك الحديث بهذه الأمور.

- برونو لو أنني أستطيع أن أعيش كما الآن، أو كما كنت أعزف فالزمن سيتغير أيضا... هل انتبهت لما قد يحدث في دقيقة ونصف... حينذاك أي رجل، ليس فقط أنا بل تلك أيضا وأنت وكل الفتيان، بوسعهم أن يعيشوا مئات السنين، لو أننا وجدنا طريقة للعيش تجعلنا نحيا ألف مرة أكثر مما نحياه الآن بسبب الساعات وهوس الدقائق واليوم المنصرم....

ابتسمت قدر مستطاعي، لأنني أفهم أنه على حق لكن ما يشك به أو أشتبه به سيمحى عندما أخرج للشارع وأعود لحياتي اليومية، حينذاك سأكون على يقين أن جوني يبدي رأيه بأشياء ليس لأنه مختل عقليًا، بل لأنه في الواقع يهرب من أمر ويتركه في اضطراب ذهني فيتحول إلى شخص يبحث عن أمل. لا

أقوى أن أصغي في بضع دقائق إلى كل ما يقوله لي جوني (منذ خمسة أعوام وجوني يحدثني ويحدث الجميع عن أشياء متشابهة) أو أعطيه وعدا أنني سأفكر به لاحقا، لأنها مجرد أشياء نصادفها في الشارع أو ذكريات وليس جوني من يكرر الكلمات، كل شيء يمسي شبحا من الحشيش، ورتابة (لأن الآخرين يرددون نفس الأشياء المتشابهة وفي كل لحظة تظهر أدلة متشابهة) وبعد حدوث أعجوبة يأتي الهيجان، حتى ليبدو لي أحيانا أن جوني يخدعنا. لكن هذا ما يحدث في اليوم التالي، ليس عندما يتكلم جوني، لأنني حينذاك أشعر أن شيئا ما سيحدث في مكان ما، كضياء يبحث عمن ينوره، أو بالأحرى حاجة لان يحرق شيئا ما، يحرقه كاملا كمن يربط جذع شجرة بأسفين أو يضربه بالمعول حتى يحطمه. لكن جوني لم يعد بمقدوره الضرب بالمعول، بل لا يعرف أي معول يحتاجه لكي يربط الجذع بالأسفين وأنا لم أعد أقوى على تخيل الموقف حتى أنني آخر الأمر ذهبت إلى الغرفة، لكن في البداية حدثت أشياء كان لابد أن تحدث-أو أشياء مماثلة-عندما كنت أودع ديدي وأربت على كتف جوني شعرت بأن شيئًا ما يحدث.

لمسته في ناظري ديدي فاستدرت بسرعة (لربما كنت أخشى بعض الشيء من جوني، من ذلك الملاك الذي أعتبره كأخ، من ذلك الأخ الذي أعتبره كالملاك) رأيت جوني رفع عنه البطانية التي كان يتغطى بها بغتة وجلس على المقعد عاريًا تمامًا، وقد رفع ساقيه وركبتيه بمستوى ذقنه، كان يرتجف ويضحك، متسخ من قمة رأسه حتى قدميه.

- أشعر بالحر-قال جوني. برونو أنظر إلى الجرح الجميل في ساقي.

- تغطى-قالت له ديدي، وهي تشعر بالخجل دون أن تعرف ما تقول. نحن نعرف بعضنا ورجل عار مجرد رجل عار، لكن ديدي شعرت بالخجل ولم أعد أعرف كيف أتصرف كيلا أعطيها انطباعًا أنني أتابع لما يقوم به جوني لأنه صدمني وهو يعلم ذلك فضحك ملء شدقيه، وأصر على أن يرفع ساقيه، كان يجلس على المقعد كقرد في حديقة الحيوانات، انتشرت على جلد عضلته بقع غريبة جعلتني أتقزز منها. فتناولت ديدي البطانية وغطته على عجل، في حين جوني أستمر بالضحك وقد بدى سعيدًا، ودعني من دون تركيز ووعدته بأنني سأعود في اليوم التالي، رافقتني ديدي حتى السلم بعد أن أغلقت الباب لكيلا يسمع جوني ما تقوله لي.

- هو على هذه الحال منذ عودتنا من آخر جولة لنا في بلجيكا. لقد عزف جيدا في كل مكان، وكنت مسرورة جدا.

- لكنني أريد أن أعرف من أين حصل على الحشيش-قلت لها وأنا أمعن النظر في عينيها.

- لا أدرى، كان يحتسي النبيذ والكونياك طيلة الوقت. لكنه دخن أقل من السابق....

قضى في بالتيمور ونيويورك، ثلاثة شهور وهو يرقد في مستشفى لعلاج الأمراض النفسية في بيلافو، وأمضى وقت طويل في كامريو.

-هل حقا أجاد جوني العزف في بلجيكا يا ديدي؟

- نعم يا برونو، بل أفضل من أي وقت. كادت الناس تجن وفتيان الأوركسترا أخبروني بذلك أكثر من مرة. لكن بغتة

حدثت أشياء غريبة، كما يحدث دوما مع جوني، ومن حسن حظه ليس أمام الجمهور.

- لكن ليس في نيويورك؟ أم إنك لم تتعرفي عليه بعد في تلك الفترة.

ليست ديدي غبية، لكن أية أمرأه لا تحب أن تتحدث عن زوجها حينما لم يدخل بعد حياتها، منذ الآن فصاعدًا يجب أن تتحمله وما قد مضى لم يكن سوى مجرد كلمات. لا أعرف كيف أعبر عما أريد أن أقوله لها، بل لا أملك الثقة لكن في النهاية اتخذت القرار.

-أظن أنكم بحاجة إلى النقود.

- لدينا هذا العقد ويمكننا أن نبدأ بعد غد-قالت ديدي.

- هل تظنين إنه قادر على أن يعزف وأن يقدم نفسه للجمهور؟

- نعم-قالت ديدي وهي مندهشة-جوني بوسعه أن يعزف أفضل لو أن الطبيب برنارد يعالج الزكام المصاب به لكن المشكلة هي اقتناء ساكسفون.

- سأهتم بهذا الموضوع. يجب عليك يا ديدي فقط أن .... يستحسن ألا يطلع أحد على الأمر.

- برونو...

فأشرت لها أن نهبط السلم، لكي أقاطع كلامها غير المجدي، لأن اهتمام ديدي بلا فائدة. بعد أن ابتعدت عنها بأربع أو خمس درجات تجرأت على مخاطبتها.

-لا شيء في العالم يستحق أن يجعله يدخن قبل عزف السمفونية الأولى، دعيه يشرب قليلًا لكن أمنعي عنه النقود لشراء الشيء الآخر.

لم تجب ديدي، لكنني رأيتها تفرك كفيها وتفرك البطاقة التي تحملها، حتى تفتتت. بيد أنني مطمئن أن ديدي لا تدخن الحشيش، لكن مشكلتها تكمن في خوفها و حبها، كأن يركع جوني على ركبتيه كما رأيته في شيكاغو، ويتوسل إليها وهو يذرف الدموع..... أنها إحدى هفوات جوني وما أكثرها، حينذاك كانوا يمتلكون النقود لشراء الطعام والدواء. لما خرجت للشارع هطل المطر فرفعت ياقة معطفي، وتنفست حتى آلمتني رئتي، بدت لي أجواء باريس نقية، كخبز حار، فانتبهت إلى رائحة غرفة جوني، وإلى جسده المتعرق تحت البطانية. دخلت مقهى لأشرب كونياك لكي أغسل فمي من الذكرى الملحة لكلمات جوني، وقصصه وطريقته في رؤية أشياء أنا لا أراها لأنني في أعماقي لم أكن أريد أن أراه هكذا، طرقت مفكرًا فيما كان بالأمس وكيف كان متماسكا كجسر ممتد بثبات إلى الأمام.

عندما ينتاب الشك أحد ما، يستحسن به أن يجد لنفسه مهام عابرة، بعد يومين أو ثلاثة أيام اضطررت أن أتقصى إن كانت الماركيزه هي التي سهلت لجوني كارتر الحصول على الحشيش، ذهبت إلى الأستوديو الواقع في مونتبارنس. كانت الماركيزه بحق ماركيزه، ورثت ثروتها عن زوجها، بالرغم من أنهما كادا أن يتطلقا بسبب الحشيش. بعد أن انقضى يومان أو ثلاثة أيام فكرت أن بحكم صداقتها لجوني قد زارت نيويورك، لربما في السنة التي أشتهر بها جوني بين ليلة وضحاها لأن ببساطة شخص ما منحه الفرصة لأن يجتمع بأربعة أو خمسة

فتيان كان معجبًا بأسلوبهم، في الوقت الذي عزف جوني بأقصى طاقاته مما أثار اعجاب الجميع. لكنها ليست اللحظة المناسبة لنقد الجاز، ومن يهمه الأمر يمكن أن يقرأ كتابي عن جوني والأسلوب الجديد الذي ظهر بعد الحرب، لكن يمكننا أن نقول إن عام ثمانية وأربعين – حتى عقد الخمسينيات- كان عصر انفجار الموسيقى، لكنه انفجار بارد وصامت، انفجار لم يحرك الأشياء من مكانها بدون صراخ أو استغاثة، مزق التقاليد إربًا حتى المدافعين عنها (سواء في الأوركسترا والعامة) تملكتهم حالة حب خاصة نحو شيء لم يعودوا يشعروا به كما من قبل.

بعد إنجازات جوني بالعزف على الساكسفون لم يعد بوسعي أن أستمع إلى ما يعزفه الآخرون كأنهم متطفلون أو كأن أحدا لا يمكنه أن يتقبلهم، يجب علينا أن نعترف بتطبيق هذا النمط من التنازل المقنع الذي يطلق عليه الإحساس التاريخي، ونقول إن أي واحد من هؤلاء الموسيقيين كان رائعًا في فترة معينة، أما جوني فقد مضى بالجاز كيد تمتد لتقلب صفحة ثم تنتهي.

للماركيزه أذن موسيقية كمدرعة، لكنها كانت شديدة الإعجاب بجوني وبمجموعة أصدقائه، أظن أنها كانت تعطيه الدولارات الكثيرة أيام كان يعمل في نادي 33، حينذاك أحتج جميع النقاد على تسجيلات جوني وقاموا بتقييمها وفق معايير متعفنة، لربما في تلك الفترة بدأت الماركيزه علاقتها بجوني وبدأت تضطجع معه من وقت لأخر، وتدخن معه. لقد رأيتهما مرات عديدة سويا قبل جلسات التسجيل أو بين استراحة السمفونية، حينها كان جوني تغمره السعادة وهو برفقة الماركيزه. لكن

جوني ليس لديه أدنى فكرة عن الانتظار، ولم يكن يتصور أن شخصا ما قد ينتظره.

حتى طريقته في إهمال لان وهي تنتظره حتى الملل. رأيت بطاقة بريدية أرسلها من روما، بعد أربعة شهور من الغياب (أتخذ طائرة مع أثنين من الفتيان وموسيقيين آخرين دون علم لان)، البطاقة البريدية عليها صورة ملوك روما روملو و ريمو، اللذان طالما أعجب بهما جوني (أطلق أسمهما على إحدى معزوفاته الموسيقية) كتب لها: أسير وسط حشد من المحبين"، جملة من قصيدة الشاعر ديلان توماس الذي كان يقرأه جوني طوال الوقت. لقد تعمد وكلاؤه في الولايات المتحدة أن يمنحوا بعض ما يكسبه إلى لان، التي عاجلا ما أدركت أنها لم تقم بعمل أسوأ من أن تترك جوني. وكذلك الماركيزه أعطت للان نقودا دون أن تعرف لان مصدرها. لن أستغرب من طيبة الماركيزه المفرطة لأنها تفهم العالم كفطيرة تطبخها في الاستوديو الخاص بها فيتوافد عليها الأصدقاء جزافا، فتصر على عمل أنواع من الفطائر تشمل على مواد مختلفة وتأخذ منها قطعة لتقدمها عندما تدعو الحاجة لذلك.

وجدت الماركيزه برفقة مارسيل كافوتي وآرت بوكايا، يتحدثون عن التسجيلات التي أنجزها جوني في اليوم السابق. تهافتوا علي وكأن ملاكًا هبط عليهم، لقد بحثت عني الماركيزه بإلحاح، أما الأولاد فقد صفقوا لي وكأنهم يعزفون الكمان والساكسفون بأصواته الحادة. وقفت وراء الكرسي لأحمي نفسي قدر مستطاعي، وكل هذا لأنهم يعرفوا أنني جلبت لجوني آلة الساكسفون الرائعة التي عزف عليها في أربعة أو خمس من تسجيلاته التي أرتجلها بمهارة.

أخبرتني الماركيزه أن جوني يبدو كجرذ متسخ، لأنه تشاجر معها (دون أن تذكر السبب) لكن الفأرة القذرة تعلم لو أنها اعتذرت لحصلت على الفور على النقود التي تمكنها من شراء ساكسفون آخر، بيد أن جوني لم يشأ أن يعتذر لها منذ أن عاد من باريس-يبدو أن الشجار حصل في لندن، قبل شهرين-وبهذا الشكل لا أحد بوسعه أن يعرف كيف فقد الساكسفون الذي طلبه في المترو إلى آخر الأمر.

عندما تتكلم الماركيزه تثير تساؤلًا إن كان أسلوب الموسيقار ديزي قد التصق بلغتها. كانت سلسلة من مفارقات لا تنتهي لتسجيلات غير متوقعة، حتى إن الماركيزه لكمته على ردفيه ثم فتحت فهما مقهقهه وكأن أحدا كاد يقتلها من الضحك. حينذاك أنتهز آرت بوكايا الفرصة ليخبرني عما حصل في جلسة الأمس، التي كنت قد نسيتها بسب الالتهاب الرئوي لزوجتي.

- تيكا يمكنها أن تشهد على ما حدث -قال آرت للماركيزه التي كادت تتلوى ضحكا-

برونو لا يمكنك أن تتصور ما حدث حين تسمع التسجيلات. لو أن الخالق كان موجودًا أمس بمكان ما لربما كان في قاعة التسجيلات التي غصت بشعاع عابر من العبقرية. هل تتذكر ويلوتري يا مارسيل؟

-نعم أتذكر-قال مارسيل-الغبي يسأل أن كنت أتذكر، فأنا موسوم من قمة رأسي حتى قدمي بويلو تري.

جلبت لنا تيكا وسائد لنستند عليها فشعرنا بالراحة ونحن نتحدث، لقد حدثنا قليلًا عن جلسة الأمس، كل الموسيقيين يعلمون إنه ليس من السهل التطرق إلى هذه الأمور، لكن ما

حدثوني به بعث في داخلي الأمل لعل الساكسفون الذي أتيت به لجوني يجلب له الحظ، على أية حال لم يخل الأمر من تناقضات جعلت هذا الأمل يخبو، على سبيل المثال كان جوني يخلع حذاءه بين جلسات التسجيل ويسير حافيا في الاستوديو. لكنه في الوقت نفسه تصالح مع الماركيزه فوعدته أنها ستأتي إلى الاستوديو لتشرب معه كأسًا قبل عرض هذه الليلة. هل تعرف الفتاة التي يرافقها الآن جوني؟ -أراد أن يتعرف على تيكا. وصفتها له بشكل مقتضب، لكن مارسيل أكمل حديثه على الطريقة الفرنسية، ليسرد كامل التفاصيل والملامح التي أعجبت بها الماركيزه إلا إنه لم يتطرق إلى موضوع الحشيش، بالرغم من أنني متخوف لأن ريحتها كانت تفوح في استوديو تيكا، إضافة إلى ذلك لاحظت أن ضحكة تيكا تشبه ضحكة جوني وآرت، التي تنم عن الإدمان. تساءلت كيف حصل جوني على الحشيش إن كان قد تخاصم مع الماركيزه، بدأت ثقتي بديدي تهوى إلى الحضيض هذا إن كنت أثق بها حقا، لأنهم جميعا في النهاية متساوون. قد أغبط قليلًا هذا التلاحم بينهم، الذي يجعلهم متواطئين معا بسهولة: من عالمي البورتيني-لا أحتاج لأن أبوح به، كل الذين يعرفونني يعلمون خشيتي من الانحراف الأخلاقي-أراهم كملائكة مريضين، ثائرين بسبب تحمسهم للتسيب لكنهم يدافعون عنه بحذر كما أسطوانات جوني، وكرم الماركيزه. لن أبوح بكل شيء، لأن لن يخطر ببال أحد مغزى ماهية الجانب الأخر، أغبط كل شيء باستثناء ألمه، الذي لن يفهمه أي شخص، لكن في ألمه شيئا ما زلت أرفضه. أغبط جوني لكنني في الوقت نفسه يحز في نفسي حينما أجده يدمر مواهبه بسبب سوء سلوكه، بسبب غباء تراكم جنونه الذي فرضته عليه حياته المغلقة. أظن لو أن جوني أستطاع أن يوجه

حياته حتى دون أن يقدم التضحيات، أو دون أن يترك الحشيش، لربما أستطاع أن يقود تلك الطائرة التي تحلق بشكل عشوائي منذ خمس سنوات بطريقة أفضل، لربما أنتهى به الأمر أسوأ مما قبل، في حالة من جنون مطلق، وموت، لكن دون تأثير عميق فيما يبحث عنه وهو في حالته الحزينة السابقة، أو في خضم تجاربه المدهشة التي جعلته يمكث في منتصف الطريق. أنا أدعم كل هذا بسبب جبن شخصيتي، لربما في داخلي تمنيت لو أن جوني ينتهي مرة واحدة، كنجمة تتهشم إلى ألف قطعة وتترك الفلكيين في حيرة على مدى أسبوع، وبعدها أحدهم سيأوي إلى فراشه لينام والغد هو يوم آخر.

يبدو لي أن جوني كان يشك بكل ما كنت أفكر به، لأنه رحب بي بسعادة عندما دخلت وجلس بجانبي على الفور، ثم قبل الماركيزه وحملها واستدار بها، وتبادل معها ومع آرت طقس إغريقيا معقدًا منح الجميع البهجة.

-برونو-قال جوني، وقد جلس على أفضل كنبة. المعزوفة مبهرة، ليخبروك هم عنها لقد عزفتها بالأمس من أعما نفسي. لقد سالت دموع تيكا كأنها قنابل كهربائية، لا أظن أنها كذلك، أليس كذلك يا تيكا؟

أردت أن أعرف شيئا أكثر عن الجلسة، لكن جوني كان قد اكتفى بهذا الفيض من التفاخر، وشرع فورًا يكلم مارسيل عن برنامجه هذه الليلة أو بالأحرى عن البدلات الصارخة التي سيرتدونها على المسرح. كان جوني على ما يرام ويبدو انه لم يدخن على مدى أيام، لربما سيحتاج لجرعة محددة ليجيد

العزف، وفي اللحظة التي كنت أفكر به، وضع جوني يديه على كتفي وانحنى ليخبرني:

-أخبرتني ديدي أنني أسأت التصرف معك في ذلك اليوم.

-أنه أمر لا يستحق أن تفكر به.

- نعم أتذكر ذلك جيدا، لكن إذا أردت رأيي فأنا كنت معتدلًا جدا. يجب عليك أن تفرح لأنني تصرفت معك هكذا، فأنا لا افعله مع أي كان، صدقني. انه تعبير عن تقديري لك، لنذهب سويا إلى مكان ما لكي نتحدث عن مجموعة أشياء. هنا.... - يمط شفته السفلى باحتقار، ثم يضحك، ويقوض كتفيه كأنه يرقص على الكنبة-برونو القديم. قالت لي ديدي أنني أسأت التصرف، حقا.

-هل أنت مصاب بالزكام، وهل تشعر الآن أفضل؟

-لم يكن زكامًا، جاء الطبيب، وبدأ يحدثني عن أعجابه الشديد بالجاز، ودعاني لزيارة بيته لأستمع إلى بعض الأسطوانات. أخبرتني ديدي أنك أعطيتها بعض النقود.

- لتعين نفسك حتى يحين استلام الفلوس، كيف كانت تلك الليلة؟

-حسنا، لدي رغبة في العزف بل الآن أريد أن أعزف لو كنت امتلك ساكسفون، لكن ديدي أصرت على أن تحمله معها إلى المسرح. كانت آلة ساكسفون عادية، خيل لي بالأمس أنني كنت أمارس الحب في حين أنا أعزف لو أنك رأيت وجه تيكا عندما فرغت من العزف. هل كانت تيكا تشعر بالغيرة؟

طفقوا يضحكون بصوت عال، فوجد جوني الوقت مناسبًا لأن يركض نحو الاستوديو وهو يقفز فرحا، دخل هو وآرت ورقصا بلا موسيقى، لكنهما أخذا يحركان الحواجب نحو الأسفل والأعلى لضبط الإيقاع، كان من المستحيل تهدئة آرت أو جوني، سأكون كمن يعاند الريح كيلا تهب علينا، تناقشنا أنا ومارسيل وتيكا عن انطباعاتنا حول عرض الليلة. كان مارسيل متأكدًا بأن جوني سيستعيد النجاح الذي حققه عام 1951عندما قصد باريس لأول مرة، فالذي حدث بالأمس جعلني متأكدًا إن الأمور ستمضي على ما يرام، على اية حال كل ما بوسعي عمله هو أن اجلس في الصف الأول وأصغي إلى السمفونية، على الأقل أنا متأكد أن جوني لم يتناول الحشيش كما حصل في تلك الليلة في بالتيمور، عندما حدثت تيكا بذلك ضغطت على يدي وكأن كلامها جاء على مزاجها. ذهب كل من آرت وجوني نحو البيانو، في حين آرت كان يشرح لجوني موضوعًا جديدًا وهو يهز رأسه ويدمدم باستحسان، كانا انيقين وهما يرتديان بدلة رمادية، بالرغم من أن جوني شوهته السمنة التي اخذت تتراكم في تلك الفترة.

تحدثنا مع تيكا عن ليلة بالتيمور، عندما كان جوني يعاني من أزمة حادة، في حين نحن نتحدث حدقت في عيني تيكا، لأنني كنت أريد أن أتأكد من أنها تفهمني، ستفشل السمفونية وسينهدم كل شيء لو أفرط جوني في شرب الكونياك أو التدخين، فباريس ليست كازينو في قرية والجميع يراقبون جوني. ولكنني كلما فكرت بالأمر لا أستطيع أن اتحاشى مرارة في فمي، وغضب لا ينصب على جوني بل على الأشياء المحيطة به، بالأحرى على الناس المحيطة به، الماركيزه ومارسيل على

سبيل المثال، لأننا جمعينا شلة تضمر في أعماقها الكثير من الأنانية، نسعى لأن ننقذ جوني لكن في واقع الحال نحاول أن ننقذ صورتنا عنه، لكي ننعم بما يمنحه لنا جوني، نلمع التمثال الذي شيدناه سوية ونحميه مهما كلف الأمر. ففشل جوني سيضر بكتابي (لأن الترجمة الإنكليزية والإيطالية على وشك أن تصدر)، لربما مثل هذه الأسباب تجعلني أهتم بجوني.

أما مارسيل وآرت فهما بحاجة إليه لكسب قوتهما، والماركيزه لو عرفت ما تريده الماركيزه من جوني إضافة إلى موهبته، فكل هذا لا علاقة له بجوني الآخر، وبغتة فكرت لربما أراد جوني أن يقول لي هذا عندما كشف البطانية عن نفسه وبدا عاريًا كالدودة. جوني بلا ساكسفون، جوني بلا ملابس ولا نقود، جوني المهوس بشيء لم يسعفه ذكاؤه أن يعرف ما هو، لكنه يطفو رويدا مع الموسيقى، ويداعب جسده أو لربما ليهيئه حينما يقفز بطريقة لن نفهمها أبدا، لو انهالت مثل هذه الأفكار على بال أيا كان ستعكر مزاجه، وكل صراحة العالم لا تساوي لحظة اكتشافه لنفسه أنه مجرد مخلوق تافه بالنسبة لجوني كارتر، والآن جاء ليشرب الكونياك وهو يجلس على الكنبة وينظر الي مرتاحًا. لقد حان الوقت لأن نذهب سويا إلى صالة بليل، لعل الموسيقى تنقذ ما تبقى من الليل، وننجز أسوأ مرحلة فيه، لربما نبدو بمظهر لائق أمام المرآة، أو لنمح من الخارطة ولو لفترة وجيزة من الزمن.

كما هي العادة سأكتب غدا مقالة عن الجاز الصارخ وعن سمفونية هذه الليلة. لكن هنا، وأنا جاثم على ركبتي ليس لدي أدنى رغبة كناقد في خربشة كتابات بين فترات الاستراحة، أعنى أن أبدي رأيا سديدًا.

أعلم جيدا أن جوني لم يعد عازف جاز فحسب وموهبته في الموسيقى أصبحت مجرد واجهة، يمكن لجميع الناس أن يفهموها ويعجبون بها لكنها لا تخفي شيئا آخر، وهذا الشيء الآخر هو المهم بالنسبة له، لربما لأنه الشيء الوحيد الذي يهتم به جوني حقا.

من السهل أن نقول ذلك، في حين ما زلت أسمع موسيقى جوني. وعندما يهدأ... لماذا لا أستطيع أن أفعل مثله، لماذا لا أستطيع أن أضرب رأسي بالحائط؟ أضع الكلمات بدقة أمام الحقيقة كما يصفونها لي، فألجأ إلى اعتبارات وظنون ما هي ألا سوى جدل غبي. لربما بدأت افهم لماذا نجثو على ركبتينا حينما نصلي، فتغير وضعنا ما هو إلا رمز لتغيير نبرة الصوت، فينطق الصوت لما تم التعبير عنه. لما أمعنت بتغيير الأشياء التي بدت منذ برهة اعتباطية أجدها عميقة المعنى، ثم تمسي بسيطة بشكل استثنائي لكنها في آن تغرق. فمارسيل وآرت لم ينتبها بالأمس أن جوني لم يصب بالجنون عندما مشى حافي القدمين في صالة التسجيل، لكنه في تلك اللحظة كان بحاجة لأن يطأ الأرض بقدميه ليؤكد أن الموسيقى تلتصق بها ولا تهرب منها. وأنا أشعر أن جوني هو هكذا، فهو لا يهرب من أحد، لا يتعاطى الحشيش ليهرب كما يفعل كل التافهين، فهو لا يعزف الموسيقى لينكمش على نفسه في حفرة الموسيقى، ولا يمضي منطويًا على نفسه في مصح نفسي ليحتمي من الضغوط التي يعاني منها، حتى أسلوبه أكثر اصالة مما يمتلكه، هذا الأسلوب الذي يستحق وصفا متكاملًا دون أن يحتاج لأحد. لقد أهمل جوني اللغة الساخنة السائدة منذ عشرة أعوام، لأنه وجدها سلبية.

لان في مثل حالته تسبق الرغبة المتعة وتحبطها، لأن الرغبة تشترط التقدم. لذلك أظن أن جوني ليس معجبا بالبلوس، التي تتصف بالشوق والحنين.... لقد تحدثت عن كل هذا في كتابي، لأثبت بأن الاكتفاء غير المباشر جعل جوني يبتدع لغة حملها هو والموسيقيون الحاليون كخيار محتمل.

لقد تجاوز هذا الجاز الرغبة الشبقية السهلة، أي كل القيم الجمالية لفاغنر أن كان بوسعي أن أعبر عنه هكذا لأضعه في أفق مفتوح بما فيه الكفاية حيث تمتعت فيه الموسيقى بحرية كاملة، كلوحة فنية تطرح موضوعًا بحرية لتبقى مجرد لوحة. لكن عازف الموسيقى لا يفسح المجال للرغبة الشبقية أو الحنين، فالموسيقى أود لو أطلق عليها أسم ميتافيزيقيا، كأن جوني يتعامل معها لكي يستثمرها، لكي يعض الحقيقة التي تهرب منه في كل يوم. رأيت التناقض في أسلوبه، وفي كفاءته العدائية فهو غير قادر على الاكتفاء، كأنه مهماز لا يتوقف، بناء بلا نهاية متعة لا تكمن في بلوغ أعلاه بل في تأكيد ما اكتشفه، في نموذج موهبة تهمل كل ما هو إنساني دون أن يفقد إنسانيته، ولما يهيم جوني كما في تلك الليلة في أبداع موسيقي لا يتوقف، أعلم جيدا أنه لا يهرب من شيء. فالذهاب إلى اللقاء ليس هروبًا، بالرغم من أننا نتملص كل مرة من مكان الموعد، وكل ما يبقى خلفنا، كان جوني يتجاهله ويزدريه. فالماركيزه على سبيل المثال كانت تظن أن جوني يخشى الفقر، لكنها لم تكن تعرف أن الشيء الوحيد الذي ممكن أن يخيف جوني هو ألا يجد قطعة لحم عندما يمسك بالسكين حينما يشتهي أن يأكلها، أو ألا يجد سريرًا عندما يشعر بالنعاس، أو مجرد عشرة

دولارات في محفظته عندما يريد أن يمتلكها. فجوني لا يتعامل مع عالم المجردات مثلنا، لهذا السبب تبدو الموسيقى التي يعزفها تلك الموسيقى الرائعة التي سمعتها تلك الليلة خالية من كل شيء مجرد، وهو وحده يستطيع أن يحصي ما يحصده عندما يعزف. لربما هو الآن مشغول بشيء آخر، ليهيم في حدس آخر أو شك آخر، فسيطرته كما الحلم، ينساه حينما يستيقظ مثل التصفيق الذي يأتي فيما بعد، فهو يعيش بعيدًا عن غرفته الحالية بدقيقة ونصف، كأنه يعيش معلقًا في منتصف مانعة الصواعق أو في وسط عاصفة ويظن أنه لن يصاب بشيء.

التقيت بعد أربعة أو خمسة أيام بآرت بوكايا في دوبونت الواقع في الحي اللاتيني، ولم يتجرأ أن يحدثني عن الأخبار السيئة إلا بعد حين. لقد اقتنعت أنه لن يبقى لي سوى أن أتوقع المصائب، لأنني أعلم أن الهدوء لن يدوم طويلًا وفكرت بالعواقب التالية في حين العزيز جوني جعل معدتي تتلوى.

شربت كأسي كونياك في حين آرت سرد علي ما حدث وباختصار يبدو أن في ذلك المساء كان دلوني يحضر لجلسة تسجيل ليقدم شريطًا جديدًا لجوني برفقة آرت ومارسيل كافوتي وأثنين من الفتيان في باريس الذين يجيدون عزف البيانو. كان المفروض أن تبدأ الجلسة في الساعة الثالثة عصرا ليعملوا طوال اليوم وجزء من الليل بحماس وينجزوا بعض الأشياء، لكن ما حدث أن جوني وصل في الساعة الخامسة، بعد أن أخذ دلوني يغلي غضبا، وبعد أن جلس على الكرسي قال إنه ليس على ما يرام وجاء فقط كيلا يعكر عليهم يومهم، لكن ليس لديه أي رغبة في العزف.

حاولنا أنا ومارسيل أن نقنعه أن يأخذ قسطا من الراحة، لكنه لم يكف عن الكلام عن حقول من التوابيت وجدها، وأستمر يتحدث عنها لمدة نصف ساعة. وفي النهاية أخذ يخرج عشرات الأوراق كان قد كدسها في مكان ما وفي جيوبه حتى أن الشقة بدت كحديقة جوراسيه. سار الموظفون رواحًا ومجيئًا وقد ارتسمت على وجوههم الحيرة، ولم نسجل شيئا، أما مهندس الصوت مكث يدخن لمدة ثلاث ساعات في الكابينة، وفي مدينة مثل باريس هذا شيء كثير لمهندس صوت.

في نهاية الأمر أقنع مارسيل جوني أن يجربا فأخذا يعزفان في حين نحن نراقبهم عن كثب، أو بعبارة أدق أن ننفض عنا التعب الذي اعترانا بسبب الخمول، بعد لحظة انتبهت أن عضلة ساعد جوني مصابة بتشنج، ولما بدأ يعزف بدى مفزعًا. كان وجهه رماديًا، تعتريه قشعريرة من حين لأخر: لم أر اللحظة التي سقط بها على الأرض، ثم أطلق صرخة، ونظر إلينا واحدًا تلو الآخر، وساءلنا ما الذي ننتظره لنبدأ معزوفة آمورس. والتي ألفها آلامو. أشار دلوني إلى مهندس الصوت، وبذلنا أقصى جهدنا، في حين جوني جلس مباعدًا ما بين ساقيه فجلس كعلبة لها راس، ثم نهض ليعزف أقسم أنني لم أسمع عزفا كهذا ابدا. وأستمر لمدة ثلاث دقائق بعدها بغتة أطلق زفرة بوسعها أن تدمر تلك المقطوعة السماوية، ثم أنزوى في ركن وتركنا لننجز الأشياء مبهورين، وانتهى بنا الأمر على أفضل ما يرام." لكن الآن جاء الأسو، لما فرغنا من العمل، أول شيء قاله جوني أن كل الأشياء بدت له كالشيطان، وأن هذا التسجيل لا قيمة له. طبعا، لا نحن ولا دلوني أعرنا له اهتمامًا. بالرغم من الهفوات التي حصلت كان عزف جوني المنفرد يساوي ألف معزوفة

تستمع لها يوميًا، انه عزف مختلف لا أقوى على توضيحه.... ستسمعه، ولن يفكر دلوني ولا الفنيون بإلغاء التسجيل. لكن جوني أصر كما المجنون، وهدد بتحطيم زجاج الاستوديو إن لم نؤكد له بإلغاء التسجيل، وبعدها جاء مهندس الصوت باي تسجيل واقنعه به، بعدها أقترح جوني أن نسجل معزوفة ستربومسين، التي كانت أفضل من سابقتها وفي الوقت نفسه جاء الأسوأ، ما أريد أن أقوله كانت أسطوانة مدورة متكاملة، لكن لن تصدقني إن قلت إن جوني كان يتنفس آمورس."

تنهد آرت بعد أن أنتهى من احتساء الجعة ونظر الي مستاء. سألته ما الذي فعله جوني بعد ذلك، قال لي أنه بعد ان أرهق الجميع بقصصه عن الأوراق المتناثرة والحقول التي تغص بالتوابيت، رفض أن يعزف وخرج متعثر الخطى من الاستوديو. فأخذ منه مارسيل الساكسفون لكيلا يضيعه مرة أخرى أو يركله. وتعاون معه أحد الفتيان الفرنسيين لحمله إلى الفندق.

ما الذي بوسعي أن افعله سوى الذهاب على الفور إلى الفندق لرؤيته؟ لكنني تركت الموضع لليوم التالي. بيد أنني في الصباح التالي قرأت اخبار جوني على صفحة حوادث صحيفة الفيغارو، وعلى ما يبدو أن جوني سبب حريقًا في الفندق وخرج مهرولًا في الممرات وهو عار. لقد بدا هو وديدي هادئين، لكن جوني رقد في المستشفى ووضع تحت المراقبة. اطلعت زوجتي على الخبر أما هو كان في حالة نقاهة، ذهبت على الفور إلى المستشفى لكن هويتي الصحفية لم تسعفني بشيء، كل ما استطعت أن أعرفه أن جوني كان يهذي بعد أن دخن كمية من الحشيش تسبب الجنون لعشرة أشخاص. ولم تعد المسكينة ديدي

قادرة على المقاومة لأن تقنعه أن يكف عن التدخين: كل نساء جوني ينتهي بهن الأمر أن يتواطأن معه، بالرغم من أنني على يقين أن الحشيش جاء بها الماركيزه.

في نهاية الأمر، قصدت بيت دلوني لأطلب منه أن أسمع معزوفة آمورس بأقرب وقت ممكن. سأعرف بأن آمورس هي شاهد على جوني المسكين، أنها مهمتي المهنية...

لكن لا، مازالت الأمور ليست على ما يرام. بعد خمسة أيام اتصلت بي ديدي لتخبرني بأن جوني قد تحسن ويريد رؤيتي. فضلت ألا ألومه، أولا لأنني سأضيع الوقت معه، وثانيًا لأن صوت ديدي المسكينة كأنه يخرج من أبريق مكسور. وعدتها أن أزورها قريبًا، وإذا تحسن جوني سنقوم بجولة في مدن المحافظات ثم توقفت عن الكلام عندما بدأت ديدي تذرف الدموع.

كان جوني يستلقي على السرير، في صالة تضم مريضين آخرين، من حسن الحظ كانا نائمين. قبل أن أتفوه بأية كلمة أمسك برأسي وطفق يقبل جبهتي وخدودي. بدا هزيلًا بشكل مروع، بالرغم من إنه ذكر لي إنه أكل كثيرًا وشهيته مفتوحة للأكل، أشد ما يثر قلقه هو خشيته إن كان الفتيان يتحدثون عنه بسوء، وهل أزمته سببت ضررا للبعض، وكلام على هذه الشاكلة. الرد على تساؤلاته لم يكن مجديا، فهو يعلم جيدا أن السمفونيات قد الغيت وأن هذا الأمر سيضر بآرت ومارسيل والبقية، لكنه سألني وكأنه يتوخى حدوث شيء جيد، شيء ما قد يصلح الأشياء، لأنه لا يريد أن يخدعني، لكنه مازال غير مبال،

لأن جوني تسيطر عليه لعنة ليذهب كل شيء إلى الجحيم، وأنا أعرفه جيدا لذلك لا أعيره اهتمامًا.

-ما الذي تريد أن تقوله يا جوني، بأن الأشياء قد تكون أفضل مما كانت، أو إنك تملك موهبة تدمير الأشياء.

-نعم أنا لا أستطيع أن أنكر-قال جوني متعبًا -إنه ذنب التوابيت.

تذكرت كلمات آرت فمكثت أحدق به

-كانت حقول تغص بالتوابيت يا برونو. أكداس من صناديق غير مرئية، مدفونة بحقول شاسعة. كنت أسير هناك ومن حين لأخر كنت أتعثر بها، ستقول بأنني أحلم. نعم هكذا كان الأمر أنظر: من حين لأخر كنت أعثر بأحد التوابيت، وبعدها انتبهت إلى أن الحقل كان يغص بها، ويوجد منها الآلاف، وكل تابوت يضم رماد موتى، أتذكر أنني جلست وأخذت أحفر بأظافري حتى ظهرت احدى تلك التوابيت للعيان. نعم أتذكر ذلك. ثم طرقت مفكرًا: "سأفرغ هذا لأنه يخصني" لكن لا، كان ممتلئًا برماد رصاصي اللون كما كان حال البقية بالرغم من أنني لم أر ما في داخلها. حينذاك.... حصل ذلك عندما بدأنا نعزف مقطوعة آمورس، أظن ذلك.

نظرت بحذر إلى درجة الحرارة. كانت عادية، لكن من يعرف كيف ستكون بعدها. أطل طبيب شاب على الباب، سلم علينا بإيماءة من رأسه ثم أشار لجوني بارتياح، إشارة رياضية ليعبر عن رضاه عنه. لكن جوني لم يجبه، وعندما ذهب الطبيب دون أن يغلق الباب، رأيت جوني أغلق قبضتيه.

-لن أفهم هذا -قال لي-كأنهم قرود يغطيهم الريش، أو كفتيات معهد موسيقى مدينة كنساس اللواتي يظننن أنهن يعزفن لشوبان، وليس أكثر. برونو، في كامريو كنت مع شخصين آخرين، وفي الصباح دخل الطبيب نظيفًا ومزهرًا يبعث على البهجة. كأنه أبن مناديل الكلينكس أو الكريم، أبله الشكل، جلس إلى جانبي ليشجعني، في حين أنا كنت أتمنى الموت، لذلك لم أفكر بلان أو أحد آخر. بدا عليه الاستياء. يبدو أنه توقع أن أجلس على السرير، فهو كان معجبا بوجهه الصبوح وشعره المصفوف واظافره المقلمة كأنه سيشفيني كأولئك الذين يصلون إلى لوردس فيرمون عكازهم ويغادرونها فرحين.

برونو، إنه نموذج كامريو كانوا جميعهم واثقين من أنفسهم. ما الذي تريد أن تعرفه؟ لا أدري، أقسم لك، لكنهم كانوا مقتنعين بعملهم. أظن هذا ما تمليه عليهم شهادتهم. لا، لا ليس الأمر كذلك. بعضهم يظن نفسه إنه معصوم عن الخطأ، لكن حتى اكثرهم تواضعا كان واثقا من نفسه، واثقا لدرجة إنه كان يمنحني القليل في حين إنا المسكين كأن شيطانا اختبأ تحت جلدي يسحقني، كان لدي الوعي الكافي لأدرك أن ما يحيطني كان شيئا هلاميًا يرتجف من حولي، ولم أكن أملك سوى أن أحدق قليلًا أو أشعر قليلًا، أو أصمت قليلًا لكي أكتشف الثقوب، في الباب أو في السرير: فالثقوب تناثرت في اليد وفي الصحيفة اليومية والزمن والهواء: كان كل شيء ممتلئًا بالثقوب، بدا كل شيء كما الإسفنجة، أو كمصفاة منغلقة على نفسها... كانوا كرماد أمريكي، هل تفهم يا برونو؟ فالرماد يحفظ الثقوب، لذلك فهم لا يرونها، ويتقبلون ما يراه الغير، فيظنون إنهم هم من يرى. ومن الطبيعي لم يعد بوسعهم أن يروا الثقوب، كانوا

واثقين من أنفسهم، مقتنعين من مصفاتهم ومن زمنهم وتحليلهم النفسي، أما أنت لا يجب أن تدخن، ولا يجب أن تشرب... وفي اليوم الذي سمحوا لي بالخروج، صعدت القطار، ونظرت من النافذة لأرى كيف تتراجع الأشياء إلى الخلف، وتتوزع قطعا، هل انتبهت كيف تتجزأ الرؤية حينما تنظر من بعيد....

أخذنا ندخن السجائر. لقد سمحوا لجوني إن يشرب القليل من الكونياك ويدخن ما بين ثمان أو عشر سجائر. لكن يبدو أن جسده فقط يدخن لأنه كان في عالم آخر كمن يرفض أن يخرج من البئر. سألني ماذا رأيت، وهل شعرت بشيء في تلك الأيام المنصرمة. لم أشأ أن أثيرة، وتركته يتكلم كما يشاء... يدخن، بصمت ومن حين لآخر يبسط جوني ذراعه ويمرر بأصابعه على وجهي، وكأنه يريد أن يتعرف علي. وبعدها يلعب بسير ساعته. وينطر إليها بحنان.

-يظنون إنهم علماء-قال فجأة-يظنون إنهم علماء لأنهم جمعوا أكداس الكتب وأكلوها. ثم يبتسم، لأنهم في الحقيقة هم ناس طيبون ويعيشون مقتنعين بما يدرسونه، لأن ما يفعلونه أشياء عميقة وانجازها صعب لكنهم في داخل الدائرة هم متساوون يا برونو. فالناس تصنف بعض الأشياء إنها قمة الصعوبة، ولهذا السبب هم يصفقون لعروض الأغراء، أو لي. أنا لا أعرف ما الذي يجول في مخيلتهم، كالعازف الذي يتمزق ليعزف بإتقان، أو من يقوم بعرض مغر فيضطر أن يمزق الأشياء ويقفز، في الحقيقة تبدو الأشياء صعبة وأخرى تبدو مختلفة، لأن الناس يظنون إنهم قادرون على انجاز الأشياء في لحظة، النظر على سبيل المثال، أو أن تفهم لغة الكلب أو القطة، هنا تكمن الصعوبات، الصعوبات الكبرى، كأن يطرأ على بالي أن أنظر

إلى المرآة، وأقسم لك أنني عانيت حينما غادرت السرير. تصور إنك تنظر إلى نفسك: وهذا سبب كاف لأن تبقى ترتجف بردا لمدة نصف ساعة. من المؤكد أنني لست ذلك النموذج، في الوهلة الأولى كنت على يقين أنني لست أنا. تفاجأت، بعد أن علمت بشكل غير مباشر بأنني لست أنا. هذا ما شعرت به، وحينما يشعر أحدهم... كأنه على ساحل جزيرة بالماء، موجة تتلو الأخرى، ثم تليها أخرى... بالكاد تشعر بمجيء الأخرى، فتنهال الكلمات... لكن الأمر لا يتعلق بالكلمات، بل ما تتضمنه الكلمات، ما يلتصق بها من لعاب، فيغمرك ثم تقتنع أن من تراه في المرآة هو أنت. أمر واضح، لكن كيف لك أن تتجاهله. لكنني هكذا، بشعري وندبتي. لكن الناس لا تنتبه أن ما يتلقونه هو اللعاب فقط، لذلك من السهل عليهم النظر إلى المرآة، أو أن يقطعوا الخبز بالسكين. هل قطعت الخبز بالسكين؟

-لقد فعلت هذا-أجبته ممازحًا.

-ومكثت هادئًا. أنا لا أقوى على ذلك يابرونو. ذات ليلة رميت بكل ما كان موجود على المائدة حتى كادت السكين تفقأ عين زبون ياباني كان يجلس على الطاولة المجاورة، حدث ذلك في لوس انجلس، فأثار الزبون ضجة، حينذاك تعرفت على الطبيب كريستس. كان نموذجًا رائعًا، لأنني مع الأطباء...

مرر يديه بالهواء، كمن يريد أن يتحسس الأشياء، ليترك أثاره عليها أو يوسمه بخطواته. لدي إحساس بأنه بمفرده، وحيد تمامًا، شعرت بضعفي وأنا إلى جانبه، لو أن جوني مرر يديه فوقي لقطعني كما الزبدة، أو كالدخان. لربما لهذا السبب تلمس وجهي من حين لآخر بأصابعه حذرا.

-الخبز موجود هنا، فوق الشرشف-قال جوني وهو يجول بنظره في الهواء-إنها قطعة صلبة، لا يمكن أن تنكر ذلك، بالرغم من لونه البهي ورائحته الزكية. أنه لا يشبهني بل مختلف عني بل لا يمت لي بصلة. لكنني لو لمسته ومددت اصابعي وأمسكت به، حينذاك شيء ما سيتغير. أيبدو لك ذلك؟ فأنا لا أتشكل من الخبز ولا أتكون منه لكنني ألمسه بأصابعي وأشعر به أشعر أن هذا هو العالم، لكنني لو كنت أستطيع أن ألمسه وأشعر به حينذاك لن يكون بوسعي أن أقول إنه شيء آخر، هل تظن أن بوسعي أن أقول ذلك؟

-عزيزي منذ الآف السنين حاول الكثير من الملتحين أن يحلوا المشكلة حتى كادت رؤوسهم تنفجر.

-لكن الخبز أمر يومي-دمدم جوني وقد غطى وجهه-أنا بوسعي أن ألمسه، أو أقطعه قسمين ثم أبتلعه بفمي، لن يحدث شيئا، الآن علمت: أن هذا أفظع ما في الأمر، هل انتبهت بانه لن يحدث شيئا؟ لما تقطع الخبز، ثم تغرز به السكين، وكل شيء يسير على ما كان. أنا لا أفهم يابرونو.

بدأت أشعر بقلق نحو وجه جوني، وانفعاله. أصبح من الصعب أن أجعله أن يتكلم عن الجاز، وعن ذكرياته، وعن خططه، أو أعود به إلى الواقع (إلى الوقع، لأن ما أكتبه بدأ يثير اشمئزازي، جوني على حق، فالحقيقة لا يمكن أن تكون هكذا، ليس من المعقول أن أكون ناقد جاز هذه هي الحقيقة، لأن هناك أشياء تبدو ساخرة. لكن ليس من الممكن أن يواصل جوني على هذه الشاكلة لأن سينتهي بنا الأمر جميعنا إلى الجنون)

الآن مكث نائمًا، أو على الأقل قد أغمض عينيه وتماثل للنوم. مرة أخرى انتبهت إلى صعوبة ما يقوم به جوني، ومن هو جوني. سواء كان نائمًا أو استسلم للنوم، أو أظن بأنه قد نام. لأنني بعيد عن جوني مما عن بقية الأصدقاء. لا أحد يمكنه أن يكون سوقيا وعاميًا ومرتبطًا بظروف حياة تعيسة: مقبولًا من قبل الجميع ولو بشكل ظاهري.

لا يوجد أي شيء استثنائي. أي شخص يمكنه أن يكون مثل جوني، أن يكون شيطانا مريضًا وخاويًا بلا إرادة، مفعم بالشعر والموهبة. ظاهريا. أمضيت حياتي وأنا معجب بالعباقرة، كبيكاسو وانشتاين، وتلك القائمة المقدسة التي بوسع كل واحد أن يفبركها بدقيقة (غاندي، شارلي جابلن، سترانفسكي)، وأنا كما الآخرين أتقبل فكرة أن هؤلاء يسيرون فوق الغمام، لذلك ليس من المفروض أن نستغرب عما يصدر عنهم لأنهم مختلفون ولا نقاش في الأمر. بالمقابل لامبالاة جوني أمر مبهم، يغشاه الغموض، وليس لديه أي تفسير. ليس جوني بعبقري، فهو لم يكتشف شيئا، يعزف الجاز كما يفعل مئات الزنوج والبيض، بالرغم من أنه يعزف أفضل منهم جميعا، يجب أن نعترف أن الأمر متعلق برغبة الجمهور والأشكال والزمن بمجمله. على سبيل المثال بانسييه لا يعترف بكفاءة جوني، بالرغم من أننا نجد أن بانسييه هو غير كفء، على أية حال أنها مسألة مفتوحة للجدل. وكل هذا يثبت أن جوني لم يأت من عالم آخر، وكلما فكرت بالأمر أتساءل لأجد أن جوني فعلًا لا يملك شيئا من العالم الأخر (وهو أول من يتجاهل ذلك).

لربما سيضحك كثيرًا لو أخبره أحد بذلك. لأنني أعلم ما يجول بخاطره، وما هي الأشياء التي يحبها، أعني: ما يحب من تلك

الأشياء، لأن جوني... لكنني لن أتطرق لذلك، ما أريد أن أشرحه لنفسي بأن المسافة التي تفصل جوني عنا هي أمر لا يمكن توضيحه، وليس باختلاف ليس له تبرير. أرغب أن أقول بأن جوني كملاك بين الرجال، وأدب السلوك يفرض على ابتلاع الجملة الأولى، وأن أقوم بجولة أخرى، لأعترف أن ربما جوني هو بشر ومن يحيطه به هم ملائكة، حقيقة لا تمثل الواقع لأننا جميعنا هكذا، لربما ولهذا السبب لمس جوني وجهي بأصابعه وجعلني أشعر بالتعاسة وبالشفافية، وبأنني شيء صغير متعاف، بيتي وزوجتي ونفوذي. نفوذي بخاصة. نفوذي بخاصة. لكن كما في كل مرة، خرجت من المستشفى وما أن وطئت قدمي الشارع، والزمن، وكل ما بوسعي أن أفعله هو أن أرمي بالكعكة في الهواء ثم أمضي. يا لجوني المسكين فهو يعيش خارج الواقع. (أنه هكذا، أنه هكذا. من السهل أن أعتقد أنه هكذا، الآن بما أنني في مقهى وبعد ساعتين من زيارتي للمستشفى، وكل ما كتبته سابقا كنت مجبرًا عليه لكي أكون على الأقل نزيها مع نفسي، من حسن الحظ أنه تم ترميم ما أفسده الحريق، لربما الكونتيسه عملت ما بوسعها لترميم ما أفسده الحريق. جاءت ديدي بصحبة آرت لزيارتي في عملي. ذهبنا ثلاثتنا إلى فيكس لنستمع إلى المعزوفة المشهورة-بالرغم أنها مازالت غير معلنة-وأقصد معزوفة آمورس.

في سيارة الأجرة قصت على ديدي بلا رغبة كيف أن الماركيزه أنقذت جوني من الحريق، وما تبقى مجرد فراش محروق وقد حاول بعض الجزائريين المقيمين في الفندق الواقع في شارع لاكرانج أن يقدموا لهم المساعدة. أما الغرامة (فقد دفعت)، وأنتقل إلى فندق آخر بمساعدة تيكا، أما جوني كان

بفترة نقاهة وهو مستلق على سرير آخر أنيق جدا، يشرب الحليب ويقرأ صحيفة باريس مارج أو نيويوركر، في حين يراجع من حين لآخر كتابه الشهير(الممزق) الذي يحتفظ به بجيبه وهو قصائد لديلان توماس تزين حاشيته ملاحظات بقلم الرصاص، برفقة بعض الأخبار وقليل من الكونياك بالقهوة جلسنا في أحد أركان غرفة التسجيل لنستمع إلى آمورس في نادي ستربتيموسين، أطفأ آرت الأنوار ثم أستلقى على الأرض ليستمع أفضل. وحينذاك دخل جوني فشعرنا بهواء موسيقي يلفح وجوهنا، دخل بالرغم من إنه كان في الفندق مستلقيا على سريره، فاكتسحنا بعزف موسيقى على مدى ربع ساعة. أعلم أن طريقة توزيع آمورس تثير غضبه، لأن أيا كان سينتبه إلى الأغلاط، وبخاصة الضربات المحسوسة التي تنتهي بها المقاطع الموسيقية، وتلك النهاية الصاخبة، تلك الملاحظة الصماء الموجزة بدت لي كقلب يتمزق أو كسكين تقطع الخبز. لكن جوني يهرب من كل ما نجده جميلًا ويتشوق للبحث عن كل ما هو مرتجل يهرب بالهروب إلى كل الاتجاهات، والتساؤلات، والمراوغة غير المتوقعة. جوني لا يستطيع أن يفهم (أن ما يظنه هو فشل بالنسبة لنا هو طريق أو على الأقل مؤشر لطريق) أن آمورس ستبقى من أعظم معزوفات الجاز، لأن يجب على الفنان أن يضع في داخله حمى من الغضب في كل مرة يصغي بها لرغبته ولكل ما يريد أن يبوح به وهو يكابد مرتجفًا هاربًا من لعاب فمه برفقة الموسيقى، لأنه أكثر من أي وقت مضى يجابه بمفرده ما يطارده. لأن ما يهرب منه هو اشد مما يطارده. أنه أمر يثير الفضول، من الضروري أن نصغي لهذا بالرغم من أن كل شيء يتطابق معها، مع آمورس، لأنني أعرف أن جوني ليس بضحية، ليس بمطارد كما يظن كل الناس

(أظن أن النسخة الإنكليزية اوشكت على الصدور وستباع كما الكوكا كولا).

لكنني أعلم أن الأمر لم يكن هكذا، وأعلم أن جوني يطارد بدلا من أن يكون مطاردًا، وكل ما يحدث له في الحياة هي مخاطر صياد وليس ما يحدث لحيوان محاصر. لا أحد يستطيع أن يعرف ما الذي يطارده جوني. لكنها أمور موجودة هنا في آمورس، في الحشيش، وفي محادثاته المملة عن الأشياء، وفي انتكاساته، وفي كتاب ديلان توماس، في كل شيطان مسكين الذي هو جوني ليكبر ويصبح كائنًا لا يطاق، ليتحول إلى صياد بلا ذراع وبلا سيقان، أو إلى أرنب يطارد نمرا نائمًا. فأجد نفسي مضطرًا لأن أقول بأن آمورس بعثتني على التقيؤ، كيف لي أن أنعتق منها وكل ما فيه يسير ضد رغبتي بل ضد رغبة الجميع، تلك الكتلة السوداء بلا يدين ولا قدمين، ذلك الشمبانزي المجنون الذي يمس وجهي بأصابعه ثم يبتسم لي بحنان.

آرت و ديدي لا يريان (وأظن أنهما لا يريدان أن يريا) سوى الجمال الظاهري لمعزوفة آمورس. حتى أن ديدي تعجبها أكثر ستربتوميسين، التي أرتجل فيها جوني العزف بسلاسة، وما يفهمه الجمهور بأنه تكامل من وجهة نظري أجده أن جوني يتسلى، فيترك الموسيقى تسير من جانب وهو في الجانب الأخر. لما خرجنا إلى الشارع سألت ديدي ما هي خططهم، فقالت لي أن جوني يغادر الفندق بصعوبة (لأن الشرطة منعته من الخروج) وهناك شركة تسجيلات تسجل له كل ما يريده من معزوفات وستدفع له مبلغًا جيدا. كان آرت يؤيد أن جوني لديه أفكار رائعة، وسينجز هو ومارسيل روائع موسيقية برفقة جوني، بالرغم من أنه في الأسابيع الأخيرة لم يحقق شيئا،

وعلمت من جانبي بأنه أجرى اتصالات مع البعض للعودة إلى نيويورك في أسرع وقت ممكن. أستطيع أن أفهم الوضع المحبط للفتى.

-لقد أحسنت تيكا العمل-قالت ديدي بتعقل -طبعا فالأمر بالنسبة لها بسيط. تصل دوما في اللحظة الأخيرة، وما عليها سوى أن تفتح حقيبتها وترتب كل الأمور، في حين أنا ....

نظر أرت وديدي إلينا. ماذا يمكن أن نقول له؟ فالنساء يمضين حياتهن بالدوران حول جوني أو من أمثال جوني. ليس من الضروري أن تكون أمرأه لكي تنجذب نحو جوني. لكن من الصعب أن تدور حوله دون أن تختل المسافة كقمر اصطناعي صحيح المسار، أو كناقد جيد. لم يكن آرت حينذاك في بالتيمور، لكنني أتذكر تلك الأيام التي التقيت بها جوني، حينما كان يعيش مع لان وبقية الفتيان.

رؤية لان تثير أسفي، ولكن بعد التعامل مع جوني، بدأت أتقبل رويدا عالم موسيقاه ويومياته وشرحه غير المفهوم لأشياء لم تحدث أبدا، ودفقات مشاعره الحنون. حينذاك سنفهم لماذا ارتسمت على وجه لان تلك التعابير أذ من المستحيل أن ترسم تعابير أخرى وهي تعيش مع جوني. كانت تيكا مختلفة، فهي تمضي في دروب البحث عن المتعة، عن الحياة الواسعة، ومؤخرتها تلتصق دوما بالدولار والذي هو أكثر فعالية من مدفع رشاش، أو على الأقل هذا ما كان يقوله آرت عندما يبدي امتعاضه منها أو حينما يصاب بصداع.

- تعال مبكرًا-طلبت ديدي ذلك مني-فهو يستمتع بالحديث معك.

كنت أود أن أتحدث معها حول الحريق (عن سبب الحريق، وهل كان حقا مؤامرة) لكن من غير المجدي أن أتحدث به مع جوني الذي من المفروض أن يتحول إلى أنسان ملتزم. سارت الأشياء على ما يرام، لكنني كنت قلقا بالرغم من أمور جوني تسير على ما يرام وبدأت أشعر بالغبطة، لكنني لست مغفلًا لأصدق رد فعل ودي اعتباطي، كمن يؤجل شيئا أو يطلق زفيرًا. لا أحتاج أن أبحث عن تفسير حينما أشعر بوضوح كيف يلتصق الأنف بالوجه، وأنزعج جدا كلما فكرت أنني الوحيد الذي أشعر به وما يعانيه طوال الوقت، فأستشاط غضبا حينما أجد آرت وتيكا وديدي لا يعيرون انتباهًا لمعاناة جوني، سواء يذهب إلى السجن، أو يقتل أحدا، أو يحرق الفراش أو يجري عاريًا في ممرات الفندق، كأنه يدفع شيئا من أجلهم أو يموت أيضا من أجلهم.

فهم ليسوا كالذين يلقون خطابًا على مشنقة أو يكتبون كتبا للتنديد بمساوئ الإنسانية أو يعزفون البيانو في الهواء ليغسلوا ذنوب العالم، لاسيما عازف الساكسفون المسكين، بكل ما تمتلكه كلماته من سخرية، واشياء قليلة، فهو واحد من بين العديد من العازفين المساكين.

أسوا ما في الأمر هو أنني لو واصلت على هذه الشاكلة سأكتب عن نفسي التعيسة أكثر مما أكتب عن جوني. كنت أبدو كما قارئ الإنجيل ولكنني لم أعد اكترث للأمر. حينما عدت إلى البيت خطر على بالي أن السخرية ليست كافية لاستعادة الثقة، لقد ذكرت الجانب المرضي من شخصيته بشكل عابر في كتابي حول جوني. لم يكن يبدو لي من الضروري أن أشرحه للقراء وما يظنه جوني أنه يسير في حقول ممتلئة بالتوابيت، أو أن

الرسوم تتحرك حينما ينظر لها، أو أشباح من الحشيش، وفي نهاية الأمر إلى قداس لإزالة السموم.

لكن يمكنني أن أقول إن جوني سيترك تلك الأشباح، ليضعني كما العديد من المناديل في الجيب حتى تحين ساعة استعادتها، وأظن أنا الوحيد الذي يمكنني أن أتحمل ذلك، وأتعايش معهم وأخشاهم، ولا أحد يعلم ذلك ولا حتى جوني. لا أحد يستطيع أن يعترف لجوني بهذه الأشياء، فهو كمن يعترف لرجل كبير، أو إلى معلم يهيننا مقابل نصيحة يسديها إلينا.

أي عالم هذا الذي يحملني أشياء كرزمة ملابس بالية؟ أي نوع من الإنجيليين أنا؟ جوني لا يمتلك شيئا من العظمة، علمت هذا منذ أن تعرفت عليه، منذ أن ابتدأت أعجب به. ولم أعد أندهش به، بالرغم من إنه بدا لي أمرا محيرًا أي انعدام العظمة، ربما لأننا لا يمكن تطبيقها على أول من نصادفه، وبخاصة عازف الجاز.

لا أعرف لماذا (لا أعرف) أظن في لحظة ما أن جوني يمتلك تلك العظمة لكنه أخذ يكذبها اليوم تلو الآخر (أو نحن نكذبها، لكن في الواقع الأمر ليس سيان، لنكن صادقين، لان في داخل جوني يوجد شبح آخر لجوني لم يستطع أن يكون مثله، وجوني الآخر هو الذي ممتلئ بالعظمة، يمكننا أن نلاحظ أن هذا الشبح تنقصه الأبعاد لكنه قادر على احتوائها واثارتها) أقول هذا بسبب المحاولات التي قام بها جوني لتغيير حياته، منذ فشل محاولته في الانتحار حتى الحشيش، وهذا ما يتوقع من أحد بلا عظمة مثله. أظن أنني إلى حد الآن معجب به، لأنه حقا الشمبانزي الذي يرغب بتعلم القراءة، نموذج مسكين يضرب

رأسه بالجدران ولكنه لا يقتنع، ثم يعود ليبدأ، لكن إذا تعلّم ذلك الشمبانزي القراءة ذات يوم، سيصاب الجمهور بالإفلاس والفوضى، فهل يمكننا أن ننقذ ما تبقى، وأنا أول شيء.

أنه لأمر مرعب أن شخصا بلا عظمة أن ينقلب بهذه الطريقة ضد الجدار، يهددنا جميعا بتحطيم عظامه، فيمزقنا بأول جملة موسيقية. (الشهداء، والأبطال، متفقون: بأن أي شخص سيكون مطمئنًا برفقتهم، لكن جوني!)

أما العواقب لا أقوى على التحدث بها، لأنها عبارة تبسط ذراعها بقوى فتكون عاقبتها لحياة الإنسان مفزعة أو بلهاء، دون أن نعلم أي قانون من القوانين المدرجة قاصدًا تقرر أي مكالمة هاتفية سنستلمها لتخبرنا عن وصول أختنا التي تسكن اوفارينا، أو سنأوي إلى فراش من نار، أو نرى من الشرفة فتى تدعسه سيارة.

كما هو الحال في فريق كرة القدم أو اللجان التنفيذية، يبدو أن المصير هو الذي يحدد سقوط العناوين، هذا الصباح، غمرتني الغبطة لأن جوني كارتر بدأ يتحسن وبدا فرحا لكنهم اتصلوا بي على المكتب، إنها تيكا أخبرتني أن بي ماتت في شيكاغو، الأبنة الصغرى لجوني ولان، ومن الطبيعي أن يبدو جوني كما المجنون فضلت أن أذهب لأساعد أصدقائي. عدت لأصعد سلالم الفندق-تدفعني صداقتي الطويلة مع جوني-التقيت بتيكا وهي تتناول الشاي مع ديدي برفقة آرت ديلوني وبيبي راميرث وهم يتحدثون بصوت منخفض عن آخر أخبار ليستر يونغ، كان جوني هادئًا جدا يستلقي في سريره ويضع على جبينه منشفة كان الجو هادئًا تمامًا ومتماسكًا.

وفي الحال استجمعت نفسي بالرغم من كل الظروف وصافحت يد جوني بقوة ثم أشعلت سيجارة وجلست منتظرا.

- برونو أشعر بألم هنا-قال لي جوني بعد برهة وقد لمس قلبه- برونو كانت مثل حجارة بيضاء في يدي، وأنا مجرد حصان أصفر، ليس أكثر من ذلك، لم أجد أحدا يمسح دموع عيني.

بالرغم من كل ما دار من حوار أو ما كتب عنه، كانت تيكا تنظر لآرت، وهما يتحاوران بإشارات متزنة، مستغلين وضع جوني بعد أن غطى وجهه بمنشفة ولم يعد يستطيع أن يراهم. أنا شخصيًا أتقزز من الجمل الرخيصة، ولكن هذا ما قاله جوني، أو لربما قرأه في كتاب ما، بدوا لي كقناع فارغ يتكلم بلا محتوى.

جاءت ديدي بمنشفة أخرى وبدلتها له، وفي تلك اللحظة استطعت أن أرى وجه جوني كان رماديًا كما الرماد، في حين تهدل فمه وغارت عيناه كأنهما مطبقتان، وكما هو الحال مع جوني، سارت الأشياء بطريقة مختلفة عما كان يريده. أما بيبي راميرث فهي ليس لديها أدنى فكرة حتى الآن بسبب مباغتة المفاجئة أو لربما بسبب الفضيحة لأن بعد برهة أعتدل جوني ليجلس في سريره وأخذ يكيل الشتائم ببطء كأنه يمضغ الكلمات ويفلتها كالمصاب بجلطة فأخذ يكيل الشتائم للذين اشرفوا على تسجيل آمورس، دون أن ينظر لأحد لكنه يرمينا بكلمات ثقيلة كأننا حشرات في صندوق ورقي ومضت دقيقتان يشتم كل من ساهم في آمورس ابتداء من آرت ديلوني ومرورًا بي(بالرغم من أنني...) وانتهاء بديدي حتى يسوع إلى الحد الذي سحق فيه الجميع دون أي توضيح، كل ذلك كان في داخله، وتلك الحجارة

الصغيرة البيضاء، والصلاة الجنائزية لبي، بعد أن ماتت في شيكاغو من جرّاءِ من الالتهاب الرئوي. مرت خمسة عشر يومًا خاوية: كثير من العمل، ومقالات في الصحافة، وزيارات هنا وهناك-أنها ملخص حياة ناقد، الإنسان الذي يقتات على الآخرين، وعلى ابداعاتهم وقراراتهم. كنت أتحدث ذات ليلة مع تيكا وبيبي لونكس في مقهى دفلور، ندردش بسعادة بعيدًا عن كل شيء ونناقش عزف البيانو لبيلي تايلور الذي أبدينا اعجابنا به نحن الثلاثة، وبخاصة بيبي ليونكس والتي كانت ترتدي ملابس من سان جيرمان لو تخيلت كيف كانت تبدو بيبي، كأنها تريد أن تظهر لجوني نشوة عمر سنواتها العشرين، في حين جوني كان ينظر لها دون أن تثير انتباهه، بل جلس منفردًا على طاولة أخرى، شبه نائم أو مخمور. شعرت بيد تيكا على ركبتي.

-لقد عاد ليدخن هذه الليلة، أو مساء، إنها تلك المرأة...

أجبتها دون رغبة بأن ديدي تتحمل الذنب كالبقية، هي من بدأت تدخن مع جوني عشرات المرات وتعاشره كلما تراودهم الرغبة في ذلك. انتابتني رغبة في المغادرة أو أن أكون وحيدا، كما العادة من الصعب الاقتراب من جوني، أو أن تجلس إلى جانبه. كان يرسم بأصبعه على الطاولة، وينظر إلى النادل الذي يسأله ماذا يريد أن يشرب، وبعدها رسم جوني في الهواء سهما ثم أسنده بكفه وكأن جريمة ستحدث في حين ساد ضجيج فرح على طاولات الزبائن الأخرى كما هو الحال في مقهى دفلور. حينذاك قالت تيكا: "اللعنة" ثم انتقلت إلى طاولة جوني، بعد أن طلبت من النادل أن يكلم جوني هامسا في أذنه. وغني عن القول بأن بيبي تريد تنفيذ رغباتها بأسرع وقت، قلت لها هامسا

أننا يجب أن نترك جوني هذه الليلة ليرتاح وأن الفتيات الطيبات يذهبن باكرا إلى الفراش، ويمكن برفقة ناقد جاز. ضحكت بيبي بلطافة، واخذت تداعب شعري، وبعدها جلسنا هادئين ونحن نراقب الفتاة التي غطت وجهها بالرصاص الأبيض ولونت حول عينيها باللون الأخضر.

قالت بيبي أن شكلها مألوف، وأنا طلبت منها أن تغني بصوت منخفض إحدى أغاني البلوز التي ذاع صيتها في لندن وستوكهولم. وبعدها عدنا إلى أغنية (العدم)، التي كانت تطاردني في تلك الليلة بشكل متكرر كما الكلب وكما يطاردني ذلك الوجه المغطى بلون الرصاص واللون الأخضر الذي يحيط بالعينين.

مر من هنا اثنان من الفتيان الخمسة الذين هم أصدقاء جوني، فانتهزت الفرصة لأسألهم كيف حاله في تلك الليلة، علمت أن جوني بالكاد تمكن من العزف، لكن ما عزفه يساوي كل أفكار جون لويس، لو افترضنا أن هذا الأخير يمتلك فكرة لأنه كما قال أحد الفتيان كل ما يملكه هو مجموعة نوتات مضطربة قد تغمر حفرة. تساءلت كثيرًا عن الجمهور الذي يؤمن بجوني. رفض الفتيان احتساء الجعة. مكثت برفقة بيبي بمفردنا فاضطررت مرة اخرى أن أتنازل لها واجيب على أسألتها، لان شهرته تفرض علي ذلك، سألت عن سبب مرض جوني وهل تعافى، ولماذا الفتيان يبدو عليهم الضجر، لماذا الأشياء تبدو ستنفجر كما انفجرت أنا في سان فرانسيسكو وفي بالتيمور وفي نيويورك ومئات الأسئلة. دخل موسيقيون آخرون يعزفون في الحي، ذهب بعضهم إلى طاولة جوني ليسلموا عليه، أما هو فبدا من بعيد، ابله الوجه مروعًا، عيناه رطبتان وديعتان، وفمه لا

يبتلع اللعاب الذي يلتمع على شفتيه. من الطريف أن نراقب إيماءات تيكا وبيبي، حاولت تيكا أن تعزل جوني عن البقية وذلك بالحديث على عجل وهي مبتسمة. أما بيبي أخذت تهمس بأذن جوني لتعبر عن اعجابها وتطرح عليه فكرة معالجته في مصح متخصص بالإدمان، وكل هذا ببساطة بسبب غيرتهما من بعضهما وكل واحدة تريد مضاجعة جوني في تلك الليلة، لم يستطع البقية ملاحظة هذا الموقف الذي بعث في نفسي المسرة. كما حدث لي منذ أن تعرفت عليه كنت أود أن أداعب أرداف بيبي وكدت افعل ذلك تمنيت لو نذهب سويا لنحتسي مشروبًا ما في أحد الأمكنة الهادئة (هي لم تكن ترغب بذلك وأنا أيضا، لان الطاولة الأخرى لا تضم تعساء أو سعداء) وبغتة، دون إشارة مسبقة لما سيحدث، رأينا جوني ينهض ببطء لينظر لنا ويعرفنّا بأسمائنا، أقترب مني-أي نحوي لأنه لم يكن يهتم لبيبي-أقترب من الطاولة وانحنى قليلًا بشكل طبيعي كشخص أقبل ليتناول قطعة بطاطس من صحن، جلس القرفصاء ثم أجهش بالبكاء، وعلمت دون أن يتكلم بأن جوني كان يبكي على الصغيرة بي.

كان رد فعل طبيعي، أردت أن أساعد جوني على النهوض، وأتجنب أن يظهر بمظهر بائس، وفي النهاية أنا من ظهر بشكل بائس لأنني لم أفعل شيئا سوى أن أواسيه بدلا أن أجبر نفسي لأكون شخصا آخر يحافظ على ما هو عليه، أو أن يفعل ما يرغب به لذلك لم ينتبه رواد المقهى من الرعاع، ثم نظر الي بمحبة.

لكن أغلبيتهم لم تكن يعلموا أن الرجل الأسود الجاثي على ركبتيه هو جوني كارتر نظروا الي كمن ينظر إلى من يزحف على مذبح ليقتلع المسيح من الصليب. وأول من وبخته كان

جوني. كان يبكي بصمت ثم رفع ناظريه وحدق بي، وما بين حالته هذه ونظرات زبائن الحي لم يبق أمامي خيار سوى أن أجلس أمام جوني. لأنني شعرت أنه يريد ان يكون في أي مكان لكن لا لأن يجلس على الكرسي وأجلس أمامه.

لم يكن حالنا سيئا، بالرغم من أنني لم أكن أعرف كم مضت من القرون دون أن يتحرك أحد، ودون أن تنهمر الدموع على وجه جوني، ودون أن يحدق ناظريه باستمرار في عيوني في حين أنا أحاول أن أقدم له السيجارة، وأشعل أخرى لي، وأحاول أن الفت انتباهه بأن بيبي، على ما يبدو لي، أوشكت أن تغادر مسرعة وهي تبكي. وكما جرت العادة، أخذت تيكا على عاتقها ترتيب الأمور بعد أن جلست معنا إلى الطاولة بهدوء وضعت كرسيها إلى جانب جوني ووضعت يدها على كتف جوني، دون أن تضايقه، وفي نهاية الأمر جلس جوني بعض الشيء وتغير من أنسان خائف إلى صديق مناسب يجلس إلى جانبها، بعد أن رفع ركبتيه بضعة السنتمترات عن الأرض (كأنه يريد أن يقول كأنه الصليب، كان أمرا مؤثرًا) فتوسط في جلسته ما بين الراحة والاطمئنان وهو يجلس على الكرسي.

تعبت الناس من النظر إلى جوني، ومن بكائه، ونحن نجلس بجانبه كما الكلاب. وبغتة أخذ يشرح لي الحنين الذي يصيب بعض الفنانين تجاه الكراسي، أيا من كراسي مقهى دفلور بدا لي بغتة شيء رائع، كزهرة، كعطر، كآلة منتظمة أو كرجل شريف متحضر. أخرج جوني منديلًا، وأعتذر دون أن يكره أحدا، جلبت تيكا قهوة وأعطته إياها ليشرب. تصرفت بيبي بأدب بعد أن تخلت بغتة عن حماقاتها حين تعاملها مع جوني، وبدأت تدمدم اغنية مامي بلوز دون أن يبدو عليها إنها تغنيها لغرض

ما في نفسها، فنظر جوني اليها ثم أبتسم، خيل لي أنا وتيكا أن خيال بي أخذ يتضاءل رويدا رويدا في ذهن جوني، وأنه تقبل أن يعود إلى جانبنا بعض الشيء ليرافقنا حتى حالة الهروب المقبل، كما دوما لم تمض سوى لحظات، كنت أشعر خلالها كما الكلب، لأنني تنازلت عن استعلائي وأنا بجانب جوني وكنت أكثر تسامحا، تحدثت عن كل شيء قليلًا من دون أن أوغل في التفاصيل الشخصية (سيكون من المرعب أن أرى جوني ينزلق من كرسيه ويعود إلى...) في حين تصرفت كل من تيكا وبيبي كالملائكة، أما زبائن مقهى دفلور فقد انصرفوا وجاء آخرون غيرهم في تلك الساعة، أنهم زوار الساعة الواحدة ليلا لم يشك أحد منهم بما حدث، بالرغم من إنه في الواقع لم يحدث أمر جلل لو فكرت جيدا بأن بيبي ذهبت أولا (بيبي طالبة مجدة، ففي التاسعة تبدأ بالبحث مع احدهم لتقوم بالتسجيل مساء) في حين تيكا احتست الكأس الثالث من الكونياك وعرضت علينا أن توصلنا إلى البيت لكن جوني رفض، لأنه فضل أن يواصل التحدث معي، انصرفت تيكا لما وجدته بأنه على ما يرام، لكن ليس قبل أن تدفع طلبات الجميع كما يجب لماركيزه أن تفعل. بينما أنا وجوني كنا نتناول كأس جارتوس، شراب مستحب حين لقاء الأصدقاء، خرجنا سويا نسير في شارع سان جيرمان الباريسي لأن جوني أصر على المسير، فهو بدأ يشعر بالتحسن وأنا لست من النوع الذي يهمل أصدقاءه في مثل تلك الظروف.

سرنا عبر شارع لاباي باتجاه ساحة فرستورن بيرغ، تذكر جوني بإلحاح مسرح الدمى هدية والده إليه وهو في سن الثامنة من العمر. حاول أن يصحبني لغاية شارع جاكوب متذكرًا أيام

بي، لكن جوني توقف عن الحديث بعد أن خيم الليل، ثم سار بهدوء، دون تردد (رأيته يترنح في الشارع، ليس لأنه كان مخمورًا، بل لأن ردود أفعاله لم تكن متزنة) بالرغم من ارتفاع حرارة الليل وصمت الشوارع كنا نشعر باسترخاء دخنا السجائر وسرنا باتجاه النهر، وأمام إحدى صفائح المكتبات في شارع كوي دكونت، لرب ذكرى أو صافرة تلميذ جعلتنا نستذكر فيفالدي ثم طفقنا نغني بعاطفة متدفقة وحماس، قال جوني لو أن لديه ساكسفونا لأمضى الليل وهو يعزف لفيفالدي، وجدته يبالغ في الأمر.

- وبعدها، سأعزف قليلًا لباخ وجارلس ايف-قال جوني -لا أدري لماذا يعجب الفرنسيون بجارلس ايفس، هل تعرف أغانيه؟ كأغنية ليوباردو، يجب أن تتعرف على أغنية ليوباردو. ليوباردو...

وبصوته الواهن الأجش أستطاع أن يردد ليوباردو، في حين أن الكثير من الجمل التي يغنيها ليست بالضرورة لايفس، لكن جوني لم يكن يكترث للأمر لأنه كان موقنًا أنه يغني جيدا.

وفي نهاية الأمر جلسنا على المتراس أمام شارع كيت لكور ندخن سيجارة أخرى، كان الليل رائعًا وبعد برهة اجبرنا التدخين لأن نحتسي الجعة في أحد المقاهي وشعرنا بالسرور، لم أعره انتباهًا عندما تحدث للمرة الأولى عن كتابي، لأنه عاد ليتكلم عن جارلس ايفس وعبر عن فرحته بأنه اقتبس الكثير من جارلس في أسطواناته، دون أن ينتبه أحد للأمر (ولا حتى ايفس نفسه كما أظن) لكنني عدت أفكر بالكتاب وأحاول أن أستدرجه ليتحدث عن الكتاب.

-لقد قرأت بعض الصفحات-قال جوني-تحدثت الكثير عما يخص تيكا لكنني لم أفهم العنوان. بالأمس جلب لي آرت النسخة الإنكليزية وحينها استطعت أن أفهم بعض الشيء. إنه كتاب جيد.

تصرف بشكل طبيعي في هذه الحال، مع شيء من غضب متواضع وشيء من الاهتمام، لأن طريقة تفكيره تكشف -لي أنا، المؤلف-حقيقة الكتاب.

- إنه كالمرآة-قال جوني-في البداية كنت أظن أن الكتابة عن شخص هو كمن ينظر إلى نفسه عن كثب وليس إلى المرآة، أنا معجب بالكتاب، فما ورد فيه أمر لا يصدق. وكل ذلك حول أصول ال...

- حسنا، لم أفعل سوى أن استنسخت ما رويته علي في بالتيمور-أجبته ولا أدرى عن أي شيء أدافع. - نعم، في الواقع كل شيء كان يبدو كمن ينظر في المرآة-أصر جوني-ماذا تريد أكثر من ذلك، فالمرايا وفية. ثمة أشياء ناقصة-قال جوني-أنت تفهم ذلك أكثر مني، لكن يبدو لي أن ثمة أشياء ناقصة.

- تقصد التي نسيت أن تسردها علي-أجبت وقد شعرت بالذنب، لان ذلك القرد المتوحش هو قادر على ... (كان من الفروض أن أتطرق إلى ديلوني، من المؤسف أن عبارة متهورة قد تبدد جهدي في النقد)

-على سبيل المثال فستان لان الأحمر-قال جوني.

وعلى أية حال سأستغل كل ما هو جديد في تلك الليلة لأضمه إلى الطبعة الجديدة:(وهذا ليس بأمر سيء. كانت رائحتها كما

الكلب-قال جوني-وهو الشيء الوحيد الثمين في هذه الأسطوانة. إذا اصغيت بإمعان وأسرعت الخطى، لو قرأه ناس آخرون سيكذبونه ولربما ستكون النتائج مؤسفة. أما التابوت الموجود في الوسط فهو الأكبر حجما، كان ممتلئًا بتراب يكاد يكون أزرق اللون. أنها ليست هلوسة، لكن أسوأ ما في الأمر أنه يكذب عمق الأفكار، مجرد منظومة من مجاملات متعددة...- وما كتبته لم يكن مجرد مصادفة-قال جوني. انتباه)

-كيف لا يتطابق مع ما كتبته؟ يا جوني، من حسن الحظ أن الأشياء تتغير. بالكاد مضت ستة شهور وأنت ...

-منذ ستة شهور-قال جوني، وقد هبط من على المتراس ثم ركع على ركبتيه ليسند راسه بين راحة يديه-ستة شهور مضت هه برونو، أستطيع أن أعزف الان لو أن الفتيان... على فكرة: أنها فكرة عبقرية عما كتبته عن الساكسفون والسكس أنها لعبة لغوية جميلة. ستة شهور مضت: ستة، ساكسفون، سكس. برونو عليك اللعنة يا برونو.لن أقول لك أن نضجك الفكري غير قادر على استيعاب تلك اللعبة البريئة للكلمات التي تحتوي على سلسلة أفكار عميقة بما فيه الكفاية (لقد تقبلها ليونارد عندما شرحتها له في نيويورك).

لقد تطور الجاز كما تطورت آلة غسيل الملابس. وأشعر بالمسرة حينما أفكر أنه أمر مهم للنقاد لأنهم يعبرون عن (بصورة خاصة، ما أكتبه) المبدعين، منذ أبداع الموسيقى ولغاية جوني مرورًا بكل سلسلة الأسماء التي ابتليت بالعنة، لم يستطيعوا على استقراء القيم الجمالية لأعماله، وتطبيق الأسس،

والتجاوز على ما يكتبونه أو يتوقعونه. كما أتذكر لحظات التوتر التي تثير أسفي لأنني لست سوى ناقد.

أسم النجم هو آخنخو-قال جوني، وبغتة استمعت لصوته الآخر، صوته حينما يكون ... كيف لي أن أعبر عنه؟ كيف لي أن أصف جوني عندما يكون في الجانب الأخر وحيدا مرة أخرى، كما يبدو؟ قلق، نزلت من على المتراس حدقت به عن قرب.

أسم النجم هو مشروب آخنخو-قال جوني، متحدثًا بكلتا يديه-في حين أجسادهم مبعثرة في ساحات المدينة الكبيرة منذ ستة شهور، لكن لا أحد يراها، ولا أحد يعرفها، أنحني إزاء النجوم (أسم النجم آخنخو). عدنا إلى ما هو معتاد: "هذا ما كنت أعزفه صباحًا". أسم النجم هو مشروب آخنخو أجسادهم مبعثرة في ساحات المدينة الكبيرة، تخرج بعيدًا. بينما عيوني تنزف دمًا، ببساطة لأنني لم أكن أشأ ذلك. حدثني أكثر عن الكتاب، في الواقع لم أستطع أن أعرف ما فكرة الكتاب حتى إن الكثير من المعجبين يقرأه بلغتين (وفي القريب العاجل سيطبع باللغة الثالثة، الآن يتحدثون عن الطبعة الإسبانية في بونيس آيرس لأنهم لا يعزفون التانغو فقط).

-كان فستانا رائعًا-قال جوني-لو تتصور كيف كان يبدو على لان، لكن من الأفضل أن أحدثك فيما بعد عن الويسكي هل لديك نقود. لأن ديدي لم تترك لي سوى 300 فرنك.

ضحكت ساخرًا وأنا أنظر إلى نهر السين. لأنه لم يعد بوسعه أن يحصل على المشروب والحشيش، بدأت أوضح له أن ديدي أمرأه جيدة (ولم أتكلم عن الكتاب) وأن ما تفعله هو بحسن النية، ولحسن الحظ أن من يرافقه هو برونو (الذي ألف كتابًا

ليس إلا) لربما من الأفضل أن نذهب إلى مقهى يقع في الحي العربي، حيث يتركون الشخص ليكون هادئًا على الدوام ليرى بأنه ينتمي إلى النجم آخنخو (هذا ما أفكر به، اقتربنا من سانت سفرين، قاربت الساعة الثانية صباحًا، في تلك الساعة اعتادت زوجتي أن تستيقظ لتقص علي كل ما حدث وهي تشرب القهوة بالحليب).

هكذا امضيتها برفقة جوني، شربنا كونياكا رخيصًا، نرشفه جرعة تلو أخرى وكنا مسرورين جدا. لكننا لم نتطرق للكتاب، باستثناء ذلك الغبار الذي رمادًا، والنجمة، وقطع أشياء توزعت في جمل مشتتة، ونظرات متناثرة، وقطرات لعاب فوق الطاولة، أو التصقت بحافة الكأس (كأس جوني). جاءت لحظات تمنيت فيها الموت. أظن لو أن أحدا ما في مثل موقفي لأفكر بالطريقة بنفسها. لكن كيف لجوني أن يتنازل ويخبرني ما لم يرد أن يبوح به هذه اللية قبل أن يموت، حتى في موته ما زال صيادًا، مازال هائمًا (لا أعرف كيف أكتب كل ذلك) بالرغم من أنه يمنحني السكينة والزعامة، لأن هذه السلطة تمنحني نظرية لا تستحق الجدل وخفايا نفس مسّيرة. كان جوني من حين لأخر يثير ضربات عالية على الطاولة، ثم ينظر الي، يقوم بإشارة غير مفهومة، ثم يعود ليضرب على الطاولة. كان صاحب المقهى يعرفنا منذ أن كنا نرتاده وبرفقتنا عازفي القيثارة العرب، بعد قليل أراد بين ايفا أن يذهب إلى النوم، كنا لوحدنا في ذلك المقهى الوسخ برائحته الكريهة التي امتزجت بالحلويات والعشب وانا أيضا غشاني النعاس لكن شعوري بالغضب جعلني متيقظًا، غضبا أخرسا ليس ضد جوني، بل كالذي قضى مساءه يمارس الحب ثم يشعر بالحاجة لأن يستحم،

لعل الماء والصابون ينفضان عنه ما علق فيه فيبدو من جديد متألقًا كما كان عليه... أخذ جوني يقوم بحركات عنيدة على الطاولة، أحيانا يدندن دون أن ينظر الي. لعل من المستحسن ألا يعود يجادلني عن الكتاب، فالأشياء تقذف به من جهة إلى أخرى، غدا لربما مع أمرأه، أو مشكلة أخرى، أو رحلة، لكن أهم ما في الأمر أن نحذف بشكل خفي ما ورد في الطبعة الانكليزية للكتاب، ولهذا تكلمت مع ديدي وترجيتها أن تسدي لي هذا المعروف، لأن هذا الهدوء أمر مستحيل، في الواقع لم أفكر مطلقًا أن اقرأ الكتاب. لأنني أعلم جيدا أن الكتاب لا يتحدث عن حقيقة جوني، لكن جوني أيضا لا يكذب، لكن الكتاب يحدد موسيقى جوني، لربما تقديرًا له، أو لأبداء حسن النية، لم أشأ أن أظهر لهذا الإنسان العاري حالة الشيزوفرانيا الدائمة، ودناءة سلوك الإدمان، حاولت فقط أن أبرز الخطوط العامة، وأبرز فقط ما يستحق السرد، لأن فن جوني الذي لا يضاهيه فن آخر، ماذا يمكنني أن أقول؟ لكن هذا ما ينتظره مني، وهو كما عادته ينتظر شيئا ما، كأن يجثو ليقوم بتلك القفزات السخيفة التي تزعجنا جميعا.

إنه يرصدني ليكذب كل القواعد الجمالية التي بنيت عليها معزوفاته الموسيقية الأخيرة، نظرية الجاز الكبيرة، والتي نالت الثناء في كل مكان. بصراحة، ما الذي يهمني من حياته الشخصية؟ الشيء الوحيد الذي يقلقني هو سلوكه الذي لا أستطيع أن أتواصل معه (أو لا أستطيع متابعته) أوشكت أن أكذب الاستنتاجات التي وردت في كتابي، تركتها تهوى لأن كل البيانات مزيفة، لأن ما يعزفه من موسيقى هو شيء آخر.

ماذا قلت منذ لحظة أن في الكتاب توجد نواقص؟

(الآن حانت لحظة الانتباه)

-أي أشياء تنقصه يا برونو؟ آه، قلت تنقصه أشياء. أنظر، ليس فقط فستان لان الأحمر... هل كانت حقا توابيت يا برونو؟ لقد رأيتها مرة أخرى ليلا، في حقل واسع، لكنها لم تكن مدفونة بشكل كامل، لقد وشم على بعض منها نقوش ورسوم، بدت كعمالقة ترتدي خوذات كما في السينما، يحملون بيدهم عصا كبيرة ورسوما، كان منظرها مرعبًا جدا أن تسير بين التوابيت وأنت تعرف أنه لا يوجد أحد آخر، وأنا بمفردي أسير بينها. لا تحزن يا برونو، لا يهم لأنك نسيت أن تكتب عن كل ذلك. لكن برونو-يرفع أصبعه دون أن يرتجف-الذي نسيته عني.

-هيا لنذهب يا جوني

-عني أنا يا برونو، أنا. ليس ذنبك أنك لم تستطع أن تكتب عما لم أستطع أن أعزفه. حينما تقول إن سيرتي الذاتية موجودة في أسطوانتي. أنا أعلم أنك تؤمن بما تقوله إضافة لذلك فهو طرح جيد. لكن الأمر لم يكن هكذا. وإذا لم أستطع أن أعزف كما ينبغي، أعزف عزفا حقيقيًا... أنت تعلم أنه لا يمكن طلب معجزة يا برونو. الجو حارفي الداخل، هيا بنا.

واصلنا مسيرنا في الشارع، سرنا بضعة أمتار حتى بلغنا زقاقًا فقاطعتنا قطة بيضاء بقي جوني فترة طويلة يداعبها. حسنا، لنكتف إلى حد هنا: في ساحة سان ميشيل وجدت سيارة أجرة تحمله إلى الفندق وأنا أعود إلى البيت، وبعد كل شيء لم يكن الوضع سيئا، في لحظة ما خشيت أن يناقض جوني ما طرحته في نظريتي التي ذكرتها في الكتاب ويطبقها علي قبل أن يتحدث بها وينشرها هنا وهناك. يا لجوني المسكين وهو يداعب

القطة البيضاء لقد عبر عما يدور في أعماقه وكل ما قاله إن ما من أحد يعرف شيئا عن أحد، وهذا ليس بشيء جديد، لأن هذه هي مواصفات كتاب السيرة الذاتية ولكنها تواصل إلى الأمام، ما هذه الأفكار الشيطانية، جوني هيا بنا إلى البيت لقد تأخر الوقت.

-لا تظن أن هذا ما حدث فقط - قال جوني- وقد نهض فجأة لو تعلم ما الذي أفكر به-هل الله يحبني.

-هيا بنا يا جوني، لنذهب إلى البيت لقد تأخر الوقت.

-أنت كرفاقي الآخرين يا برونو تناجون إلهكم. لقد تجرأت أن تمزجني بكثير من القرف، كتبت عن طفولتي وعن عائلتي وعن ورث اجدادي الذي لا أعرفه... كومة بيض فاسد وأنت تقاقي في وسطه بسعادة، أنا لا أرفض ما تعبدون لأنه لم يقف معي.

-كل ما قلته أن الموسيقى التي يعزفها السود (الزنوج)...

-لا أريد إلهكم – يكرر جوني-لماذا قبلت كتابك؟ أنا غير متأكد إذا كان إلهكم موجودًا حقا، أنا أعزف الموسيقى ولدي إلهي، ولا أحتاج إلى اختراعاتكم، لأنني أتركه إلى مهاليا جاكسون والبابا، أريد أن تحذف هذا الجزء من الكتاب.

-إذا ألححت على ذلك – أجبته فقط لأقول شيئا-سأفعله في الطبعة الثانية.

-انا وحيد مثل هذه القطة، بل أكثر عزلة لأنني على دراية بالأمور في حين أنت لا تعلم شيئا. أنا مدان، لقد غرزت

اصابعك في يدي يا برونو، أنا أعزف الموسيقى وأصنع إلهي، أنا لست فقط جوني كارتر.

-بالضبط هذا ما كنت أريد ان أقوله حينما كتبت ...

-كأنك تمطر من مؤخرتك – قال جوني، لأول مرة شعرت بغضبه هذه الليلة -لا يمكن أن تقول شيئا، لأنك تترجمه قاصدًا إلى لغتك الوسخة، أعلم إنك ترى الملائكة عندما أعزف لكن الذنب ليس ذنبي. وهذا أسوأ ما في الأمر، إنك نسيت أن تذكر ذلك في كتابك يا برونو، انا لا أساوي شيئا، وكل ما أعزفه وكل ما يصفق له الناس لا يساوي شيئا، حقا لا يساوي شيئا. تواضع غريب، في تلك الساعة من الليل. ذلك الجوني...

-كيف أستطيع أن أشرحه لك؟ - صرخ جوني وقد وضع يديه على كتفي، وهزني يمينا وشمالًا. (السلام! يصرخ من النافذة) الموضوع لا يتعلق بالكثير أو القليل من الموسيقى، انه أمر آخر... على سبيل المثال، الفرق بين بي التي ماتت وبي التي مازالت على قيد الحياة، أن ما اعزفه هو بي التي فارقت الحياة، هل تعلم، في حين ما أريده، ما أريده... لذلك في بعض الأحيان الساكسفون، فتظن الناس أنني مخمور، في الواقع أنا دوما مخمور عندما أقوم بذلك، لكن في نهاية الأمر شراء الساكسفون يكلف الكثير من المال.

-لنذهب من هنا، سأحملك إلى الفندق بسيارة أجرة.

-إنك بحر من الطيبة يا برونو-قال جوني ممازحًا-الصديق برونو يسجل في مفكرته كل ما يقال من قبل الآخر، إلا الأشياء المهمة. لم أظن مطلقًا أنه يمكنك أن تخطئ لدرجة أن آرت تجاهل الكتاب. في البداية بدا لي إنك تتكلم عن شخص آخر.

عن روني أو مارسيل، وبعدها تطرقت إلى جوني الموجود هنا وجوني البعيد. أقصد إنك تكلمت عني وأنا بدوري أتساءل هل هذا هو أنا؟ وبخاصة حديثك عني في بالتيمور، وبيردلاند ثم أسلوبي ... أسمع – أضاف جازمًا-لا تظن أنني لم أعر انتباهًا لما كتبته في الكتاب من أجل الجمهور. لكنه أنجاز جيد وكل ما قلته عن طريقتي في العزف والانسجام مع الجاز كان رائعًا، رائعًا، لماذا نواصل حوارنا حول الكتاب؟ أنه كزبالة في نهر السين، كتلك القشة التي تطفو بالقرب من السياج، هكذا هو كتابك، وأنا تلك القشة الأخرى، وانت تلك القنينة التي تومئ برأسها. برونو أنا سأموت دون أن أجد ... دون... أن أحمله بذراعي، دون أن أضعه على درابزين الرصيف.

غرق في الهذيان كما دوما، يهمس بكلمات متنافرة، ثم يبصق.

-دون أن يجد-يكرر-دون أن يجد...

-ما الذي تريد أن تجده يا أخي؟ قلت له-لا يجب أن تطلب عمل المستحيل، لان ما وجدته يكفي ل ....

-بالنسبة لك، أعلم ذلك-فقال جوني مزمجرًا-بالنسبة لآرت، وديدي، ولان... لا تعرف كيف... نعم، أحيانا ينفتح الباب... تنظر إلى القشتين وقد تلاقتا، ترقصان واحدة أمام الأخرى... أنه أمر رائع... أنه الزمن.... لقد اخبرتك، يبدو لي، أن موضوع الزمن... برونو، بحثت عنه طوال حياتي في الموسيقى وعن ذلك الباب التي أنفتح في نهاية الأمر. شيء عدم، مجرد قشة... أتتذكر ذات ليلة، في نيويورك.... فستانا أحمر، نعم أحمر، بدا رائعًا عليها. حسنا، ذات ليلة كنا مع ميلس وهال... أمضينا ما يقارب ساعة كاملة ونحن نعزف الموسيقى

نفسها، كنا بمفردنا تغمرنا السعادة ... لقد عزف ميلس معزوفة رائعة كدت أقفز من مقعدي، فأغلقت عيني وغادرت محلقًا يا برونو، أقسم لك أنني حلقت... كنت أسمع وكأنني أجلس في مقعد بعيد جدا لكن في داخلي، بل إلى جانبي، أحد ما كان واقفا... ليس بالضرورة شخص... أنظر إلى القنينة، فهي تحرك فوهتها بشكل غير مألوف...لم تكن شخصا ما، يبحث عن مقارنات...أنه الأمان، اللقاء، كما في الأحلام، ألا يبدو لك ذلك؟ عندما تنساب الأشياء، لان والفتيان ينتظرونك كما الديك الرومي الذي يخرج من الفرن، في السيارة لا تجد الضوء الأحمر، كل شيء يمضي بسلاسة كما لعبة البليارد. وما كان موجودًا إلى جانبي كان يشبهني لكن دون أن يشغل حيزا، دون أن يكون في نيويورك، وبخاصة بلا زمن، دون أن... دون أن بعدها.... لحظة لم يكن سوى... وأنا لم أكن أعلم أنها كذبة، حدث هذا لأنني كنت ضائعًا في الموسيقى، ولما كدت أنتهي من العزف، لأن في نهاية الأمر ستزيل تلك القاعة البائسة الرغبة في عزف البيانو، في تلك اللحظة أخذت أحلم....

بكى بعذوبة، وفرك عينيه بيديه المتسختين، أنا لا أعرف ما الذي أعمله هذا المساء، ارتفعت الرطوبة من النهر، فشعرنا بالقشعريرة.

-لربما كنت أريد أن أسبح دون ماء-همس جوني-أو تمنيت فستان لان الأحمر لكن دون لان. لقد ماتت بي، أظن إنك على حق فكتابك جيد جدا.

-هيابنا يا جوني، لن أدافع عما وجدته أنت رديء.

- ليس الأمر كذلك، كتابك جيد لأنه... لا يحتوي على توابيت يا برونو. أنه كالذي يعزفه ستاجمو، نظيف ونقي. ألا يبدو لك أن ما يعزفه ستاجمو كأنه عيد ميلاد أو حدث مفرح؟ نحن.... قلت لك أنني أريد أن أسبح لكن دون ماء. يبدو لي.... لكن يجب أن أكون أبله... لربما سأجد شيئا آخر ذات يوم لأنني لم أقتنع، ظننت أنها أشياء جيدة، ثوب لان الأحمر، وبي، كانتا كما مصيدة الفئران، لا أستطيع أن أشرحه بطريقة أخرى.... مصائد كما يجدها البعض.

أتعرف، لكي نقول إن كل شيء يسير على ما يرام يا برونو، أظن أن لان والجاز، نعم حتى الجاز، كانا كما إعلان في مجلة، أشياء جميلة لكن أبق كما أنت لأن لديك باريس وزوجتك وعملك.... في حين أنا لدي الساكسفون، كما تقول في الكتاب. كل ما احتاجه هو فخ، عزيزي.... لماذا لا يمكن أن يوجد بديل آخر، ألا يمكن أن نكون قد اقتربنا، كما الجانب الآخر من الباب....

- الشيء الوحيد الذي يستحق أن نفعله هو أن نهتم بنفسنا قدر الإمكان-قلت له فجأة فشعرت أنني أبله.

-ونربح كل أعوام الاستفتاء الذي جرى حول داون بيتن، واضح-قال جوني-طبعا نعم، طبعا نعم، طبعا نعم، طبعا نعم. حاولت أن ارافقه برفق إلى الساحة، ولحسن الحظ كانت تقف عند الركن هناك سيارة أجرة.

-لكنني أرفض إلهك – دمدم جوني-لا تأت به، لأنني لا أريده ولو كان حقا موجودًا عند الجانب الآخر من الباب، فالأمر لا يهمني فهولا يستحق أن أنتقل إلى الجانب الأخر لكي تفتح له

الباب، حتى لو هشمتها ركلا أو كسرتها لكما أو بصقت عليها أو تبولت يومًا كاملًا على الباب، ذات مرة في نيويورك أظن أنني فتحت الباب بالموسيقى التي أعزفها، ثم اضطررت أن أتوقف وحينذاك أغلقه في وجهي ليس لسبب سوى أنني لم أصل له، ولأنني لن أصلي ابدا، لأنني لا أريد أن أعرف شيئا عن هذا البواب الذي يرتدي زيا موحدًا ويفتح الأبواب مقابل صدقة

يا لجوني المسكين، بعدها يشتكي مني لأنني لم أذكر هذه الأشياء في الكتاب. أنها الثالثة فجرا.

لقد عادت تيكا إلى نيويورك، وجوني أيضا عاد إلى نيويورك لكن دون رفقة ديدي التي استقرت الآن في بيت لويس بيرون، الذي وعدها مثل أي عازف ترمبون وكذلك بيبي لينوكس عادت إلى نيويورك. لم يكن موسم باريس متميزًا لأنني فقدت أصدقائي. مبيعات كتابي عن جوني كانت جيدة في كل مكان، من الطبيعي أن يتكلم سامي برتزال عن طبعة محتملة في هوليود، أمر ممتع عندما نحسب سعر فرق الصرف ما بين الدولار والفرنك. زوجتي لاتزال غاضبة بسبب علاقتي مع بيبي لينوكس، أمر لا يستحق القلق مقارنة مع بقية الأشياء، في نهاية الأمر معروف عن بيبي عدم مبالاتها وأية أمرأه ذكية يجب أن تفهم أن هذه الأشياء لا تخل بالحياة الزوجية، كما أن بيبي قد عادت إلى نيويورك مع جوني، لقد فضلت أن تذهب برفقة جوني والباخرة بنفسها، دون أن تدخن الحشيش مع جوني، هما دوما فاقدًا الوعي حقا إنها مسكينة. أما آمورس فقد أوشكت أن تصدر في باريس في الوقت نفسه الذي بدأ العمل بالطبعة الثانية لكتابي المترجم إلى اللغة الألمانية. لقد فكرت كثيرًا بتعديلات الطبعة

الثانية بالشكل الذي يسمح به شرف المهنة، تساءلت لو لم يكن من الضروري أن أكشف عن تفاصيل السيرة الذاتية.

تناقشنا عدة مرات مع ديلوني وهويدر، هم لا يعرفان أي نصيحة يسدونها لي لأنهما وجدا الكتاب رائعًا كما أن الناس قد أعجبوا به. لكنني لاحظت أنهما يخشيان العدوى الأدبية، أو لأنني منحت العمل صبغة لا علاقة لها بموسيقى جوني، أو على الأقل هذا ما فهمناه جميعا. أظن أن كلام الناس المختصة (ورائي الشخصي من الغباء انكاره على هذا المستوى من الأشياء) وتبريراتهم سأتركها كما هي في الطبعة الثانية. قرات أخبار الصحف الأمريكية بشكل دقيق (أربعة تحقيقات عن جوني، وأخبار عن محاولة انتحار جديدة، هذه المرة بصبغة اليود، وأنبوب تنظيف المعدة وثلاثة أسابيع في المستشفى، ثم عاد ليعزف في بالتيمور كأن شيئا لم يكن) فبثت بداخلي السكينة، بالرغم من أن هذه الانتكاسات تسبب لي ألما. لم يتفوه جوني ولو بكلمة عن الكتاب. على سبيل المثال (كما ورد في ستوبنغ اروند، مجلة تعنى بالموسيقى وتصدر في شيكاغو جاء فيها مقابلة تيدي روجر مع جوني): "ما تعليقك عن الكتاب؟"-"لا شيء سوى أنه كتاب جيد، برونو أنسان رائع". لأننا نعرف ما الذي قد يقوله جوني حينما يكون مخمورًا أو يتعاطى الحشيش لكن من حسن الحظ لم تكن هناك شائعات تكذيب من طرفه.

قررت ألا أصحح أي شيء في الطبعة الثانية، واصلت أقدم جوني كما لو أن في أعماقه: شيطان مسكين، متواضع، موهوب كأي عازف موسيقى، كلاعب شطرنج وشاعر موهوب في أبداع أشياء رائعة، دون أن يملك أدني وعي (ملخص القول كملاكم يفتخر بنفسه لأنه يعلم أنه قوي البنية) بأبعاد عمله. كل هذا جعلني أحافظ على

صورة جوني: لم يكن الأمر هو خلق تعقيدات أو تحليلات نفسية، لأن الأشياء العابرة والموجزة لا تقنع أحدا فاليدين التي تشير إلى الإيقاع، والوجوه المستبشرة، والموسيقى التي تخترق الجلد، وتمتزج بالدم والأنفاس لا تحتاج إلى تبريرات عميقة.

وصلت أولاً البرقيات (لديلوني، ولي، ومساء نشرت الصحف تعليقات غبية)، بعد عشرين يومًا تلقيت رسالة من بيبي لينوكس، التي لم تنسني:" في بيلفو عاملوه بشكل رائع وأنا خرجت في أثره حينما غادر. سكنا في شقة مايك روسلو، لا أظن أننا سنذهب إلى النرويج. كان جوني جيدا، بالرغم أنه لم يشأ أن يعزف في الأماكن المفتوحة لكنه وافق على تسجيل أسطوانته مع الفتيان في نادي 28، أستطيع أن أقول لك، في الواقع كان ضعيف جدا (أستطيع أن أفهم ما تقصده بيبي بهذا الكلام، بعد مغامرتنا في باريس) وذات ليلة انتابني الرعب للطريقة التي كان يتنفس بها وكان يشتكي. الشيء الوحيد الذي كان يواسيني- أضاقت بيبي بعذوبة -انه مات سعيدًا دون أن يدرك ذلك. كان ينظر إلى التلفاز وبغتة سقط ارضا. قالوا لي أنه حدث سريعًا". من أين يمكن أن أستقرئ أن بيبي لم تكن حاضرة وهكذا كان فيما بعد، علمنا أن جوني كان يعيش مع تيكا في بيتها وأمضى خمسة أيام معها، حيث كان مرتبكًا ومكتئبًا، ويتحدث عن اعتزاله لعزف الجاز، وسيذهب ليعيش في المكسيك ويعمل في الحقل (كل شخص يمر بمرحلة تبدو له الحياة مملة)، وتيكا تراقبه وتعمل المستحيل من أجل تهدئته وتجبره على أن يفكر بالمستقبل (هذا ما قالته بعد ذلك تيكا، وكأنها هي أو جوني ليس لديهما أدنى فكرة عن المستقبل). عند مشاهدة برنامج في التلفاز يحبه جوني، بدأ يعطس، وبغتة أنحنى بشدة وكانت

النهاية. لست متأكدًا أن موت جوني كان مفاجئًا كما قالت تيكا للشرطة (لتحاول أن تخرج من ضوضاء التساؤلات التي تورطت بها بسبب موت جوني في شقته، فالحشيش لم يكن بمتناول يديه. أنه بعض أشياء من متاعب تيكا السابقة ونتائج التشريح لم تكن مقنعة. أستطيع أن أتخيل ما الذي سيجده الطبيب في كبد ورئتي جوني).

" لو تعلم كم حز بنفسي موته، بالرغم من أنني – لكن سأكتب لك في مرة أخرى عندما يكون لدي المزاج للكتابة لأقص عليك ما حدث (يبدو أن روجر يريد أن يعقد معي عقدا في برلين وباريس) كل ما أريدك أن تعرفه إنك كنت خير صديق لجوني." وبعدها انهالت بالشتائم على تيكا لأنها لا تعتقد فقط إنها من سببت موت جوني بل كذلك هي السبب في اعتداء بيرل هاربور والطاعون الأسود، ختمت بيبي المسكينة رسالتها:" قبل أن أنسى ذات يوم في بيلفو سأل كثيرًا عنك، تواردت عليه الأفكار وظن إنك في نيويورك ولا ترغب برؤيته تكلم عن حقول ممتلئة بأشياء لا أدري ما هي، ثم ناداك حتى أخذ يشتمك، أنت تعلم ماذا تفعل الحمى. قالت تيكا لبوب كاري أن آخر كلمات قالها جوني كانت: "أعمل لي قناعًا"، لكن تصور تلك اللحظة..." كيف لي أن أتخيله." زاد وزنه" أضافت بيبي في نهاية الرسالة،" وترك التنزه". أنها تفاصيل متوقعة من أنسانة رقيقة مثل بيبي لينوكس.كل ذلك حدث مع صدور النسخة الثانية من كتابي. لكن من حسن حظي كان لدي الوقت لكي أدرج ملاحظات من سجل الوفيات بالآلة الطابعة، وصورة للجنازة حيث حضرها العديد من مشاهير عازفي الجاز. وهكذا تمت السيرة الذاتية، أقصد اكتملت. لربما ليس من المستحسن أن أقول ذلك، ولكنني من الطبيعي أن أنظر للموضوع من ناحية جمالية محضة.

ساد الحديث عن ترجمة أخرى، أظن ستصدر باللغة السويدية أو النروجية وزوجتي فرحت لهذه الأخبار.

الأسلحة السرية

خوليو كورتاثار

ترجمة وتقديم عن الاسبانية

ميادة مصطفى سامح

نلمس في قصصه فكرتين اساسيتين
هما الميتافيزيقيا كرمز للعالم والواقع
المنفصل عن الممارسات اليومية
المألوفة فيجمع ما بين عالمين أحدهما
غامض لا مرئي، وهذا لا يتشكل من
خيال اعتباطي اغراضه جمالية خالصة
بل هو استقصاء لعمق الوجود الإنساني،
هدفه تجسيد تجارب حياتية يطرحها
الخيال من خلال الواقع الموضوعي
لينتهي بها إلى وجود نظام آخر لسلوكنا
الشخصي حتى لتبدو الفنتازيا واقعا

دار أدب فن للثقافة والنشر 2017